

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

ا.د. محمد حسين هيكل

رئيس مجلس الشيوخ السابق

فِي حَيْثُ خَلَّالِ

صُورٌ وَجَدَانِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ

بقلم الدكتور

زكي مبارك

in Library (GOAL)
series

المفتش بوزارة المعارف

[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْعَصْرِيَّةِ بِبَغْدَادَ

لصاحبها محمود هاشمي

الطبعة الأولى : ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

مطبعة الأستقامة بالقاهرة

شارع نزيه بابا ١٢

الاهداء

إلى الباحث الذى صوّر عصر النبوة .
أبدع تصوير ، وجلاه أروع جلاء ،
وعطر الأدب الحديث بأريج الدين الحنيف
إلى معالى الدكتور محمد حسين هيكل
باشا أهدي وحي بغداد ؟

زكى مبارك

مصر الجديدة فى } ١٠ رجب سنة ١٣٥٧
} ٥ أيلول سنة ١٩٣٨

مؤلفات زكي مبارك

- (١) حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة)
- (٢) البدائع (الطبعة الثانية في جزأين)
- (٣) الأخلاق عند الغزالي
- (٤) مدامع العشاق (الطبعة الثانية)
- (٥) الموازنة بين الشعراء (الطبعة الثانية)
- La Prose Arabe au I^{er} siècle de l' Hégire
- (٧) ديوان زكي مبارك
- (٨) ذكريات باريس
- (٩) تحقيق نسب كتاب الأم
- (١٠) شرح الرسالة العذراء (ومعه بحث مفصل
بالفرنسية موضوعه
- L' Art d' écrire chez les Arabes au III^e
siècle de l' Hégire
- (١١) اللغة والدين والتقاليد
- (١٢) النثر الفني (في مجلدين كبيرين)
- (١٣) عبقرية الشريف الرضي (في جزأين)
- (١٤) المدايح النبوية في الأدب العربي
- (١٥) التصوف الإسلامي (في مجلدين كبيرين)
- (١٦) وحي بغداد

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد كتب الله تباركت أسماؤه أن يجعلني من الموفين بالعهد : فأخرجت كتاب «ذكريات باريس» تحية لمدينة النور التي اتصلت بها نحو خمس سنين ، واليوم أخرج كتاب «وحي بغداد» تحية لمدينة الرشيد التي اتصلت بها نحو تسعة أشهر قضيتها في يقظة عقلية أوحى إلى قلبي ألوف الصفحات

وكنيت نظرت فرأيت كتاب «ذكريات باريس» أوحى إلى فريق من الكتاب أن ينشئوا المؤلفات عن العواصم الغربية أمثال باريس ولندن وبرلين ، وأنا اليوم أرجو أن يكون كتاب «وحي بغداد» سنة حسنة لمن يعيشون في العواصم الشرقية عساهم يحبون العرب والمسلمين في بلادهم بما يتسكرون من شائق الوصف ورائع الخيال .

وقد عجب ناس من وفائي لأهل العراق واهتمامي بتسجيل ما لهم من محامد ومناقب ، وكنت أستطيع أن أقول إنني عشت في العراق معلما ، ومن واجب المعلم أن يبرز المحاسن ليقوى الروح المعنوى

في تلاميذه ويسوقهم إلى ميادين الجهاد ، كنت أستطيع أن أقول
ذلك ، ولكنني في الواقع لم أر من أهل العراق غير الشهامة والنبيل
والوفاء ، ويسرني ويشرح صدرى أن أقول كلمة الحق في تحية من
يعيشون في أنس بزهرات بغداد ونخلات البصرة وسمكات الفرات
وسياتي يوم يعذرنى فيه من اتهمونى بالإسراف في حب البلاد
التي عرفت بكاء الحماة وظلام الليل

سيعرف إخوانى في مصر أنى بنيت لهم صرحا من النوداد في
وطن نبيل هو العراق

سيعرف إخوانى أن غيرتى على سمعة العراق ستضاف إلى المحامد
المصرية ، وسيةول المنصفون إن المصرى حين يغترب لا ترى عينه
غير الجميل من شمائل الرجال

وهل كنت أملك أن أذكر العراقيين بغير الثناء ؟ لقد نظمت
في تكريمى هناك قصائد وخطب ومقالات لو جُمعت لكانت مادة
كريمة لكتاب نفيس ، فبأى وجه ألقى الله إذا ذكرت العراق
بغير الجميل ؟

كنت أعرف أن أيامى قصيرة في العراق فتجشمت ما تجشمت
لأزور أشهر الحواضر العراقية ، فكانت فرصة عرفت فيها كيف
يلتاع من يفارق حواضر العراق ؟

يأليت ماء الفرات يخبرنا أين استقلت بأهلها السفن
ولا يعلم إلا الله كيف رحلت عن البصرة والحلة والنجف
الموصل وكركوك وكر بلا

لا يعلم إلا الله كيف أخفيت يوم الفراق عن أصدقائي في بغداد
لا يعلم إلا الله كيف أخفيت نيتي عن تلاميذي فلم أخبرهم أن
التسليم عليهم يوم الرحيل هو آخر العهد
لا يعلم إلا الله كيف انخلع قلبي وأنا أنظر إلى دار المعلمين العالية
آخر نظرة ، وألقى عليها آخر سلام
وإذا كانت شواغلي بمصر قضت بأن أعتذر عن المضي في خدمة
تلاميذي بالعراق فسأتعزى عن فراقهم كلما تذكرت أني أوقدت في
صدورهم جذوة لن تتمد أبداً ، وسيصيرون بإذن الله من أشرف
خدام العراق

والعهد بيني وبينهم أن نقضى العمر كله أوفياء للحق والواجب ،
وأن لا نرى المغانم في غير طهارة الضمائر وسلامة القلوب

هذا كتاب أوحته بغداد ، وفيه ما في جوّ بغداد من طغيان الرق
والعنف ، وصولة العقل والفتون
هو كتاب سُبْرَقَمَ على وجه الدهر وجبين الزمان
هو كتاب سيسعد به قوم ويشقى به آخرون
ولكنه سيظل أثيراً لدى بغداد ، لأنه من وحي بغداد
محمد زكي عبد السلام مبارك

من جحيم الظلم في القاهرة

إلى سفير الوجد في بغداد^(١)



وَقَدْتُ عَلَى بَغْدَادَ وَالْقَلْبَ مُوجِعٌ فَمَلَّ فَرَجْتُ كَرْبِي وَهَلْ أَبْرَأْتُ دَائِي
تَرَكْتُ الْخُطُوبَ السُّودَ فِي مَصْرِفَانِ بَرْتُ سَهَامَ الْعُيُونِ السُّودَ أَصْدَعُ أَحْشَائِي
تَرَكْتُ دُخَانًا لَوْ أَرَدْتُ دَفْعَتُهُ بَعْزَةً مَقْتُولٍ الذَّرَاعِينَ مَضَاءَ
وَجِئْتُ إِلَى نَارٍ سَتَشْوِي جَوَانِحِي وَتَهْهَرُ أَضْلَاعِي وَتَسْحَقُ أَحْنَائِي
فَيَاوِيحُ قَلْبِي عَضَّهِ الدَّهْرُ فَكَتَوِي بَأْفَحَةٍ قَتَائِنِ جَوْرٍِ وَلِصَبَاءِ

سَمِعْتُ حَمَامَاتٍ يَنْحَنُّنَ فَعَزَّنِي حَنِينِي إِلَى صَحْبٍ بِمَصْرِ أَشْجَاءَ
هُمْ أَسْأَلُونِي لَا عَفَا الْحُبُّ عَنْهُمْ إِلَى لَيْلَةٍ مِنْ غَمْرَةِ الْحُزْنِ لَيْلَاءَ
أُنَادِيهِمْ بِالْوَهْمِ وَالْقَلْبُ عَارِفٌ بَأْنِي لَدَى كَأْسٍ مِنَ الدَّمْعِ حَمَاءَ
شَرِبْتُ الْأَسَى صِرْفًا فَتَارَتْ مَدَامِعِي تُذْيِعُ حَدِيثِي فِي الْغَرَامِ وَأُنْبَأِي
أَنَا الطَّائِرُ الْمَجْرُوحُ يَرْمِيهِ بُوْسُهُ لَشَقْوَتِهِ مَا بَيْنَ نَارٍ وَرَهْمَاءَ

(١) أَلْقَيْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي نَادَى الْقَلَمِ الْعِرَاقِيِّ يَوْمَ اجْتِمَاعِ الرِّسْتَمِيَّةِ

فإن عشت أذنتي جروحي وإن أمت شوتني في الأرواح نيران بأسائي

أحبائي في مصر تعالوا فإنتي أودع في بغداد أنسى وسرأتي
تعالوا أعينوني على السهد والضنى فلم يبق مني غير أطياف أشلاء
تعالوا أهدنكم في القلب لوعة هي الجاحم المشبوب في جوف قصباء
تعالوا تروا بغداد أغرت بمهجتي نوب المنايا في صباحي وإمساى
أحبائي في مصر، وهل لي أحبة؟ أحبائي في مصر تعالوا أحبائي
تعالوا إلى بغداد تاقوا أخطكم صريع خطوب يتحين وأرزاء
تعالوا تروني في صروفي من الجوى تهدم بذاني وتنتض حوبائي

عفا الحب عن بغداد، كم عشت لاهياً أكثر أيامي بليلى وظمياء
فكيف وقعت اليوم في أسر طفلة مكحلة بالسحر ملثوغة الرأ
أصول عينيها بعني والهوى يشيع الحمياً في فؤادي وأعضائي
وأشهد أطياف الفرديس إن بدت تراود أحلامي مزاحاً وأهواى
والمس نيران الجحيم إذا مضت تروم بعين الجدة بعدى وإقصائي
أكاتم أهائها هيامي ولو دروا لمسات بجنب الشط أرواح أصدائي
إلى الحب أشكوها فقد ضاق مذهبي وأخلفني بعد الفراق أعزائي

إلى الحب أشكوها فلولاها لم أبت حليفَ هموم يضطرعن وأنواء
إلى الحب أشكر، بل إلى الله وحده أفوض بأسائي لديها ونعمائ

أرباه أنقذني فأنت رميتني بقلبٍ على عهد الأحباء بكاءً
أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى على وقده بالقلب أنفاسَ رؤساء
أحب سعيَ الوجد فارم حشاشتي على جمراتٍ منه حمقاء هوجاء
أحب شقائي في الغرام وإنه لأروح من مطولة الزهر شجراً
فيا خالق النار العصوف وشائقي إليها أدم فيها لو أعج إصلائي
أحبك ياربى فهل أنت شافعي إلى سرحة في شطّ دجلة زهراء
شهدت فناءً فيك حين رأيته تحاول إضلالي وتشدّ إفتائي
ومن أنت ياربى ؟ أجبني فإني رأيتك بين الحسن والزهر والماء
أنا الفاتن المفتون فارحم بليتي وقدر بأرجاء الفرديس إثنائي
ولا تخلى في جنة الخلد من هوى برعبوبة لا تعرف الرفق حمقاء
أحب الملاح الهرج في الخلد نفسه عساني بدار الخلد أهجّر إغفائي
تباركت ما الجنات من دون لوعة سوى بقعة في غابة الموت جرداء
يحب ضعيف الروح في الخلد أنسه إلى غادة مأمونة الغيب بلهاء

وَأَنْشُدُ فِي الْجَنَاتِ إِنْ ذُقْتَ رَاحَهَا مَلَاعِبَ مَنْ طَلَشَ وَقَتَكَ وَإِغْوَاهُ

أَضَالِيلُ يُزْجِيهَا خِيَالِي وَأَنْشَى إِلَى سَاحَةِ مَطْمُوسَةِ الْأُسِّ قَفَرَاءُ
لَقَدْ كُنْتُ فِي مِصْرَ شَقِيًّا فَمَا الَّذِي سَتَجْنِينِ يَا بَغْدَادُ مِنْ وَصْلٍ إِشْقَانِي
أَهَذَا جَزَائِي فِي الْعِرَاقِ وَحُبِّهِ أَهَذَا جَزَائِي فِي رَوَاحِي وَإِسْرَائِي
أَخِلَّائِي مَا بَغْدَادُ رَاحِي وَإِنْ دَرْتُ قُلُوبُ صَبَايَاهَا مَدَارِجَ إِصْبَائِي
أَخِلَّائِي رُدُّونِي إِلَى مِصْرَ إِنْ تَنِي أَرَى الظُّلْمَ دُونَ الْوُجُودِ تَسْعِيرَ لَأْوَاءِ

سَقَى الْغَيْثُ أَيَّامِي بِحُلُوانٍ وَارْتَوْتُ مَلَاعِبَ أَحْلَامِي هُنَاكَ وَأَهْوَائِي
فَمَا غَدَرْتُ بِي فِي حِمَايَا نَسَائِمٍ سَقَاها رِيْعُ الْحُبِّ أَكْوَابَ أَنْدَاءِ
وَلِلَّهِ عَهْدٌ بِالزَّمَالِكِ لَمْ يَكُنْ سِرِّي لِحَاثِ يَزْدَهَيْنَ وَأَضْوَاءِ
هَضَرْتُ بِهِ غُصْنًا نَضِيرًا تَفْتَحُ أَزَاهِيرُهُ فِي ظِلِّ خَضِرَاءَ لَفَاءِ
وَأَيْنَ عَلَى مِصْرَ الْجَدِيدَةِ مَوْرِدِي وَأَيْنَ سُهَادِي فِي حِمَايَا وَإِغْفَائِي
أَطَايِبُ ذُقْنَاهَا وَلَمْ نَذَرْ أَنَّهَا لُنَذَرْتِهَا فِي الدَّهْرِ أَزْهَارُ صَحْرَاءِ

أَحْبَائِي فِي مِصْرَ الْجَدِيدَةِ سَارِعُوا فَقَدْ صَرَّعْتَنِي حَوْلَ دَجَلَةِ أَدْوَائِي

أَجِدْكُمْ هَلْ تَعْلَمُونَ بَأَنِي وَإِنْ كُنْتَ جَارَ الشَّطِّ أَشْرَبَ أَظْهَانِي
خَذِرْنِي إِلَيْكُمْ يَارِفَاقِي فَايْتِي أُحَازِرُ فِي بَغْدَادَ حَتِّينِي وَإِصْمَائِي
أَخَافُ الْعَيُونَ السُّودَ فَلْيَرْحَمْهُ الْهَوَى لَجِيعَةَ أَهْلِي يَوْمَ أَقْضَى وَأَبْنَائِي
أَنَادُمُ أَحِبَّائِي ، وَفِي الْحَقِّ أَنَّنِي لَهَوْلُ الَّذِي أَلْقَى أَصَاوِلُ أَعْدَائِي

أَدِجْلَةُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟ أَنِصْحِي فَقَدْ طَالَ فِي مَغْنَاكَ تَبْرِيحُ إِضْمَانِي
وَرَدَّتْكَ أَسْتَشْفِي فَثَارَتْ بِلَيْتِي وَأَرَاهُ ضَنِّي حُزْنِي وَأَضْرَعْنِي دَائِي
وَرَدَّتْكَ أَشْكُو النَّيْلَ يَطْفِي جُجُودُهُ فَأَيْنَ سَلَامِي فِي حِمَاكَ وَإِشْكَائِي
سَقَى وَرَدُّكَ الْمَعْسُولَ غَيْرِي وَلَمْ أَجِدْ لَهَوْلُ بِلَائِي غَيْرَ أَوْشَابِ أَقْدَامِ
أَطَالَ أَنَاسُ فَيْكَ نَجْوَى نَعِيمِهِمْ وَفِي شَطِّكَ الْمَوْرُودِ نَاجِيَتِ بَأْسَانِي
أَدِجْلَةُ أَيْنَ الْحُبُّ ؟ قَوْلِي فَايْتِي تَقَلَّبْتُ فِي نَارَيْنِ حَقْدٍ وَبَغْضَامِ
أَدِجْلَةُ أَيْنَ النُّورُ ؟ قَوْلِي فَايْتِي عَلَى الشَّطِّ أَسْتَهْدِي دِيَابِيرَ ظُلْمَانِي
أَدِجْلَةُ أَبْلَانِي اغْتَرَابِي وَشَقْنِي هُمَايُ بُظْلِي فِي بِلَادِي وَإِشْقَانِي
أَدِجْلَةُ أَنْتِ النَّيْلُ بَغْيًا " وَكَدَّرَةٌ " فَكَيْفَ مِنَ النَّارِ تَسْلَمُ أَحْشَانِي
أَدِجْلَةُ سَاقَتْنِي إِلَيْكَ مَقَادِرُ تَأْتَقَنَ فِي كَيْدِي وَأَبْدَعْنِ إِيْدَانِي
أَدِجْلَةُ وَاسْنِي فَلِلضَّيْفِ حَقُّهُ إِذَا شِئْتَ مِنْ زَادٍ وَحَبٍّ وَصَهْبَاءِ

طغى موجك الصخاب فاهتاج لوعتى وأيقظ أشجانى وبلبل أهوائى

وقفتُ أبثُ الجسر ما بى فلم أكنُ سوى نائفٍ فى أذن رَقْطَاءَ صمَاءَ
وقفتُ أَرْجِيهِ ولم أدْرِ أنى اسطُرَّ أحلامى على ثَبِيجِ الماءِ
إلى أين هذا التَّبرُّ يجرى وحوله حرائقُ من أرضٍ على الرىَّ جَدْبَاءَ
أرقتُ دموعى فى ثراها فما ارتوتُ وهل كان دمعى غير أطيافِ أنداءِ
شوقتى الخطوب السود شَيْئاً فلم تدع لمُعْتَسِفٍ حُلماً إذا رام إِبْكَائى
أجبنىَ يا صوب الغوادرى فإنى على علتى فى الدهر أَسَاءُ أدواءِ
تَحَدَّرَتْ مُحْتَالاً فلم تُغنِ أُمَّةٌ تشهى لَطولَ الجذب أو شال أنهاءِ
بكى حولك الماضون دهرآ فهل رأوا لدى موجك الصخاب لحظة إصغاءِ
تَشَكَّى العراقُ الجَدْبَ وارتعتُ أبتغى نصيبى فلم أظفر لديك بإرواءِ
أعندك يا صوبَ الغوادرى تَعِيَةً لناسٍ على شَطِّيكَ ذابنَ أنضاءِ
تروح إلى البحر الأجاج سفاهةً على شوق أهلٍ فى العراقِ أوداءِ
أبوك السحاب الجود يرتاح جوده إلى كل أرضٍ فى العراقين ميثاءِ
فعمن أخذت البخل يا جار فتية هم الجعفر المنساب فى جوف بطحاءِ
شكا الزهر فى شطيك فاخجل ونجّه من الظمأ الباغى ومن حية الماءِ

جريت بلا وعى إلى غير غاية مُحجَّلة بين المصاير غراء
قدعنى أطل فيك الملام فلم أكن سوى شاعرٍ للحمد واللوم وشاء
أأنت الذى يحفر الظلم لينضوى إلى لجة في باحة البحر هوجاء
أأنت الذى يسقى البحار وحوله أزاهير في سهل يفديه مظماء
وقفنا على شطيك نشكو أوامنا على نبرات الدف والعود والنماء
خاين العطاء الجزل يا فيض زنه نَحْملة بالخير والشر كلفاء
عشقت شقائى فيك للحب إتنى أحب شقائى فى رحاب أحبائى

أبغداد هل تدرين أنى مودع وأن سؤوم البين تلفح أحشائى
وردتك ملتاعاً أصارع فى الهوى دموع رفاقٍ وامقين أخلاء
تنادوا إلى باب الحديد فودعوا بقايا فؤادٍ وافرٍ العطف وضاء
وفيهم خُتولٌ لو أراد لردنى إلى روضة من يانع الأانس غناء
تقدم يستهدى العناق فلم يجد سوى صخرة مكتومة السر خرساء
وعاد يروض العتب أحلام قلبه على خُطة من شائك الحجر عوجاء
وردتك مطعوناً ثور جروحه فكان بنوك الأكرمون أطباء
لحبك يا بغداد والحب أهوج رأيت فنائى فيك مشرق إحياء

تناسيتُ في مصرَ الجديدةَ صِنيّةً هم الزهرُ الظمآنُ في جوفِ يدياءِ
يناجون في الأحلامِ أطيافَ والدٍ لعهدِ بنيهِ والبُنَيَّاتِ نساءِ

أبغدادُ هذا آخرُ العهدِ فاذكُرِي مدامعَ مفطورٍ على الحبِّ بَكا
أبغدادُ يضمنيني فراقك فاذكُرِي لدى ذمةِ التاريخِ بيني وإصنائِي
خلعت على الدنيا جمالكِ فانتدتِ تخاليلُ في طيبٍ وحُسنٍ ولألاءِ
سيزكرني قومٌ لديك عهدتهم يحبون ظلامينَ ضرى وإيدائي
سُيمسى خصومي بعد حينٍ أحبةً يذيعون مشكورينَ أطيبَ أنبائي
ستذكرُ أرجاءُ الفراتينِ شاعراً تفجّر عن مكنونةِ الدرِّ عصماءِ
سيسأل قومٌ من زكيٍّ مباركٍ وجسمي مدفونٌ بصحراءِ صماءِ
فإن سألوا عني ففي مصرٍ مرقدِي وفوق ثرى بغدادِ تمرح أهوائي
ستذكرني غيد ملاحٍ أو انسٍ أطلنُ بلأني في الغرامِ وإشقاتِي
ستذكرني مصر وما كان قلبها سوى صخرةٍ في جانبِ النيلِ مأساءِ
إلى الله أشكولوم دهرِي وصرفهُ وعند الإلهِ البرِّ أودع حوبائي

مداعبة الدكتور زكي مبارك^(١)



وفاءً بعهدي أو نزولاً على وعدي وقفت أحيي معشري وبنى ودي
وقفت أحيي عصابة عريضة بها نستبين الرشد حقاً ونستهدي
فأهلاً بكم في روضة الحب والصفا وأهلاً بكم عند المسرة أو عندي
وهيجني في «الرستمية» شمساً عر به مثل ما بي من أنين ومن سهد
به من هوى ليلى رسيس من الهوى وبى لهب لا ينطفى من هوى هند
أماناً لها من دامٍ وجدى فاتني أخاف عليها أن دام الهوى يعدي
وذكرني عهد الصبا في نشيده سلام على عهد الصبا في ربا نجد
هواه على أجراف دجلة وافد^٢ وأما هوى قلبي فللنيل والوفد
فلا تحسبوه شارد الذهن وحده ولا تحسبوني سادراً في الهوى وحدي
شهيدان : هذا للثرائب عينه وآخر مطلول الوريد على الزند
قتيلان إما من لقاء مفاجئ^٣ أتيح وإما من لقاء على وعد
فإما قتل من جنى الشهيد يشتكى وإما صريع يشتكى من جنى الورد
صريع الغواني لا تلنى فاتني صريع أغاني أم كلثوم لادعد
سلام على تلك الأغاريد إنها أغاريد من وحى الصباية والوجد

باقر الشبيبي

(١) ألقى بنادي القلم العراقي حين اجتمع بالزوية ، وكان النادي اقترح على الأستاذ باقر

الشبيبي أن ينظم قصيدة في معارضة القصيدة السالفة

بغداد :

كما تصورتها وكما رأيتها

قبل الرحيل إلى بغداد بأيام أوصاني صديق عزيز لعله الدكتور طه حسين فقال : ستقدم بغداد وأنت كاتب معروف فيقبل عليك الصحفيون فيسألونك كيف رأيت بغداد ، فإن فعلوا فاحذر يادكتور زكي أن تصرح بشيء ، لأنك موظف في حكومتين ، ومركزك دقيق .

وقد صح ما توقع ذلك الصديق ، وكنت عند نصحه الثمين ، فلم يظفر من الصحفيون العراقيون بشيء غير التلطف المقبول . ولكن محرر الهلال سيظفر بما لم يظفر به الصحفيون العراقيون ، لأن بعد الدار لم يصرفه عنى ، فسكتب يسألنى كيف تصورت بغداد وكيف رأيت بغداد ، وللهلال على قلبى حقوق ، فلا توكل على الله ، ولا أخرج مرة واحدة على ذلك المركز الدقيق .

على أننى لا أتوقع أن يغضب العراقيون من بعض ما سيقع فى هذا الحديث ، لأن الصدق لا يغضب عقلاء الرجال ، وإنما يغضبون من التعامل البغيض الذى تمليه الضغائن أو الأهواء .

وليس من الإسراف أن أصرح بأنى لست من الغرباء ، فى بغداد .
فأنا أغار عليها كما أغار على القاهرة أو الاسكندرية أو سنتريس ،
لأنها فى قاي وفى نفسى من الحواضر العربية التى يغار عليها العرب
والمسلمون فى جميع الممالك والشعوب ، وفى نيتى - وأنا صادق - أن
أجاهد فى سبيل بغداد حتى تبلغ ماهى أهل له من الحضارة والعمران ،
وتحمل مصاييح الثقافة كما كانت فى عهود الخلفاء ، ولن أترك هذه
المدينة حتى أضع فى صدور تلاميذى وأصدقائى بذور الشوق إلى
الحياة العالية ، حياة المدنية الصحيحة التى تعشق الأنوار وتبغض
الظلمات ، فلا يبقى فى بغداد شارع ولا بيت إلا وحوله ملائكة
أطهار يسمون به إلى مناط الجوزاء ، والله بالتوفيق كفيل .

أما بعد فقد كنت أفهم جيداً أن بغداد أدت واجبها بعنف يوم
شاء لها الطالع السعيد أن تسيطر على المشرقين والمغربين ، وكنت
أفهم جيداً أنها فى غفوة الراحة بعد ذلك النضال العنيف ، فلم يكن
يخطر ببالى أن أراها كلقاهرة أو باريس ، ولكنى مع ذلك كنت أنتظر
أن أجد آثار المدنية التى أقامها العباسيون ، وهنا أصرح والأسى
ملء الفؤاد أن آثار الغطاريف من بنى العباس لم يبق منها إلا رسوم
حشيلة هى فى مغازيها ظنون فى ظنون ، وكذلك قضت المقادير بأن

لا يبقى شيء من قصور الخلفاء والوزراء والأمراء الذين سيطروا على العالم نحو ثلاثة قرون ، وكانت أيامهم مواسم الدنيا وأعياد الزمان وقد سألت عن السبب في ضياع تلك الآثار فحدثوني أن نهر دجلة الغادر الصوال كان يطغى من حين إلى حين فيطمس ما يشاء من القصور والبساتين ، وقد شاء له عدوانه أن ينقل بغداد من مكان إلى مكان فهى اليوم فى بقعة غير البقعة التى اختارها المنصور على أيامه السلام فإن شتم وصف بغداد القديمة فارجعوا إليها فى الكتب ، فقد كان المؤلفون القدماء يدركون بغير وعى صريح أن مدينتهم سيأتى عليها يوم لا يعرفها فيه غير قراء الأخبار والأساطير .

و كنت أتصور أن بغداد لا تزال فيها بقايا من تقاليد الزخرف البراق الذى عرفه الخلفاء ، فوجدتها مدينة لا تعرف غير خشونة الحقائق ، ورأيت الوزراء مجتمعين فى قصر ساذج لا يعرف معنى للتصاوير والتهاويل التى تعرفها بعض القصور فى بعض الحكومات ؛ وقد دهشت حين زرت وزير المعارف ، وكان أول من رأيت من الرجال يوم وصلت إلى بغداد ، فقد رأيتنى أمام وزير المعارف فقط أمام المنطق والعقل ، ولم أر فى غرفته شيئاً يدل على ذوق الترف فى فهم المعاش ، وكذلك كان الحال حين زرت رئيس الوزراء ، فقد رأيتنى أواجه رجلاً يمثل أدب النفس ، وذلك كل حلاه وهو رئيس الوزراء .

وكذلك يمكن الحكم بأن دور الحكومة في بغداد هي مواطن
أعمال لا مواطن استقبال .

كنت أتصور بغداد قد تأثرت بالمدينة الحديثة فأصبحت كالقاهرة
فيها حي "قديم وحي" جديد ، فلما وقعت عيني عليها رأيتها مدينة شرقية
من جميع النواحي ، ورأيتها لم تأخذ من المدينة الحديثة غير الإضاءة
وتوزيع الماء على البيوت ، وفيما عدا ذلك تعيش بغداد عيشة القاهرة
قبل جيلين ، فتجد فيها الأسواق والخانات على نحو ما كانت القاهرة
في عهد المماليك . والشبه كبير جداً بين سوق الفحامين في القاهرة
وسوق الشورجة في بغداد . ولا أكنم القارئ أن بغداد تفتنى من
هذه الناحية أشد الفتون ، ففي أسواقها ملهاة للنظر والذوق ، وفي
خاناتها تذكير بأحاديث «ألف ليلة وليلة» وفي مساجدها العتيقة
ما يذكر بدعابات أبي الفتح في مقامات بديع الزمان .

وقد ثارت نفسى ثورة عنيفة يوم رأيت بغداد ، وهممت بأن
أقترح على رئيس الحكومة العراقية هدم هذه المدينة وبناءها من
جديد ، ولكن لم تمض أيام حتى رأيت التطور يأخذ مجراه ، فقد شرع
الناس في الهجرة إلى الضواحي وأخذوا يشيدون منازل جديدة على
الطراز الحديث ، فإن زرت بغداد بعد عشرين عاماً فسترونها
كالقاهرة تنقسم إلى قسمين عظيمين : قسم جديد وقسم حديث .
على أنني أصبحت أتمنى أن لا تبعد بغداد القديمة ، فلا أسواقها

جاذبية ، ولدروبها الضيقة ملاح من الحسن الأصيل ، وهي فوق
ذلك صورة من المدينة الشرقية التي يحرص عليها أستاذنا الدكتور
منصور فهمي أشد الحرص ، ويتمنى لو يعود إليها الشرقيون أجمعون !
و كنت أتصور دجلة نهراً صغيراً لم يأخذ عظمتـه إلا بفضل
أخيلة الشعراء ، فلما رأيته أخذت مني الروعة كل مأخذ ، وتمنيت
لوجاء شعراء مصر فرأوه وعرفوا أن في الدنيا نهراً يشابه نهر النيل .
إن دجلة نهر هائل جداً ، وهو حين يسير بغداد يقرب من النيل
في الاتساع ، ولا يمتاز عليه النيل إلا بمزية واحدة هي قوة تدفق
الماء ، أما دجلة فله مزايـا كثيرة أظهرها قيام النخيل على جانبيه ،
وحرص أهل بغداد على إقامة المنازل والشرفات بحيث تواجه
منظره الجميل .

وقد بحثت عن الجسر الذي قال فيه ابن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

أعدن لى الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدت جمرأ إلى جمر

بحثت عن هذا الجسر ، ولم أجده ، فوا أسفاه ، وإنما وجدت

جسراً سموه جسر مود ، (Maude) وهو اسم قائد من قواد الإنجليز

الذين دخلوا بغداد فاتحين .

فيارئيس حكومة العراق تفضل وسمّ الجسر الجديد (جسر
ابن الجهم) مراعاة لخواطر الشعراء

وهدوء الماء في نهر دجلة يجعله من أصلح الأنهار للملاحة
النهرية ، ولكنى بعد الدرس رأيت الملاحة في دجلة تنعدم أو تكاد ،
فقد تمرّ ساعات وساعات ولا تقع العين على سفينة واحدة في ذلك
النهر الميمون الغدوات والروحاحات . أما الفلك الصغيرة التي يمتطيها
اللاهون والعابثون فلا تزال على العهد الذي عرفه الشاعر المفضل
أبونواس ، ولكن قلما يغنى فيها الملاحون كما كانوا يفعلون في الأيام
الخوالي ، وقد ساهرت النجم ليلتين على شاطئ دجلة لأسمع غناء
الملاحين ، ثم انصرفت وقد كادت أذنى تصم من سكون الليل .
وحملنى حب الدنيا على التفكير في بناء بيت على شاطئ دجلة
فعرفت أن المتر المربع يباع بنحو دينارين ، وكذلك عرفت أن
أهل بغداد يعرفون قيمة الأرض على شاطئ ذلك النهر الجميل .

وكننت أنتظر أن تكون بغداد مدينة يغلب عليها اللهو واللعب
والمجون ، فرأيتها أعجوبة الأعاجيب في الجد والنشاط ، ولقد زرت
نحو عشرين مدينة من المدن العالمية فلم أر من صور الجد والاهتمام
والمصابرة معشار ما رأيت في بغداد ، فحيثما نظرت رأيت ناساً

يعدون إلى أعمالهم عدو الظليم ، وشهدت الناس يغدون ويروحون
وعلى وجوههم أمارات الجذ الرزين . والمدارس في بغداد هي اليوم
مصانع لسبك الرجال ، ويندر أن تجد شاباً يضيع وقته على نحو
ما ترى في بعض مدارس القاهرة أو مدارس باريس .

والبغداديون يمتلكون مدينتهم تمام الامتلاك ، فهم السادة
الاعلون ، ولا يسود في مدينتهم من الأجانب إلا عدد قليل ، وسيكون
من حظهم في المستقبل أن يقولوا نحن حضرنا مدينتنا ولم يساعدنا
على تحضيرها واغل من العالم القديم أو العالم الجديد .

ولقد شهدت آثار هذا الجذ حين رأيت تلاميذي في دار المعلمين
العالية ، فهم شبان أذكاء تكفيهم اللوحة ، ولا أحتاج في تفهيمهم
أدق المشكلات إلى أدنى عناء .

وكذلك يحدثني الأساتذة المصريون الذين يدرسون في كلية
الحقوق فهم يشهدون بأن تلاميذهم فوق ما كانوا ينتظرون ، وأنهم
يفهمون أدق المشكلات بقليل من البيان .

وكنت أنتظر أن تكون بغداد ميدانا للجدل والصال على نحو
ما كانت في عهود المتكلمين ، فكانت كما انتظرت ، فهي اليوم تزخر
بالأدباء والمفكرين الذين يملأون الأسفار بأجود ما تجود به العقول ،
ويكفي أن يكون فيها رضا الشيبى وزير المعارف ، وطه الراوى
مدير التعليم ، فهذان الرجلان يصوران مامتازت به العقلية العراقية

في قديم الزمان .

وأشهد صادقاً أني ما صادفت رجلاً من المفكرين في بغداد إلا
انتفعت منه أجزل انتفاع ، ولا رأيت كاتباً ولا عالماً إلا تذكرت
الملاحظ وابن العميد .

وليت أدباء القاهرة يعرفون أن مؤلفاتهم تقرأ في بغداد ، وليت
أصحاب المجلات في القاهرة يعرفون أن لهم قراء في العراق ، فلو
عرف زملاؤنا في مصر شيئاً من ذلك لحاسبوا أنفسهم بعض الحساب ،
ففي العراق موازين يعرف بها النقصان والرجحان ، وفي العراق
رجال يميزون بين الطيب والخبيث والغث والسمين ، وأدباء مصر
لهم في العراق خصوم وأنصار لا يخفى عنهم الحق ولا تجوز عليهم
الاباطيل .

وكنت أتصور بغداد مدينة أثر فيها الاحتلال ، احتلال الترك أو
احتلال الانجليز ، فوجدتها مدينة عربية في كل شيء ، ولا تغلب فيها لغة
الترك ولا لغة الانجليز ، فالعراق من هذه الناحية يشبه مصر ، فهو يبتلع
كل شيء ، ولا يؤثر فيه شيء ، ولعل لماضيه أثر في ذلك ، فهو لا يزال
يعتقد أنه دان الأمم العربية جماء ، وهو من أجل ذلك يرفض
السيطرة الأجنبية . فإن رأيتموه يستعين العلماء المصريين في بعض
شؤونه فاعلموا أنه يرى المصريين إخوة أشقاء ولا يراهم أجانب .

وهذا معنى لمسته بنفسى وقابلته بأصدق آيات الشفاء .

وكنيت أتصور بغداد مدينة شغلها الصروف عن تقاليد الاسلام ،
فراقى أن أراها مدينة إسلامية في كل شيء ، وما ظنكم بمدينة تعيش
في القرن العشرين وهى مع ذلك لا تسمح لإنسان بأن يدخن سيجارة
في رمضان ، ولا يفتح فيها مطعم ولا مشرب ولا حانة في أيام
الصيام ؟ .

هل تصدقون أن الخروج على آداب الصوم يحجر الرجل إلى دار
الشرطة حيث يلقى سوء الحساب ؟ هل تصدقون أن رجال الشرطة
في بغداد يراقبون الناس في الطرقات عما هم يظفرون بمسلم جاهل
يتظاهر بالإفطار لينزجوا به في غيابات السجون ؟ هل تصدقون أن
النصارى واليهود في بغداد يحترمون رمضان مراعاة لخواطرها
المسلمين ؟ .

أقول هذا وقد سمعت أن الصوم الحق لا يقوم به إلا الاتقياء ،
ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن العراق من الأقطار الإسلامية
التي تعرف الواجب نحو الدين الخفيف .

وكنيت أتصور بغداد تموج بالفتنة بين السنة والشيعة ، فلما
خبرت الناس بعض الخبرة رأيتهم على جانب عظيم من التسامح ،
رأيتهم يعيشون جنبا إلى جنب في هدوء واطمئنان ، ورأيت الثقة
بينهم على أتم ما يكون من الصفاء ، وتبينت أن المذاهب الدينية

لا تصرفهم عن الواجبات الوطنية ، وأن الأخوة العراقية ستكون
أساس الوحدة القومية بعد قليل من الزمان .

وجملة القول أن بغداد في عهد البناء ، والتجارب القاسية التي
مرت بها ستجعلها في حرز من تقلبات الأهواء . فمن كان في ريب
عما أقول فلينتظر قليلا ، فستأتي هذه البلاد بالأعاجيب ، وسيرى
الساعون بالنخمة أنهم كانوا واهمين .

إن العراق ينفض عن عينيه آثار السبات القديم ، ويتلفت إلى
المستقبل تلفت الليث جاءت أشباله ، ويقبل على الحياة إقبال الأفعوان
المهتاج ، ويضطرب في الدنيا كما تضطرب الوحوش الضواري
في غسق الليل ، فمن كانت له عند العراق حاجة فليؤجلها قليلا ،
فإن العراق لا يفكر اليوم إلا في شيء واحد : هو أن يكون أمة
تحكم وتستطيل .

* * *

قد تسألون : وكيف يحيا المجتمع في بغداد ؟ وأجيب بأنى
رأيت في بغداد لونين من الحياة ، أما اللون الأول ، لون الجد ، فهو
ما حدثتكم عنه ، وأهل بغداد من هذه الناحية جبابرة عتاة ، وفيهم من
يصل النهار بالليل في سبيل الرزق ، وفيهم من لا يأوى إلى فراشه إلا
وفي صدره غرض مبيت مدفون .

أما اللون الثاني ، لون الهزل ، فهو يتمثل في المراقص والقهوات ؛ وما أزعج أُنّى قادر على وصف المراقص ، لأنّى زرت مرقصاً واحداً مرة واحدة ، وذلك المرقص يعطى صورة صحيحة ، لأنه فيما سمعت كثير الأشباه في بغداد ، ومادة اللهو في هذه المراقص لا تعتمد على الجمال العراقى ، وإنما تعتمد على الجمال الأوروبى ، فالراقصات في تلك المواطن من المتاع الذى تجلبه السفن والسيارات لإيناس اللاهين من الشرقيين ، واللحظة التى قضيتها في ذلك المرقص نهتني إلى كثير من المعانى ، فقد رأيت من السامرين من يقول : إن ذلك الفتى الذى يراقص تلك الشقراء هو ابن الشيخ فلان الرجل الصالح الذى لا يعرف غير المسجد والبيت ، ففهمت من ذلك أن بغداد تنقسم إلى جيلين يختلفان أشد الاختلاف : جيل الشباب ، وجيل الكهول ، ومعنى ذلك بعبارة أوضح أن الفتيان الذين يرقصون الرقص الإفرنجى في بغداد ليس لهم في ذلك المعترك أعمام ولا أخوال وأحببت أن أرى الملاحى البغدادية الأصيلة ، ولكن الصديق الذى أثق به في بغداد نهانى عن ذلك . أفىكون معنى هذا النهى أن البغداديين يرون ملاحيمهم القديمة مما تعافه الأذواق ؟ .

أما القهوات فكلها من طراز قهوات حىّ الحسين . ويندر جداً أن يشرب فيها غير القهوة والشاي ، وربما كان من الحق أن تقرر أن البغداديين لا يشربون الخمر أبداً على قارعة الطريق ، كما يتفق

ذلك لأهل القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ، فهم من هذه الناحية عقلاء ، ومع أن الحانات تظل في الأغلب مرخاة الستائر مغلقة الأبواب لا يهتدى إليها غير العابثين ، فقد قرأت في الصحف العراقية كلمات يقترح كاتبوها أن توصل أبواب الحانات إيصاداً مطلقاً في ليالى رمضان .

ومع أن البغداديين يتحفظون في شرب الخمر فهم يسرفون في شرب الشاي إلى حدّ الإدمان ، ويتفق في أحوال كثيرة أن ينقطع الرجل عن الحديث ، فإذا سألت عرفت أنه لم يشرب الشاي منذ ساعتين ، وأنه من أجل ذلك « خرمان » فهم من هذه الناحية يشبهون الفلاحين في الجيزة الفيحاء ، فمن أهل الجيزة من لا يدرك ولا يعقل إلا إذا أسعفته بكأس من الشاي الأسود البغيض .

وهناك مسألة على جانب من الأهمية وهي الوحدة الجنسية في العراق ، فمن المعروف أن في العراق أجناساً مختلفة ولكن اللون يكاد يتوحد في تلك البلاد ، فإذا مشيت في شوارع بغداد شاهدت وحدة جنسية يمثلها اللون ، وسبب ذلك فيما أعتقد يرجع إلى جو العراق ، فلذلك الجو سلطان قاهر في لفح الوجوه ووسم البشرة . بسماة تقرّب ما بين السكان على اختلاف الأجناس .

والمرأة هنا محجبة تمام التحجب، وهى لا تلبس البرقع كما كانت تفعل المرأة المصرية، وإنما تغطى وجهها كله تغطية محكمة فلا ترى الدنيا إلا من وراء السواد، فإن رأيت امرأة سافرة بعض السفور فتشك بأنها فى الأغلب من بنات إسرائيل. وقد شاع اختلاط الجنسيتين فى المدارس العالية، ولكنه اختلاط محوط بالتحفظ الشديد، وهو على كل حال من طلائع العصر الحديث. والوجوه فى هذه البلاد وجوه مكدودة أرهقها طول النضال فلا تعرف أين الترف إلا فى قليل من الأحيان. وهذا الحكم نسوقه بتحفظ لأننا نرجو أن يكون خلف الستائر كثير من اللؤلؤ المكنون.

بغداد! بغداد! أين الحسن الذى أطل فى وصفه الشعراء؟
أين عيون المها يا بغداد؟ أين مرابع اللهو، وأين مراتع الفتون؟
أفى الحق أن يفد عليك قلب خافق فلا يجد الأندلس؟
بغداد! كنت أرجو أن أراك أندى من القاهرة وأجمل من
باريس، فإرفعى الستر قليلا على أصطبح أو أغتبق بجبينك الوضاح،
فإن لم تفعل فسيطول عليك العتب من شاعر سنتريس^(١).

(١) قد استجابت بغداد لهذه الدعوة فكشفت للكاتب عن جبينها المشرق وقلبها الطروب، وستظهر شواهد ذلك فيما سيراه القارئ من مختلف الفصول.

المذاهب الادبية في مصر

خطبة ألقاها المؤلف في نادى القلم العراقى

أيها السادة

اقترح معالى الرئيس الأستاذ محمد رضا الشيبى أن ألقى محاضرة
عن المذاهب الادبية فى مصر ، وهو موضوع شائك حملتنى وعورته
على أن أقف موقف الواصف ، ابتغاء السلامة من الشطط
والاعتساف .

وأبدأ بشرح الغرض من كلمة « الأدب المصرى » فأصرح لىكم
أنها تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة « الأدب الأندلسى » مثلاً ، أعنى
أنها تدل على الأدب العربى الذى ينشئه كتاب مصريون ، والمعنى
الذى تؤديه كلمة « الأدب البلجيكى » أى الأدب الذى ينشئه
البلجيكيون وهم يكتبون وينظمون باللغة الفرنسية ، وكذلك يقال
« الأدب الأمريكى » وهو أدب ينشئه الأمريكيون باللغة الانجليزية ،
فليس يصح لأحد أن يستوحش من كلمة « الأدب المصرى » لأن
المصريين يكتبون باللغة العربية فى جميع الموضوعات ، حتى الشؤون
الخاصة بالبيئة المصرية .

فإن سمعتم أن كلية الآداب عندنا تفكر فى إنشاء كرسى للأدب
المصرى فليس معنى ذلك أنها تريد أن تتناسى الأدب العربى ؛ وإنما

هو كرسى لدرس الأدب الذى جادت به القرائح المصرية باللغة العربية ؛ وأتم تعلمون أن للشعراء والكتاب والمؤلفين الذين نبغوا فى مصر مكانة فى الأدب العربى ، وهم خليقون بأن يظفروا باهتمام خاص من الجامعة المصرية .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن هناك فرقا بين الأدب والمذاهب الأدبية .

وإنما احتجت إلى النص على هذا الفرق لآنى غير مطمئن إلى وجود المذاهب الأدبية فى مصر ؛ ففي مصر أدب ضخم يتمثل فيما تصدر من المؤلفات ، وقد حدثنى السيد عبد العزيز الحلبي أحد كبار الناشرين أن المطابع المصرية تخرج فى كل يوم نحو اثنى عشر كتابا باللغة العربية ، والأمة التى تخرج فى كل سنة أكثر من أربعة آلاف كتاب لا يمكن اتهامها بالضعف فى حياتها الأدبية واللغوية .

فالأدب فى مصر قوى جداً ، ولكن الذى أرتاب فيه هو وجود المذاهب الأدبية ؛ وإليك البيان .

قامت مناظرة فى الجامعة المصرية بين معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا والأستاذ خليل مطران ، وكان موضوع المناظرة :

هل يكفى الأدب العربى لتكوين الأديب ؟

وكان رأى الأستاذ مطران أنه يكفى ، وكان رأى الدكتور

هيكل أنه لا يكفى .

وقد وقف الدكتور طه حسين في صف الدكتور هيكل ووقفت أنا
في صف الأستاذ مطران ، فهل كنا جميعاً جادّين في هذا الجدل ؟
هيات ، فقد كان الدكتور طه والدكتور هيكل أديبين قبل
أن يعرفا شيئاً من اللغات الأجنبية ، وكنت أنا والأستاذ مطران
من أحرص الناس على التزود من الآداب الأجنبية .

فما معنى هذه المناظرة ؟ ما معناها وليس في المتناظرين من يكتفي
بالآداب العربية أو يزهد في الآداب الأجنبية .
إن لهذه المناظرة معنى واحداً : هو حض الشبان على تقليد
وجوه الرأي في المسائل الأدبية .

* * *

وكذلك يقال في الجدل العنيف الذي ثار في مصر بين القديم
والحديث ، فقد كان الأستاذ مصطفى الرافعي يحمل راية القديم
وكان الدكتور طه حسين يحمل راية الحديث .

فهل معنى ذلك أن أدب الأستاذ الرافعي كان صورة لأدب
الجاحظ أو ابن العميد ، أو أن الدكتور طه كان يتجاهل الأدب القديم ؟
لا هذا ولا ذاك ، وإنما هي صور من الجدل يكثر صدورها
في الصحف المصرية .

ومن هذا الباب كان الجدل بين الدكتور طه حسين والأستاذ

العقاد حول الادب اللاتينى والادب السكسونى ، فليس الدكتور
طه ممن يتجاهلون خصائص الآداب السكسونية ، ولا الأستاذ
العقاد ممن يتجاهلون خصائص الآداب اللاتينية . وإنما هو جدل
يكثر صدوره عن أقلام الأدباء المصريين .

وكذلك الحال فى الجدل الذى يشور فى مصر أحياناً بين أنصار
الترجمة وأنصار التأليف ، فليس فى الداعين إلى التأليف من يجهل
فضل الترجمة ، وليس فى الداعين إلى الترجمة من يجهل فضل التأليف ،
وإنما هى ضروب من الجدل المثمر يحسنها المصريون .

ومثل هذا يقال فى الجدل الذى ثار حول الأدب المكشوف ،
فليس فى مصر اختلاف حول استقباح ذكر العورات والمخازى ،
وإنما هو خلاف فى طريقة نشر المؤلفات القديمة ، ففى مصر أدباء
يشيرون بنشرها مهذبة ، وأدباء يشيرون بنشرها كاملة مراعاة للأمانة
فى فهم التاريخ .

وقد ثار الجدل فى مصر حول مهمة المجمع اللغوى ، فجماعة
يقولون بدرس اللهجات ، وآخرون بإحياء المؤلفات القديمة ،
ولكنهم جميعاً متفقون على ضرورة الجمع بين الفائدتين .

والقصة ، ما شأنها ؟ ناس يقولون بوجوب الاهتمام بالقصة ،
وفريق يقول إنها فن مفتعل فى اللغة العربية ، ولكن أولئك
وهؤلاء يجمعون بين المذهبين فى التأليف .

وخلاصة القول أن النزاع بين الادباء المصريين لا يصدر عن مذاهب أدبية ؛ وإنما هي طلائع لمذاهب أدبية ستستفحل بعد حين .

ولكن متى بدت تبشير تلك الطلائع ؟

كان المصريون قبل مائة سنة لا يعرفون من موارد الثقافة غير الأزهر الشريف ، فكان الادباء يتشابهون في الاغراض والأساليب . ثم أنشئت وزارة المعارف فدخلت على الأذهان والعقول أطراف جديدة من الثقافة الغربية ، وشرع الادباء ينقسمون إلى طائفتين : طائفة أزهرية ، وطائفة عصرية ، وأخذت هاتان الطائفتان تقتتلان في مخلف الميادين .

وأقرب الشواهد لذلك ما كان يثور من الخصومات الأدبية بين كتاب (الجريدة) من جانب ، وكتاب المؤيد واللواء من جانب ؛ وكان ذلك منذ ثلاثين عاما ، حين كان أحمد لطفي السيد يقارع عبد العزيز جاويش وعلي يوسف ، وأساس الثقافة عند الأول مدني ؛ وعند الآخرين أزهرى ، فكان يظهر التفاوت في الاغراض وفي الأساليب ، بحيث كان يظهر أن الجو الأدبي لم يعد يتنفس في هواء واحد ، وكاد الناس يدركون أن عقلية من يحمل العمامة تخالف عقلية من يحمل الطربوش .

والاختلاف في الاغراض ظهر بقوة جارية يوم نار الجدل في

مصر حول السفور والحجاب ؛ فقد كان دعاة السفور من أنصار الثقافة الحديثة ، وكان المتمسكون بالحجاب من شيوخ الأدب القديم .
وكان إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ بداية الفصل بين القديم والحديث ، فقد كان أكثر الأدباء لذلك العهد لا يعرفون اللغات الأجنبية ، فلما أنشئت الجامعة كان في نظامها أن لا يظفر بألقابها إلا من يؤدون امتحانا في آداب اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية ؛ ومعنى ذلك أن الأديب لا يظفر بإجازة جامعية في الأدب إلا إن تمكن من الاتصال بالآداب اللاتينية أو السكسونية ؛ ونحن نعرف أن ذلك لا يمرّ بسلام ؛ وإنما يدخل في عقل الأديب وذهنه وقلبه ألوانا من الثورة على الأدب الموروث ؛ ونتأجج ذلك محسوسة : فالأدباء المتخرجون في الأزهر ودار العلوم غير المتخرجين في الجامعة المصرية ، ويكفي أن تنظروا في كتابين ألفا في موضوع واحد هو الأدب الجاهلي ، أولهما للأستاذ محمد هاشم عطية ، وثانيهما للدكتور طه حسين ؛ وهما كتابان جيدان ، ولكن المؤلفين يختلفان في فهم الأدب الجاهلي أشد الاختلاف .

وقصة الأدب المكشوف ليس لها في مصر وجود ملموس ، ولكن يظهر أثرها في مطبوعات دار الكتب المصرية ، فإن القسم الأدبي هناك يطبع من كل كتاب نسختين : نسخة كاملة ، أو نسخة مدلسة ؛ تنشر

بما اشتملت عليه من العورات والمجون ؛ ولا تباع لغير الخواص ؛
ونسخة مطهرة أو مهذبة تحذف منها أسماء العورات والمجون ، وتباع
لسائر الناس .

ولم يسلم من هذه الرقابة غير كتابين : الأول عيون الاخبار ،
وقد دافعت عنه بنفسى يوم كنت موظفا بدار الكتب المصرية
سنة ١٩٢٥ وأقنعت المرحوم الدكتور أبو هيف بابقاء الكتاب
على أصله ؛ رعاية لوصية المؤلف رحمه الله ؛ والثانى كتاب الاغانى
وقد اشترط السيد راتب أن لا يحذف منه شيء ؛ وكان قدم لوزارة
المعارف مبلغاً من المال تستعين به على إحياء ذلك الكتاب .

* * *

أيها السادة

كان النقد الادبى قبل الحرب يحاكم الكتاب والشعراء إلى
المعروف من أساليب القدماء ؛ ولكن الحياة الادبية مع ذلك لم تخل
من وثبات فكرية بفضل النور الذى بثته الجامعة المصرية ؛ فلما
جاءت الحرب غلا الورق غلاء شديدا ، وتخاذلت الصحف
والمجلات ؛ وضائق الميادين أمام الناقدين وخلا الجو للمرحوم
المنفلوطى فكان وحده المؤلف وكان وحده المنقود .

وفى أعقاب الحرب ظهر كتاب اسمه (الديوان) وهو أشبه بمجلة
دورية يحررها الاستاذ عباس العقاد والاستاذ إبراهيم المازنى ، وكان

الغرض منه هدم الاسماء التي سيطرت على الحياة الادبية ؛ ولا سيما شوقي والمنفلوطى . وبجانب ذلك نشطت مجلة أسبوعية اسمها عكاظ كان من همها أن تدحر هذين الكاتبين ، واستطاع هذا العراك أن يشغل الناس من جديد بالحياة الادبية .

ثم كانت الثورة المصرية التي خلقت مئات من الكتاب والخطباء .

ثم كان الجدل السياسى بين عدلى يكن وسعد زغلول، وهذا الجدل هو وحده صاحب الفضل على الأدب فى الديار المصرية .

وبيان ذلك أن عدلى يكن وأصحابه كانوا يفهمون جيداً أن سعد زغلول يستأثر بال جماهير ، فانشأوا جريدة السياسة وزودوها بالدراسات الادبية لتستطيع الوصول إلى جماهير القراء ، وقد صح ما توقعوه فأصبح لجريدتهم قراء ، ثم رأى الوفد المصرى أن يفصل الادب بالادب ، فأمدت جريدة البلاغ بطائفة من حملة الأقلام . وكذلك أصبح من التقاليد أن يكون فى كل جريدة يومية صفحة أدبية .

ولكى تعرفوا كيف كان يسيطر الادب فى ذلك العهد أروى لكم القصة الآتية :

كان شوقي رحمه الله ينشر قصائده فى جريدة الأهرام ، ورات جريدة السياسة أن تتفرد بنشر تلك القصائد ، ولكن ماذا تصنع ؟

أعلنت أنها تدفع خمسين ديناراً للجمعية الخيرية الإسلامية في كل
مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي .
وبذلك غنمت القراء الذين كانوا ينتظرون شوقي على صفحات
الأهرام .

* * *

أيها السادة

في مصر اليوم رجة اجتماعية ستعود على الأدب بأجزل النفع ،
وأنتم تعلمون أن الأدب يستفيد من الخير والشر على السواء . ومن
شواهد ذلك الأدب النسوي : فقد ابتدأ برسائل (باحثة البادية) ملك
حفنى ناصف ، وكانت أبحاثها مقصورة على الجوانب الاجتماعية ؛
ثم جاءت الأنسة مى فأمدت الأدب النسوي بأرواح معطرة ، ولكن
نشأ في الأعوام الأخيرة حادث أدبي يستحق التنويه ، ذلك هو
أدب الأنسة جميلة العلايلي ، فقد أخرجت ديواناً شعرياً يتوقد
بأنفاس الحنين ، وهى أول مرة نسمع فيها أن فتاة عربية تنظم
ديواناً تغلب عليه الوجدانيات ، وهذه الأنسة قصص طريفة تمثل
بها عواطف النساء العاشقات أصدق تمثيل ، وذلك لون من
الأدب الجديد .

أقول هذا وأنا أعرف أن فيكم من ينكر أن تفصح الفتاة عن
عواطفها الوجدانية ، ولكنى أقف موقف المؤرخ ، ولا أخرج على

من يحاول الأمانة في سرد التاريخ .

وعندنا اليوم فتاة اسمها سهير القلماوى ، وهى أقل جرأة من جميلة العلايلى ولكن يغلب على ظنى أنها ستكسر قيود الرزاة بعد قليل ، إلا أن تحرص على وظيفتها بكلية الآداب فتكلف الوقار . . وفى كلية الآداب اليوم حركة لانتخاب «أديرة الشواعر» وأخشى أن نستغنى بها عن «أمير الشعراء» !!

وبهذه المناسبة أذكر أن المصريين كانوا فكروا فى انتخاب أمير للشعر بعد شوقى ، ورأى جماعة أن يكون ذلك اللقب من حظ الأستاذ عباس العقاد وثار جماعة آخرون منهم الأستاذ محمد الهراوى والأستاذ محمد الأسمر فقد أهدوا اللقب إلى «البرنس» وهو نساخ فى دار الكتب المصرية له منظومات فى التهانى بالافراح والليالى الملاح !! . وقد قُتل ذلك الجد بهذا المزاح .

* * *

أيها السادة

لا تعجبوا من حرصى على تدوين الجانب النسائى فى الحياة الادبية ، فأنا واثق بأن الرجة الاجتماعية التى يمثلها اختلاط الجنسين فى الجامعة المصرية سيؤدى إلى نتائج منها المقبول والمرذول ، ولا مفر من الاعتراف بأن وجود نحو ثلثائة فتاة بين شبان الجامعة المصرية سيحدث أزمات نفسية وخلقية ، ومن تلك الازمات

المخوفة ياخذ الادب وقوده الذى ظل ينتظره منذ أجيال .

ولكى تعرفوا كيف أسرع التطور فى بلادنا أذكر لكم أنى كنت طالباً فى الجامعة المصرية منذ عشرين عاماً، ولم يكن يزاملنى من الجنس اللطيف فى ذلك العهد غير فتاة واحدة هى الآنسة مى ، وحين يلتحق ابنى بالجامعة فى العام المقبل سيجد بجانبه ثلاثمائة فتاة ، فإن صح أن مزاملة فتاة واحدة أثرت فى أدبى فكيف يكون حال ابنى ؟ وقاه الله ونجاه !!

أيها السادة

قد يكون من الخير أن نقرر أن الادباء المصريين بدأوا ينقسمون إلى طوائف فى الشعراء من يريد قصر شعره على مسامرة الاطفال كالاستاذ محمد الهراوى ، وفيهم من يقف اشعاره على الأغاني كالاستاذ احمد رامى الذى ملأ المشرقين بالحنين على لسان أم كلثوم، وفى الكتاب من لا يعبر عن اغراضه بغير القصص وفيهم من يكاد يقصر ادبه على السخرية من المجتمع كالاستاذ ابراهيم المازنى ، وفيهم من وقف ادبه على الفكاهة كالاستاذ حسين شفيق المصرى ، وعندنا ادباء لا يعرفون إلا إذا علوا منابر البرلمان .

وقد بدأت الاساليب تتنافر وتختلف ، فأسلوب فكرى اباطة ومحمد التابعى غير أسلوب عبدالعزیز البشرى واحمد الزيات .

وكتاب الالهرام لهم مسالك في التعبير تخالف مسالك زملائهم
في جريدة البلاغ .

والموضوعات التي تدرسها مجلة الرسالة غير الموضوعات التي
تدرسها مجلة الصباح .

والسامرون في الاحياء الازهرية لهم مذاهب في القول والتعبير
تباين المذاهب المسالوفة عند السامرين في شارع مظلوم وشارع فؤاد
وأدباء القاهرة غير ادباء الاسكندرية وغير ادباء اسوط .

ولكن ما نراه تباينا لايجيز القول بأن في مصر مذاهب أدبية
تشبه الكلاسيك والرومانتيك عند الفرنسيين ، ذلك بأن الادباء
المصريين تتطور أذواقهم كل يوم بفضل إقبالهم على مختلف الثقافات
الشرقية والغربية ، فالخلاف بين الاساليب هو كالتخلاف بين
الوجوه لايجعل الرجلين من امتين مختلفتين وإن كان يشهد لكل
فرد بالقوة الذاتية .

وهذا التصادم بين المشارب والميول يحير المبتدئين في بلادنا
فلا يعرفون كيف يتوجهون ، ولكنه يساعد على قوة الشخصية ، إذ
يستطيع الشاب الناضج أن يتفرد في النهاية بأسلوب خاص .

وقد يكون من الخير أيضاً أن نقرر أن في مصر كثيراً من

الجرائد والمجلات التي تصدر باللغات الاجنبية ، وهذا يؤثر في
تلوين الثقافة أشد تأثير ، لأنه يغري الادباء المصريين بمتابعة الكتاب
الاجانب في بعض المذاهب ، ولعل لهذا دخلا في شيوع الصور
الرمزية بالمجلات المصرية ، والافكار تعدى بالصحة وتعدى بالمرض
في اكثر الاحيان .

* * *

ايها السادة

لا يسعني في هذا المقام أن أغفل ظاهرة أدبية عرقها مصر في
الأعوام الأخيرة ، فقد كانت أنشئت مجلة شجرية اسمها «ابوللو»
ولم تعمر غير عامين ، ولو طال عمرها لأمدت الشعر بكثير من
الحوية ، ولكن الدكتور ابوشادي عجز عن الإنفاق عليها بعد أن
أنفق في سبيلها ما أنفق ، فغربت بعد أن أظهرت طائفة من الشعراء
الشبان منهم حسن الصيرفي وصالح جودت وعلي محمود طه ، وبعد
أن عرفت الجمهور بعبقريته الدكتور إبراهيم ناجي أصدق شاعر
يسكي حظوظ القلوب ويذكر الناس بنبرات ابن الاحنف
وابن زيدون .

أتريدون كلمة الحق ؟

لم يبق في مصر أدب ولا مذاهب أدبية .

إن الاقلام كلها تحولت إلى الجدل السياسى ؛ وكاد المسرح المصرى يموت بالرغم من وجود قصاصين بارعين أمثال محمود تيمور وتوفيق الحكيم .

فإن شئتم أن تعرفوا ما هو المذهب الجديد الذى عرفته مصر من بين المذاهب الادبية فإنى أحدثكم أن ذلك المذهب هو الادب السياسى ؛ والادب السياسى هو كل ما تعرف مصر من غذاء العقول فى هذه السنين العواصف .

والادب السياسى فن جديد فى اللغة العربية ؛ ولا يعرف قيمته إلا من يقرأ البلاغ والكوكب والجهاد والاهرام والمقطم وآخر ساعة والكشكول ، فى هذه الجرائد والمجلات صنوف من الصبوح والغسق يدركها أرباب الازواق .

ولو رأيتم كيف تتصارول المذاهب والآراء فى تلك الجرائد والمجلات لرأيتم العجب العجيب . وأشد ما آسف له أن الادب السياسى فى مصر لا يطلع عليه إخواننا فى سائر الأقطار العربية ؛ لأنهم يحسبون أنه نوعا من الحديث المعاد ، ولو بحثوا لعرفوا أنه صقال للأذهان والعقول .

أيها السادة

قد رأيتم أنى وقفت موقف الواصف لبعض الظواهر الأدبية.
فى الديار المصرية؛ وما أدعى أنى وفيت الموضوع حقه من البحث،
ولسكن يكفى أن أكون ظفت بكم طوقة لا تخلو من طراقة؛ وهى
طوقة كنت فيها مثالا للدليل الأمين، والسلام ؟

القلب الغريب

فى ليلة عيد

أخى الاستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة
أن توجه إلى خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى
غريب » وكنيت الغريب فى بغداد وكنيت الغريب فى باريس ؟
ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب ،
فهل أستطيع أن أرتجح أن ذلك كان بعد أن نشرت أنا رسالة « من
غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس ، تلك الرسالة التى فضحت بها
مكتوم صدرى ومكنون هواى ؟

على أتى لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد
الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح
يوم رحيل إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة ،
فمن يردنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية تحية المغانى الآهله
التي كانت تتشوف إلى العيد ، لترانى مع العيد !

ليتك يا صديق تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهل وأحباب ،

ولا أراك الله حسرتي وعذابي وأنا أتجرع كأس الغربة في ليلة عيد !
ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتي في بغداد ، وقد لقيت فيها
أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أني لا أعاني غربة العقل ، وإنما أعاني
غربة القلب

وكيف أعاني غربة العقل ومحاضراتي يشهدا المئات من عشاق
العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ،
ولا أدخل نادياً إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟
ولكن هل يكفي مثلي بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كتب
علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيق العيش إن
كانت لا تلعب بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل
يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلي حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس
ولا رفيق ؟ هل يعزّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر
الفكر والرأي وهو يلقي محاضراته على جمهور من العلماء والأدباء ؟
ليتك تراني وأنا أدخل إلى غرقتي شارد القلب فأزيح الستائر عن
النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد .
ويارحمة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال !

ولكن ما الذي يدعوني إلى معانقة الظلام في بغداد ؟

لا أعرف، ولكن يخيّل إلى أن الظلام يؤنسني بعض الإيناس،
لأنه يوهمني أني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب،
وتسكن الأرواح إلى الأرواح. وربما كان الظلام في غرفتي فرصة
طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة
النجوى والعتاب، وأتوهم ضجيج المرح في ليالي الوصال

* * *

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان.
وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخيرته بشارع الرشيد، وهذه
أطياف ترد على القلب، من أحباب القلب، أطياف من مصر الجديدة
والزمالك، تلك البقاع التي لم ترفيها النجوم قلباً مثل قاي، ولم تسدل
ستائرهما على هوى أعنف من هواي... وليقل من شاء ما شاء !

وأسأل جاري على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين .

وأخرج فأتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ،

ثم أميل على الشرطي أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف

فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يسر من في النجف أن يفطر

من في بغداد؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين.

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمع لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلاقائى ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب : غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول والشمس تغرب فى الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تحول إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تباغم المستمعين فتقول : سادتى وسيداتى ، هذا آخر العهد برمضان !
فأقول : يا إخوانى ، يا حضرات الأساتذة ، يا مسلمين يا أولاد الهلال هذه فى مصر ليلة العيد .

فيجيب أحدهم وهو يتسم : علمت شيئاً وغابت عنك أشياء ، ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء ، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

هذه غرقتى موحشة لا يؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ،

وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه في بغداد ،
وإذن فسأعطي غداً درساً في التفسير ، وهو درس متعب لأنه في
الكشاف ، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أعدّ هذا الدرس ، يارباه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد في
مصر الجديدة وفي الزمالك ، ويا ويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل
مصر الجديدة والزمالك ! وغضبة الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام
وأنا أردد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا
تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم
وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشري ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر في الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولم يكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة. إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع
الرفع، وإنما هي مدافع العيد

وأطفأت المصباح، وتلفت إلى النافذة لأرى ظلام بغداد،
وقلت: هذه ليلة عيد بالإجماع، فلأرح نفسي من الكشاف،
ولجاجة صاحب الكشاف، ولأقبل على قلبي أتبين ما فيه من
فطور وندوب

وتذكرت أنني كنت أكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد،
ثم انقطعت رسائلي بعد إذ مات أبي يرحمه الله، لأنني أنفت أن أبكي
بعده على غرض مضيق أو هووى مفقود

ثم بدالى في هذه الليلة أن أبى لا يسره في قبره أن تعيش مهجتي
بلا لوعة، ومقلتي بلا دمة، وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان
وعدت إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجده من أحاوره غير
الزجل الحزين الذى اسمه أحمد أحمد حسن الزيات

صديق

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك أنك عرفتني أول
مرة عن طريق البوليس؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى
زيارة المحافظ فتوجست خيفة، ثم رأيت أن الخطب هين لأنك

دعيت لتسلم رسالة من الشيخ زكي مبارك الذي اعتقلته السلطة
العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتلقى مني رسالة إلا في ظروف
تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى في عهد ثورة فهذه أيضاً
في عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن
صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد

صديقي !

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل
الآعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسم لا تلهى
الرجل عما يساوره من لوازع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن
القلب أدق ميزاناً من العقل . وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ
هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهي
في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديقي !

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة
فتذكر أنك أرققت في ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين
تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك
الغريب في بغداد ، الغريب الذي يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أطفئ المصباح لأعاق الظلام في المدينة السحرية التي شقي
بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته
الحكومة على شاطئ دجلة ، فأفهم أنني أخطب الآهوات لأن
مصاييح الحكومة لاتدل على شيء ، ولا يهتدى بها غير لصوص
الجيوب .

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء
والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذي لا يعرف ربيع القلب ، ولا
نعيم الجفون .

في هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبي هو الجنب
الحائر تحت سماء بغداد .

في هذه الليلة تتلفت عيون فلا تراني ، عيون كنت لها أمتع من
إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، في هذه الليلة تشتاقني
أكباد رفاق علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد .

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نرد ديون الهوى ، وسيعلم من
أبكام الفراق أن الدمع لا ينفع وسنرجو أن لا يسمحو لنا بعد
هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد .

أخي الأستاذ الزيات .

لا أنتظر منك دمة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لي إليك
رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش في شوارع القاهرة إلا مشية

الخاشعين ، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صبوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولى فيه أحباب وخلان .

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب في مصر الجديدة ، وفي الزمالك ، ولكن مثلك وأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولاً إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق ؛ والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين

العروبة في مصر

محاضرة ألقاها المؤلف في نادي المثني

أيها السادة

منذ أيام ألقى محاضرة في نادي القلم العراقي عن المذاهب الأدبية في مصر ، ارتجلتها ارتجالاً ، لأن الوقت لم يتسع لتدوينها ، وأنا كما تعلمون مشغول ، وكان في النية أيضاً أن أرتجل هذه المحاضرة ، وقد عرف ذلك صديقي صاحب جريدة البلاد فأرسل أحد زملائه لتلخيصها ، ولكنني رأيت بعد عصر اليوم أن الموضوع الذي أتكلم فيه موضوع دقيق ، وأن من الواجب أن أدون محاضرتي وأن أقف عند الذي دوت ، حتى لا توجد فرصة للتفسير والتأويل

وأسارع أيها السادة فأنص على أن محاضرتي لا صلة لها بالمعاني السياسية ، فليس في بغداد مصرى يحق له أن يتكلم في السياسة غير سعادة الأستاذ عبدالرحمن بك عزام وزير مصر المفوض في العراق ، وإنما أتكلم باسم الأدباء المصريين كلام الزميل الصادق الذي لا يعرف غير الحق .

وبعد هذا التحفظ أقول : إن صلات مصر بالأمم العربية ترجع

في حقيقتها إلى عنصرين: عنصر السياسة وعنصر الاخوة ، والسياسة لها وجهان الوجه الدولي والوجه الأدبي ، وأعترف صراحة بأن الوجه الدولي من السياسة لا يربط مصر بالأمم العربية ، فمصر لا تملك من الوجهة الدولية أن تجهز الجيوش لمناصرة الأمم العربية وهي كذلك لا تنتظر هذه المعونة من الأمم العربية ، وكلكم يذكر أن البوارج الإنجليزية احتلت الجمارك مرة في عهد وزارة المغفور له سعد زغلول ومع ذلك لم يقل أحد في مصر إن الأمم العربية كان عليها أن تقف في صف مصر بما عندها من جيوش البر والبحر والهواء ، فذلك أيها السادة أمل نرجو أن يحققه المستقبل ، أما الآن فنحن وأتم نعرف ما يحيط بنا من المعضلات ، ونرجو أن ينصرنا الله على الأعداء

أما الوجه الأدبي من السياسة فمصر تعرفه حق العرفان ، وهل يصح في ذهن أحد أننا في مصر ننظر إلى المفوضية العراقية أو الوكالة العربية كما ننظر مثلاً إلى السفارة البريطانية أو السفارة الإيطالية ؟ هيئات ، إن هذا كلام لا يقوله إلا حاقداً أو جهولاً
اسألوا سفيركم في مصر يحدثكم عما يلقاه من كرم المصريين ، واسألوا سفير الحجاز والأفغان وإيران يحدثوكم أنهم يعيشون في مصر عيش السعداء لأنهم بين إخوان يعرفون واجبات الإخاء ويفهمون قيمة العواطف العربية والإسلامية

بل اسألوا أبناءكم الذين يتعلمون في مصر، اسألوهم يحدثوكم أن الأساتذة في الجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم يشتدوت عليهم في الامتحان ليشقوا بأنهم يصلحون لخدمة بلادهم في قوة وأمانة، بل اسألوا كل من يتصل بمصر في سبيل المنافع الاقتصادية من أهل سورية ولبنان وفلسطين وحلب واليمن والحجاز وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وجاوة والهند، اسألوا كل إنسان يتكلم اللغة العربية من الوافدين على مصر : كيف حاله في مصر؟ ولاني لوائح بأن المنصفين منهم سيجيبونكم بأن مصر هي البلد الوحيد الذي يعرف قيمة الأخوة العربية والإسلامية .

أيها السادة

إن مصر هي أعظم موئل للعروبة، ومن واجب العربي الصادق ان يدعوا لله لسلامة تلك البلاد من كل عادية حتى تظل ينبوعا تتفجر منه المعارف العربية .

ومع أن مصر أعظم موئل للعروبة باعتراف الجميع فهناك شبهات يجب تبديدها في هذا المقام، هناك إشاعة تقول إن مصر فرعونية وتقول إن الذي أذاع هذه الفكرة هو كاتب مصري اسمه سلامة موسى، وأرجوكم أن تصدقوني أيها السادة إذا أكدت لكم

أن هذا الكلام اخترعه ناس في غير مصر وسمع به الأستاذ سلامة موسى كما سمعه غيره من المصريين ، ومن هذا ترون أن الدسيديسة جاءتنا من الخارج ، جاءتنا من المستعمرين وأتباع المستعمرين ، وأنتم تعرفون جيداً أن المستعمرين قد ملأوا بدنائيرهم جيوب فريق ممن يكتبون باللغة العربية ، والمستعمرون يفهمون جيداً أن الأمم العربية تمنح مصر حق الزعامة الأدبية فهم يسلكون جميع المسالك ليسوءوا سمعة مصر بين الأمم العربية . وأجهل الناس يعرف أن العروبة إن انعدمت في مصر فإن تقوم لها قائمة إلا بعد أعوام طوال يوم يصبح العراق وفيه عشرون مليوناً من السكان وله ميزانية تبلغ مائة مليون والمصريون لا ينكرون أنهم ورثوا بلاد الفراعين وأنهم من أجل ذلك يسمون مصريين ، وهل يضير العروبة أن يتشبث المصريون ببلادهم وأن يبذلوا في سبيلها كل شيء لتبقى تلك البلاد ملكاً خاصاً باللغة العربية والدين الإسلامي ؟

ما الذي يضير العرب أيها السادة إذا رأونا نهتم بالآثار الفرعونية وكلكم يعرف أن مصر تفردت من بين الأمم بأثمن مجموعة من الآثار والفنون عرقها الإنسانية ؟ نحن في مصر نزور آثار الجيزة وسقارة والأقصر وأسوان لتؤمن بأن مصر في طبيعتها صالحة لقيام أعظم امبراطورية ، فهل يسوءكم أن نستمّر أقدامنا في تلك الأرض وأن نجعلها إلى الأبد — بإذن الله — من أملاك العروبة ؟

حدثوني أيها السادة ماذا يسوءكم من تمجيدنا لنهر النيل ؟ نحن
نحبه لنحرص عليه ونموت في سبيله إن عدا عليه العادون ، فهل
يسوءكم أن يبقى النيل لامة عربية توحد بارئ الأرض والسموات ؟
نحن عرب ولكننا مع ذلك مصريون ، وأنتم عرب ولكنكم
مع ذلك عراقيون ، وسكان الجزيرة عرب ولكنهم مع ذلك
حجازيون أو يمنيون ، فأرجوكم أيها السادة أن تزنوا الأمور
بموازينها ولا تظلمونا من غير موجب فإن الحب أساسه الإنصاف

وهناك شبهة أخرى هي كلية (الأدب المصرى) وقد بددت
هذه الشبهة حين تكلمت فى نادى القلم العراقى ، فكلمة الأدب
المصرى فى اللغة العربية ترادف كلية الأدب الأمريكى فى اللغة
الانجليزية وكلية الأدب البلجيكى فى اللغة الفرنسية ، فالأدب
الأمريكى هو أدب إنجليزى ولكن كتابه وشعرائه أمريكيون ،
والأدب البلجيكى هو أدب فرنسى ولكن كتابه وشعرائه
بلجيكيون ، وكذلك الأدب المصرى فهو أدب عربى ولكن كتابه
وشعرائه مصريون .

وقد سمعتم أن الأستاذ الدكتور طه حسين اقترح إنشاء كرسى
للأدب المصرى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية فهل معنى هذا أن
الكرسى المنشود سيجلس عليه أستاذ لا يدرس غير (المواويل) التى

يتغنى بها المغنون في قهوات الحلبية القديمة ؟ هيهات ، إنما هو كرسى
يهتم من يجلس عليه بدرس الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين
أنجبتهم الديار المصرية وهم يعدون بالمئات ، ولهم فضل عظيم على
الثقافة العربية ، وما أظنكم تبخلون علينا بإنفاق ألف دينار في كل سنة
لدرس الأدباء الذين نبغوا في مصر ونحن ننفق ألوف الدنانير في كل
أسبوع لدرس الأدباء الذين نبغوا في سائر الأقطار العربية .

أيها السادة

إسمعوا هذا الحديث :

منذ أيام جاء إلى دار المعلمين العالية فراش من كلية الحقوق
وترك لي نسخة من جريدة الرأي العام التي تصدر في بغداد فعرفت
أن أحد الموظفين هناك أرسلها إليّ لغرض خاص فقلبت الجريدة
فرأيت فيها تصريحاً للأستاذ مصطفى عبدالرازق عن الوحدة العربية
ورأيت تحت ذلك التصريح عبارة مكتوبة بالحبر الأحمر هذا نصها
« ليتأمل الدكتور زكي مبارك »

وقد تأملت وتأملت ثم تأملت . فماذا في تلك العبارة ؟ فيها أن
الأستاذ مصطفى عبدالرازق يقول إن مصر تقف من الوحدة
العربية موقف المشاهدة لا موقف الفاعلة .

وهو كذلك ، ولكنى عرفت من سياق العبارة أن الأستاذ مصطفى عبد الرازق ألقاها باللغة الفرنسية لأنها نشرت في جريدة انجليزية أغنى أنه قرّر أن مصر ليس لها مع الأمم العربية موقف يسمى Action وهذه كلمة حق ، فالظروف لا تساعد مصر على تجهيز الجيوش في سبيل الوحدة العربية ، وهذا إثم لا تحتمله مصر وحدها وإنما هي مصيبة دولية تشترك فيها جميع الأمم العربية .

ومع ذلك هل سكّت المصريون على كلمة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟ لا ، فقد هجموا عليه وخطأوه بجبارات قوية نشرتها جريدة العقاب منذ أيام .

مع أن عبارة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ليس فيها عند التأمل ما يريب ، وأقول بصراحة إن مصطفى عبد الرازق من مفاخر العرب والمسلمين ، ولو كان في الأمم العربية عشرة من العلماء على نمط مصطفى عبد الرازق لكان العرب من أغنى الناس في عالم العقل والبيان .

أيها السادة

هل تبون أن أحدثكم عن مصر العربية ؟ قولوا إنكم
تبون ذلك !!

إن مصر اليوم هي الشاهد على حيوية العرب : فالصحافة المصرية أقوى من الصحافة الفرنسية والصحافة الإيطالية والصحافة الألمانية وليس هذا بالقليل يا أدباء بغداد . في مصر اليوم مطابع لا تقل قوة عن مطابع باريس ولندن وروما وبرلين ، وهي مطابع عربية ، لا فرنجية ولا إنجليزية ولا جرمانية ، في القاهرة معهد اسمه الجامعة المصرية ، وهو بعون الله ورعايته لا يقل قوة عن جامعة لندن أو جامعة باريس أو جامعة برلين .

إن متوسط ما تخرج مطابع القاهرة باللغة العربية اثنا عشر كتاباً في كل يوم بغض النظر عن مطابع بورسعيد والمنصورة وطنطا والاسكندرية وبلقاس وشبين وأسيوط ، وبغض النظر عن المطابع الخصوصية لمطابع العلماء والأدباء .

إن مصر هي البلد الوحيد بين البلاد العربية ، البلد الوحيد الذي يعيش فيه حملة الأقلام عيش المياسير ، وقد جربت ذلك بنفسى فكنت أغنى عشرات من الدنانير في الأسبوع الواحد من قلى ، ولى يدت فى مصر الجديدة أنفقت عليه ألفى دينار كسبتها من سنّ القلم فى عامين اثنين ، ولو تيسر هذا فى العراق والحجاز وسورية لأصبح العرب سادة العلم والبيان

أيها السادة

أنا عربى أولاً ومصرى ثانياً ، ولو شئت لقلت إن أبى من أصل

عربي صريح ، وأهل سنتريس يعرفون ذلك ، ولكنني أرفض
التودد المتكاف وأقول إني مصري . وما تسووني هذه النسبة ،
فالمصريون عرب في أقوالهم وأفعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم ،
وأدعو الله عز شأنه أن يجعل مصر أبد الدهر من أملاك اللغة
العربية لغة القرآن .

أيها السادة

هل تؤذيكم هذه الصراحة ؟

اعذروني فأنا أتكلم في بغداد ، التي أعزت العقل والمنطق يوم
كان الناس يعيشون في دياجير الجهل والغفلة والحق والغباء .
وأنا في الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو
باريس . فإن رابتمكم صراحتي فلا تلوني فاللوم على أسلافكم
الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق .

أيها السادة

إن مصر عربية في كل شيء ، عربية في لغتها ودينها وأخلاقها .
إن مصر عربية ولكنها لا تقول في كل لحظة إنها عربية لأن
الكريم لا يقول في كل لحظة إنه كريم ، ولو فعل ذلك لآضافه
الناس إلى أهل المن الممقوت .

إن أهل مصر كأهل الحجاز لا يقولون إنهم عرب ، لأن توضيح
الواضح من المشكلات

أيها السادة

اسمحوا لى أن أقول بصراحة إن التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به إلا ناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين ، والعراق لحسن الحظ منزّه عن هذه الأهواء ، إن مصر هى التى استطاعت أن تفرض على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية فتكتفى بها فى امتحانات البكالوريا الفرنسية ، وهى التى استطاعت أن تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية دولية ، وهى التى استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الإسلامية بلا استثناء ، وذلك لونه من الحرية الفكرية كانت مصر أول من شرعه بين جميع الأمم الإسلامية

أيها السادة

إن مصر هى بلادكم وبلاد كل ناطق بالضاد من جميع الديانات ، إن مصر بلاد كل من ينطق باللغة العربية ولو تمذهب بالوثنية ، فمن العقوق أن تسمعوا فيها كلام الخونة من عبيد المستعمرين الذين يريدون أن يوهموكم أن مصر انساخت من العروبة وأنها لا تعرف غير أصولها من الفراعين .

أيها العراقيون

أنتم الشعب الذى يعتمد عليه فى حكومة العقل والمنطق ، وقد سمعتم أن مصر لا تعطف على الأحزان العربية وحدثكم المغرضون .

أن مصر لم تحزن على نكبة فلسطين مثلاً ، فليقم من أعضاء نادى
المثنى جماعة للموازنة بين مانشرته الجرائد المصرية فى الانتصار
لقضية فلسطين وبين مانشرته الجرائد العربية ، وحينذاك تعرفون
أن المصريين كانوا أكثر الناس غيرة على تلك القضية ، قضية
العروبة وقضية الإسلام .

أيها السادة

فى مصر كثير من مظاهر العروبة ، بل كل ما فى مصر ينطق
بعروبتها كما قال الدكتور محبوب ثابت ، ولكن عيب مصر أنها
لا تقول فى كل لحظة إنها عربية . وأؤكد لكم وأنا صادق أن القاهرة
ليست اعز على من بغداد ، ولكنى مع ذلك أرجوكم أن تزوروا
القاهرة لتقفوا على ما فيها من الحيوية العربية التى تتمثل فى الأزهر
والجامعة المصرية والمجمع اللغوى والفرقة القومية والتى تتجسم
فى وزارة المعارف المصرية

أيها السادة

إن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهموكم أن مصر تخلت
عن العروبة ويريدون أن يزهدوا العرب فى الثقافة المصرية ، لأنهم
يفهمون أن أدباء مصر فى هذه الأيام لا يقاوم قوة وفخولة عن أدباء
انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، أدباء مصر هم اليوم رجال الفكر
والبيان ولو كره المستعمرون

أيها السادة

إن العروبة في مصر بخير وعافية ، ولا يعوزها إلا شيء واحد
هو أن يثق بها أبناء الأمم العربية ولا سيما أهل العراق . رعى الله
مصر ورعى العروبة وحفظ العراق
آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

خطاب المؤلف

في حفلة تكريمه في بغداد

أيها السادة

أقدم إليكم أصدق آيات الثناء ، ثناء القلب لا ثناء اللسان ، فقد حاولت أن أعد خطبة تناسب مقامكم المحمود ، ولكنني لم أصل إلى بعض ما أريد ، وكان ذلك حالي في جميع المرات التي شرقي فيها أحرار الرجال بحفلات التكريم ، فلم يبق إلا أن أرجوكم قبول هذه الكلمات ، وقد ذوّنتها وأنا بين الحيرة والاستحياء .

لم يكن في مذاهبي الأدبية ما يبعث على خلق الانصار والاصدقاء فقد قضيت نحو عشرين سنة وأنا أحمل راية النضال ، فلم يبق رجل معروف إلا وبينى وبينه أوتار وحقود ، مع استثناء بعض المتفضلين بإقامة هذا الاحتفال .

فكيف اتفق أيها السادة أن تقام لي حفلات التكريم في القاهرة والاسكندرية وباريس وبغداد ، وأن ألقى الكرامة في كل مكان ، بالرغم مما اشتهرت به من رعونة القلم وشراسة اللسان ؟
لهذه الظاهرة النفسية تأويل ، فالناس يعرفون أني في جميع

الأحوال جندى من جنود الأدب ، وخادم من خدام العروبة ،
وحارس من حراس لغة القرآن .

فهم حين يسمعون اسم زكى مبارك لا يتصورون ذلك
الشخص الجافى الذى لا يفرق بين العدو والصديق ، ولا يعرف
كيف يلبس السدارة أو كيف يلبس الطربوش ، ويحمل القبعة على
نحو ما كان يحمل العمامة ، ولا يدرك الفرق بين الملابس العادية
والملابس الرسمية ، وإنما يذكرون حين يثار اسم زكى مبارك أن
لهم كنوزاً من الأدب الرفيع هو من حراسها الأمناء ، وأن لهم
طلائع من الآمال الكبار هو من دعائها الأوفياء ، وأن لهم تاريخاً
مجيداً هو أسيره ومجنون ليلاه .

أيها السادة

لقد لقيني أحد الأدباء فى جريدة البلاد منذ أيام وقال : إن
كثيراً من أهل بغداد يقولون إن فى شخصية زكى مبارك شيئاً يوجب
الحب ، فهل لك أن تدلنا على ذلك الشيء ؟

فأجبت : سألوها شاعر كم العباس بن الأحنف الذى يقول :
لو أنّ القلوب تجازى القلوب لما كان يحفو حبيب حبيباً
فأنا أحبكم يا أهل بغداد ، وليس من المستغرب أن تحبوني من
حيث لا تعلمون سبب الحب .

وما أزعم أنى أحببت بغداد والعراق حب المدلهين ، وإنما

أذكر أن قلبي خفق خفقة كاد يطفرف لها الدماغ حين وقع بصري
على دجلة أول مرة ، وأذكر أني شربت ماء الفرات صرفاً ، شربته
مزوجاً بالطين ، فبدأ لي أشهى وأعذب من الرضاب المعسول ،
وأذكر أني ألقيت محاضرة بالاذاعة اللاسلكية فثارت من حولها
العواصف وتنكر لها فريق من الأدباء والعلماء فطربت وقلت :
الحمد لله الذي أحياني حتى جرى اسمي بالملام على ألسنة أهل العراق

* * *

ومن العدل أن أعترف بأن أهل بغداد جروا على فطرتهم
النبيلة فجزوني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فلم يصح ما توقعت من
أن انتقالي من القاهرة إلى بغداد سيكون انتقالاً من نضال إلى نضال
فهل تسمحون بالإشارة إلى بعض ما جزتني بغداد ؟

لقد راعني أن أجد في دار المعلمين العالية شباناً نجباء يستمعون
دروسي ، وكأنهم صورة من صور العطف والذكاء ، وأعظم نعمة
في الدنيا أن يقف الرجل موقف المعلم لشبان مهذبين أذكياء ، وأنا
واثق أن لن يعاديني أحد من هؤلاء التلاميذ ، ومطمئن إلى أني
لا أعيش بينهم عيش الغريب بعد أن طالت شكواي من الغربة في
القاهرة وسنتريس .

وراعني أيها السادة أن يكون لي زميل كالدكتور عقراوي ،
زميل يحضر محاضراتي مع أهله ، ثم يختصمان في سبيل وهما على

المائدة ، فتنتصر هي عند الغداء وينتصر هو عند العشاء .
وراعني أن أجد في دياركم رجالا من أهل العلم ، أمثال الأستاذ
طه الراوي والدكتور فاضل الجمالي ، رجالا يعرفون الأخوة الأدبية
فيزيلون غنى كل وحشة ويذهبون عن قلبي متاعب الاغتراب .

وقد تفضلت الطبيعة العراقية فأتحفتني بأنفس ما تملك كون وهو
ليل بغداد ، ولن أترك لكم هذا الليل ، وأصارحكم بأنى سأنهبه ثم
أطويه في جيبى وأنقله إلى ضفاف النيل .

ولكن أى ليل ؟ إنه في هذه الأيام لا يعرف إنسانا سواي ، فإن
شعر أحدكم بأن ليااليه مضيعة فليحقد على " كيف شاء فأننا الذى أنهب
من عينيه سحر الليل ، ليل بغداد .

ولهذا الليل أيها السادة أحاديث ، فقد عرفت به كيف استطاع
علماء العراق أن يملأوا الدنيا علما وأدبا ، وكيف كان الرجل
يستطيع أن يؤلف مائة كتاب ويعلم ألوف التلاميذ ، ويساجل
النجوم بأشعار باقية على الزمان .

ليل بغداد هو الذى سيخلاق زكى مبارك من جديد ، ليل بغداد
الطويل الذى يصل فى بعض الأحيان إلى سبع وسبعين ساعة
وسبع دقائق ، ليل بغداد الذى حمل المكتبة العسامة على رفع
شكواها إلى وزارة المعارف لتتقنها من الجاحظ الجديد الذى
اسمه زكى مبارك .

وما أنكر أيها السادة أنى عرفت فيما سلف ليلا أطول من ليل
بغداد ، وهو ليل باريس ، ولكن ليل باريس على طوله كان طيع
الصباح بفضل ما هنالك من ملاءة وفتون ، أما ليل بغداد فلا يعرف
شيئاً من ذلك ، هو ليل العلم ، وسيصيرنى وأسفاه من كبار العلماء
وخلاصة القول أنى سعيد فى بغداد ، ولا يضايقنى إلا شىء
واحد : هو وجود جماعة من الاساتذة المصريين فى هذه البلاد ،
أساتذة ينافسوننى أخطر منافسة بفضل ما رزقوا من غزارة العلم
وحصافة العقل ، ولكن يعزىنى أنكم إن تطالبونى بمثل ما يقدمون
من صالحات الأعمال وطيبات الجهود ، ففهم رجل سبقنى إلى الدنيا
بأكثر من خمسين سنة وهو الأستاذ محمود عزمى ، أطال الله حياته
وبارك فى عمره ، وبلغه ما يسمو إليه من كرائم الآمال

أيها السادة

هل لكم أن تسمحوا لى بالترويج عن نفسى قليلا ؟ لا بد
للصدور أن ينفث ولى أمل عزيز أخشى أن يخيب
لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال فى الدعوة إلى
إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعنى
على تحقيق ذلك الأمل النليل ، وصارحنى بعض الرجال بما يعترض
إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل بهذه الرغبة بطريقة علنية وأصافح
جميعناى أنصارها الأوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية
فى كل يوم ، والكلام عنها فى كل مجتمع واللاحاح بها على جميع
الوزراء ، واعدلوا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة ، وباسمها
المخالد تتعطر الافواه فى جامعات الشرق والغرب

إن الحججة فى أيدينا أيها الزملاء ، فعندنا نواة الجامعة العراقية ،
عندنا النواة السليمة لأربع كليات ، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية
بصفة رسمية ، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والادبية مع الجامعة
المصرية وجامعة باريس ، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة
بمهرجان مشهود فى آذار المقبل ، شهر الأزهار والرياحين
أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالى فى ظروف كثيرة ، فشدوا من
عزائكم لنصرته هذه المرة ، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام
وهى إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتمونى بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى أرد لكم
هذا الدين النبيل ؟ سأردّه يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة
العراقية ، ويومئذ لا أكتفى فى تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب
الشاي ، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل .

النبي الصبور^(١)

كان أستاذنا سيد بن علي المرصفي رحمه الله مشهوراً بركة الدين ،
والشهرة بركة الدين بلية يرزأ بها النوابغ في الشرق ، وقد صحبت
ذلك الأستاذ سبع سنين ، وكنت في تلك السنين شاباً مستقيماً
الأخلاق ، وكنت أخاف أن يعديني بركة الدين ، فكنت
أحترس وأحترس ..

ولكن الذي وقع كان أعجب وأغرب ، فقد صحبت هذا الشيخ
وأنا مسلم ولم أفارقه إلا وأنا مؤمن ، فكيف أخذت الإيمان عن
ذلك الزنديق ؟

كان الشيخ لا يذكر النبي إلا بعبارة : «سيدنا رسول الله»
وكنت أظنه يتهكم أو يتظرف ، لكثرة ما سمعت من اتهامه
برقة الدين .

ولكن هذه العبارة لم تكن مقصورة على الدرس : فقد كان
يقولها كلما ذكر اسم الرسول ، وكنت أسمعها منه في البيت وفي
الطريق وفي كل مكان ألقاه فيه .

وفي إحدى المرات التي كان يسخر فيها من شيوخ الأزهر

(١) كتبت هذه الكلمة لمجلة الديوان البغدادية

— وكان يسخر منهم في كل وقت — في إحدى تلك المرات هجمت عليه فقلت : ولكن أنت يا أستاذ سرقت من شيوخ الأزهر عبارة : «سيدنا رسول الله»

فقال : أنا لا أقول «سيدنا رسول الله» تقليداً للشايخ ، وإنما أقول ذلك عن ذوق وإحساس . فالنبي محمد هو في قلبي وعقلي «سيدنا رسول الله»

ومنذ تلك اللحظة بدأت أفهم كيف تلصق التهم بالنوابغ زوراً وبهتاناً .

أنا أبغض الاعلان عن إيماني بغضاً شديداً ، لأنني أخشى أن يحسب فريق من بني آدم أنني أتزلف إليهم ، أخشى أن يحسب المتجرون بالدين أنني أحب أن أقاسمهم ما يربحون من خسران !

ولكن ماذا أصنع وصاحب هذه المجلة يخذعه حسن الظن فيثق بإيماني ويدعوني لكتابة كلمة عن سيدنا رسول الله بمناسبة المولد الشريف ؟

أعترف كارهاً بأنني مؤمن ، وفي سبيلك يا رسول الله أسجل هذا الاعتراف

ولكن ماهي الشرائع التي تصلي بسيدنا رسول الله ؟

إن هذا الرجل عظيم في كل نواحيه ، ولكن في شمائله ناحية منسية
هي الصبر الجميل .

وخلة الصبر في سيدنا رسول الله أنقذتني من الموت نحو عشرين
مرة فقد كانت تمرّ بي أزمات أعاني فيها من لؤم الناس ما يشوقني إلى
الموت . كنت أتسامي إلى الخير ويصدني عنه ما عند الناس من
عقوق . كنت أطمح إلى البر ويصرفني عنه ما عند الناس من جحود ،
كنت شيخاً كساثر المشايخ لا يقدم كلمة النصيح إلا لمن يقبل يمينه
كنت مخلوقاً صغيراً لا يتعب في سبيل الخير إلا إن ضمن الجزاء .

ثم هداني سيدنا رسول الله

نعم هداني سيدنا رسول الله

فبفضله عرفت أن الشر عنصر أصيل في حياة الإنسانية ، ولو لم
يكن الأمر كذلك لما جاز لهذا الروح الطاهر النبيل أن يقضى
حياته كلها في هموم وكروب وأحزان ؟

ومن أنا في جانب سيدنا رسول الله ؟

لقد كان يزرع البر ويحصد العقوق ، فما الذي يمنع من أن أتشبه
به فأزرع البر لأحصد العقوق ؟

لقد جعل العرب أمة عزيزة بعد أن استذلهم الفرس والرومان
ومع ذلك اتهمه فريق منهم بالكذب والافتراء .

وأنا أحاول أن أغني اللغة العربية بحيث ينسى أبناؤها ما يفتنهم

من أدب الإنجليز والفرنسيين والألمان والitalians ، ومع ذلك
أجد من يمتنع لحي بلا تورع ولا استحياء .
لقد صبر النبي على قومه ، فهل أصبر على قومي ؟
هنا أتشوف إلى التأسي بسيدنا رسول الله .

* * *

قلت في صدر هذه الكلمة إن صحبتي للشيخ المرصفي قوت إيماني
ولكن صوت الشيخ المرصفي الذي قرع أذني أول مرة سنة
١٩١٣ لا يزال يعاودني ، فما أدري كيف اتفق له وهو مؤمن أن
يتوجع وهو يذشد قول يحيى بن طالب :
يزهدني في كل خير صنعته

إلى الناس ما جربت من قلة الشكر
وأنا أحب أن أترك هذا الأدب لأتأدب بأخلاق سيدنا رسول
الله ، أحب أن أتخلق بأخلاق هذا الرجل ، فأخدم أعدائي ، أحب
أن أتطبع بطباع هذا الرجل فأوأسى خصومي ، أحب أن أكون
كالشجرة يخطبها الناس بعنف لتلقى إليهم ثمارها ، ثم تعود فتورق
وتزهر وتثمر ليعود الأشقياء إلى خطبها من جديد .

* * *

ولكن كيف السبيل إلى الاقتداء بسيدنا رسول الله ؟
في مكتبتني بمصر الجديدة خمس نسخ من المصحف الشريف .

وكان معي في باريس نسخة من المصحف الشريف .
وقد أخطأت نحو نفسي أبشع خطأ حين قدمت بغداد وليس
معي نسخة من المصحف الشريف
ولكن لا بأس فقد استعرت نسخة من المصحف حين قهرتني.
الهموم في بغداد ، وفي هذا المصحف أقرأ هذه الآية :

« إنا كفيناك المستهزئين »

فأعرف أن حمايتي في ضمان ربي

وأقرأ هذه الآية :

« ولا تك في ضيق مما يمكرون »

فأعرف أن من واجبي نحو نفسي أن أبتسم ، وربما كان هذا

من واجبي نحو ربي .

وأقرأ هذه الآية :

« فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

فأفهم أن الحق سينتصر ولو بعد حين ، وأحفظ رزاتي وألزم

وقاري .

وما أقصد بغداد ولا أهل بغداد ، فليس للعراق من وجهة

العروبة وجود خاص ، وإنما هو عضو من ذلك الجسم الهائل

الذي تجتمع به الأمة العربية ، وما ألقاه من الشر في العراق قد

لا يصدر عن العراق ، فالأقطار العربية تتجاذب الخير والشر ،

والعرف والنكر والرشد والغنى ، والسهم الذى يصيدنى وأنا على
ضفاف دجلة قد يكون راميه صديقاً يقيم على ضفاف النيل .
سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك
وذو سلم قريب بعض القرب من العراق فكيف يتفق للمقيم على
ضفاف النيل أن يصيب من فى العراق ؟
لقد ترقى وسائل الحرب ، فاحترس يا صاح ، ثم احترس يا صاح .

* * *

أيها القارئ :

هل عندك فكرة تخدم بها وطنك ؟
هل عندك رأى ترفع به أمتك ؟
هل أنت رجل فيه خصائص الرجال ؟

أيها القارئ :

حدثنى من أنت ؟ فإن كنت إنساناً تافهاً فلا خوف عليك ،
فأسعد المخلوقات هى الأنعام ، والجو لا يتسع حق الاتساع
لغير الذباب .

وإن كنت من أهل رأى والأدب والبيان فاسمع نصيحتى .
إسمع نصيحتى بلا ثمن ، فأنا كالشمس التى توزع النور بالمجان .
إسمع يا غافل ، ثم اسمع يا غافل ، إسمع يا جهول ، ثم اسمع يا جهول ،

لن تصل إلى شيء إلا حين تصبر على لوم من تفكر في هدايتهم
كما صبر سيدنا رسول الله .

لن يصل العزاء إلى قلبك إلا حين تذكر تعزية الإله العظيم
لنبيه الكريم .

هل تعرف تلك التعزية ؟ هي هذه الآية الكريمة :
«لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين» .

مصادر الادب القديم

ومراجع العلم الحديث

حضرة الصديق العزيز الأستاذ سامى السكيالى

سألتونى عما أرى فى إحياء الأدب القديم وما أرى فى نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية ، وهاتان مشكلتان حار في حلّهما كثير من المفكرين ، وإنما وقعت تلك الحيرة لأنه لا بدّ للباحث من الرجوع إلى مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث

ويؤلمنى أن أصرح بأنّ العزائم تراخت فى هذه الأيام عن إحياء الأدب القديم ، ويكفى أن تذكروا ما صنعت مطبعة بولاق بالقاهرة لتعرفوا أنه لم يتفق لآلية هيئة علمية أو أدبية أن تصنع ما صنعت تلك المطبعة فى بضع سنين ، ومن المحزن أن المؤلفين فى تاريخ الأدب للدارس الثانوية يسكتون عن تاريخ تلك المطبعة وتراجع مصححيها سكوتاً تاماً ، ولو وفقهم الله إلى الحديث عنها لرجونا أن يخلق الشوق إلى إحياء الأدب القديم فى بعض النفوس

وما رأيك إذا حدثتك أن الجيل الذى ساف قام بأعباء ستعجز عنها سائر الاجيال ، إن لم يرفع الغبار عن بعض ما نعرف من القلوب ؟ لقد قام ذلك الجيل بطبع « تاج العروس » فهل تنتظر أن

يطبع ذلك المعجم المعجز مرة ثانية ؟ لقد قام الجيل السالف بطبع شرح « الإحياء » فهل يخطر ببالك أن ذلك الشرح سيطبع مرة ثانية ؟ هيهات هيهات

إن معجم « لسان العرب » وهو أعظم معجم عرفته اللغة العربية طبعه فيما سلف رجل ثم كان جزاؤه أن يموت تحت أثقال الديون ، فهل في أدباء هذا العصر من فكر في كتابة فصل ممتع ، أو قصة شائقة ، عن حياة ذلك الشهيد ؟

وشرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة الذي نشرته مكتبة الحلبي فيما سلف ، وكتاب « الأم » الذي ألفه البويطي ونسب خطأ إلى الشافعي ونشره الحسيني ، وكتاب المخصص لابن سيده ، أترى تلك المؤلفات تنشر مرة ثانية على أيدي هذا الجيل الكسلان ؟ هناك فكرة ترمى إلى أن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم ، وهذه الفكرة لها خصوم ولها أنصار ، فإن انتصرت يوما فسيحيا الأمل في بعث الأدب ، أما الجهود الحاضرة ، جهود الأدباء الذين ينشرون ما يقدرون على نشره من قديم المؤلفات ، فهي جهود مشكورة ولكنها لن تصل بنا إلى ما نريد . وحسبك أن تذكر أن أدباء هذه الأيام لا ينشرون من المؤلفات القديمة إلا ما يعرفون أنه قريب من أذهان المتأدين لتعرف أن هذا النوع من النشر سيقف عند السكتب التي تكثر فيها الأشعار

والأسماء والأحاديث ، ثم يعجز عن طبع الكتب العلمية التي لا تجد جمهوراً كبيراً من القراء

وقد جربت هذا بنفسى فأحييت كتاب زهر الآداب وأحييت « الرسالة العذراء » أما زهر الآداب فقد راج وطبع مرتين ، وأما الرسالة العذراء فلا تزال نسخها مكدسة فى بيتى ، ولا أعرف أين أصرّفها ، لأنها تبحث مسألة أدبية دقيقة لا يهتم بها غير الخواص ، والخواص فى الأمم العربية لا يحيا بهم كتاب ، لأنهم يدعون الإحاطة بكل شىء ، وأكثرهم يرضون على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ! وما جربته بنفسى جربه أكثر المعاصرين ، فهم يقفون فيما ينشرون عند الكتب التى يفهمها الجمهور ، ويحجمون عن نشر الكتب التى تنفع الخواص

وهل هناك أعجب من قصة السيد رشيد رضا مع كتاب دلائل الإعجاز ؟ لقد حدثنا فى مقدمة الطبعة الثانية أنه لولا عناية وزارة المعارف لظلت الطبعة الأولى مهجورة لا تعرف غير الصناديق ، وكذلك كان حال كتاب « أسرار البلاغة » الذى لم تنفذ طبعته الأولى ، مع أنه نشر منذ ثلاثين عاماً أو تزيد . . . فى صاحب مجلة الحديث تذكر أن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص فى سبيله الألوف المؤلفة من الدنانير ، وتفرضه على الطلبة ، والأساتذة أيضاً ، إلى أن يخلق الذرق الأدبى

الذى يجب إلى الأفراد قيمة التضحية في هذه السبيل

* * *

وأما نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية فلى في شأنه اقتراح
قديم أخذت به وزارة المعارف المصرية في عهد الوزير الأسبق
محمد حلمى عيسى باشا وألفت لجنة لتنفيذه ، ثم سكنت عنه بعد أن
فارقها ذلك الوزير . وخلاصة ما اقترحته على الوزارة أن تفرض
على كل طالب من أعضاء البعثات أن يترجم إلى اللغة العربية كتابين
من أمهات الكتب في العلم الذى يخصه فيه ، ثم لا تعد بعثته قد
تمت إلا بعد أن يودى هذا الواجب ، أى لا يمنح ترقية أو علاوة
بعد عودته إلا يوم يتضح أنه نقل إلى أمته شيئاً من العلم بترجمة
كتابين عظيمين .

وكان من فروع هذا الاقتراح أن تقوم الوزارة بطبع تلك
الترجمات ثم توزعها على المدرسين والموظفين والمتأدين بشمن
مقبول ، وكان من رأى أن تخصص الحكومة من كل موظف عشرة
قروش في كل شهر ، ثم تعطيه في مقابل ذلك نحو عشرة كتب في كل
عام ، وبذلك تفرض الثقافة العلمية على جمهور الموظفين ، ثم تنتقل
العدوى العلمية إلى أبنائهم وإخوتهم ومن يتصلون بهم من
الشباب والكهول .

ولا أزال أعتقد أن هذا الاقتراح سهل التنفيذ ، فهل يمكن
بعثه مرة ثانية بفضل نشره على صفحات الحديث ؟
أرجو إن راقكم هذا الرأي أن تكتبوا في تأييده مرة أو مرتين ،
فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، والسلام .

الاسمار والاحاديث^(١)

في ليالى رمضان

أيها السادة

إن الشوق إلى السمر في رمضان هو شوق قضت به طبيعة الحياة لأن الناس يسكادون يمسكون عن الكلام في أيام الصيام من فرط التعب والإعياء، فإذا جاء المغرب وأفطروا رجعت إليهم الحيوية، وتشوفوا إلى مطول الأحاديث. والإنسان حيوان ناطق، كما تعرفون، ناطق بالفكر وناطق باللسان، والكلام عند الإنسان هو مادته الأولى من اللهو واللعب وهو مسلاته وملهاته في أكثر الأحيان أضيفوا إلى هذا أن الناس يحتاجون في ليالى رمضان إلى انتظار السحور، وهم لا ينتظرونه ساكتين، وإنما يتعاونون على السهر بأطياب الأسمار والأحاديث

ومن الحق أن نذكر أن الكلام يستعمل أيضاً في تزجية أيام الصوم، والتاريخ يحدثنا أن علماء المسلمين كانوا يقطعون أخريات النهار بالجدل والمناظرة في الشؤون الدينية واللغوية، ومن شواهد ذلك ما حدثنا الصاحب بن عباد من أنه كان يرى العلماء يتجادلون

(١) أول محاضرة ألقاها المؤلف بالاذاعة العراقية

في قصر ابن العميد بعد العصر في رمضان ، فإذا اقترب المغرب انقلبوا إلى بيوتهم ، وكانت هذه الحال بمضايق ابن عباد ، فنذر إن أقبلت عليه الدنيا ليحجزن العلماء إلى ما بعد الفطور ، ثم قضى الحظ أن يكون وزيراً فكان العلماء يحضرون عنده بعد العصر في رمضان للجدل والمناظرة ، فإذا أذن المؤذن مُدَّت لهم الموائد فأكلوا وشربوا ثم قضوا السهرة إن شاءوا في السمر والحديث

ومن قبل ابن العميد وابن عباد كانت المساجد تمتلئ بالناس بعد العصر في رمضان ، وكان الواعظون والقصاص يلهون الناس عن متاعب الصوم بفضل ما ينثرون عليهم من العظات والأقاصيص . ولو راجعنا التاريخ لحدثنا عن شواهد ذلك من أخبار المساجد في البصرة والكوفة وبغداد

ولاتزال هذه السنة متبعة في الديار المصرية . ورحمة الله على الشيخ محمد غريب الذي كان يلهينا ويشجعنا بشرح الأحاديث في مسجد سنتريس ، ورحمة الله على الشيخ الرفاعي الذي كان يأتي بالعجب وهو يلقي العظات بعد العصر في مسجد سيدنا الحسين

وكان لعلماء القاهرة سنة مرضية ، فقد كان منهم من يذهب إلى المسجد بعد السجور ثم يحدث الناس إلى صلاة الصبح ، ولهم في ذلك نواذر يضيق عن سردها هذا الحديث

ولا أستطيع أن أزعم أني قادر على وصف ما يقع في بغداد من

الأسفار والأحاديث في ليالى رمضان ، فإنى لم أشهد فيها شيئاً من هذا النوع ، ولا أزال بفضل انقطاعى للدرس وانعزالي عن الناس كالشاعر الذى يقول :

يا أيها السائل عن منزلى نزلت فى الخان على نفسى
آكل من خبزي ومن كسرتى حتى لقد أوجعنى ضرسي
فاسمحوا لي أن أحدثكم عما يقع من ذلك فى البلاد التى يروها
النيل ، وأكاد أجزم بأن جميع الناس فى القرى المصرية يقطعون
أمسياتهم فى تبادل الزيارات ، ولهم فى ذلك طرائق لطيفة تتمثل فى
الوفود التى تنتقل من بيت إلى بيت ومن دقار إلى دقار ، والدقار
فى بلادنا هو المضافة الكبيرة التى يسمر فيها الأهل والأقربون
ويتلقون فيها الضيفان

أما القاهرة فلها أحوال ، فقد كانت إلى نهاية الجيل الماضى تعرف
التزاور فى البيوت ، ثم قلت هذه العادة الحسنة رويداً رويداً حتى
كادت تنقاص ، ولم يبق فيمن أعرف من ينتظر الناس بمنزله
فى ليالى رمضان إلا العدد القليل

فمنذ خمسة عشر عاماً كان فى القاهرة منزل الصوفانى بالحليّة
الجديدة ، وكانت لذلك المنزل تقاليد ، وإنما خصصت ذلك المنزل
بالذات لأن رمضانياته كان لها أثر فى الحياة السياسية والاجتماعية
وفى هذه السنين لا أعرف فى القاهرة منزلاً يحافظ على تلك

التقاليد غير منزل عبد الرازق وهو المنزل الذى يعمر اليوم
بالأخوين النبيلين على عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ، ففى ذلك
المنزل تلتقى الوفود فى كل مساء ، وفيه تجرى أطيب الأسفار
وأظرف الأحاديث ، وفى ذلك المنزل تلقى من تشاء من الرجال
فتحدث الشيخ الزنكلونى ولطفى باشا السيد والدكتور منصور
فهمى والدكتور طه حسين .

وهناك منزل فى حيّ السكرية هو منزل القاياتى ، وقد خلا من
الخطاريف البهاليل ، ولم يبق فيه من الخير إلا وجه الشاعر المطبوع
السيد حسن القاياتى . ومن طرازه منزل السيد عبد الحميد البكرى
الذى كان مرجع الصوفية إلى عهد قريب والذى شب فيه صاحب
صهاريج اللؤلؤ ، نضر الله مثواه .

* * *

فإن سألتهم وأين يلتقى أدباء القاهرة فى ليالى رمضان فإني أخبركم
بأن ذلك لا يقع إلا فى المقاهى والأندية ؛ ولكل أديب مشهور
مقهى خاص ؛ فالشاعر محمد الهراوى ينتظر إخوانه فى مقهى
لونا بارك . واللغوى محمد وحيد الأيوبى ينتظرهم فى مشرب السلام ،
والصحفيون يسلمون فى بار اللواء . وكذلك تهجر البيوت وتوصل
المقاهى فى ليالى رمضان .

ولكن من العدل أن ننص على أن تلك المقاهى سيكون لها

تأثير عميق في الأدب الحديث ، وهل يمكن تناسي صولات الجدل
في قهوات شارع عماد الدين ؟ هل يمكن أن تناسي قهوة ريجينا
حيث يسمر الممثلون والفنانون والصحفيون ؟ هل يمكن أن
تناسي بار اللواء وفي أجوائه رنت أصوات محمد هلال ومصنور
فهى ومحجوب ثابت وحفنى محمود ومحمد خالد وأنطون الجميل
وداود بركات ؟

إن تلك المقاهى خليقة بأن تعدّ في طليعة الأسواق الأدبية التي
تذكر بالمربد وعكاظ ، وهى بفضل من تعرف من الكتاب
والخطباء والشعراء والفنانين والمفكرين خليقة بالبقاء ، ففيها
تجرى الطرائف من أطايب الأسفار والأحاديث ، وفيها تحيا فنون
الأدب الرفيع .

وما يصح أن توصف به مقاهى القاهرة ينطبق تمام الانطباق
على مقاهى الاسكندرية ، فهناك القهوة التجارية التي يسمر فيها
أدباء الثغر على ذلك الشاطئ الجميل .

ولأسفار الاسكندرية لون خاص ، فشعراء الاسكندرية هم
اليوم يتفردون بإحياء فن الدعابة الأدبية ، وهى دعابة طريفة يتفق
لها في أحيان قليلة أن تقارب الهجاء ، وليالى الاسكندرية لها في
أنفس القاهريين مكان ، ومنهم من يرحل إلى هناك ليقضى ليلة أو
ليلتين في الاستماع إلى محاورات الأساتذة عبد اللطيف النشار

وعثمان حلمى وعلى البحراوى و خليل شبيب ولا سيما بعد أن
انتقل الدكتور أبوشادى إلى شاطئهم الساحر فأهدى إليه مادة نفيسة
من الجدل العنيف .

هنالك أيها السادة يقع الشعراء بعضهم فى بعض ، ويتقارضون
الهبجو فى المحضر والمغيب بالأسنة عذاب فصاح . ومن شمائل أولئك
الشعراء صدق العطف على أدباء القاهرة فهم يلقونهم بالترحيب
و يمتعونهم بأطياب السمك وأطياب الحديث .

ولا بد من الإشارة إلى أن لسمار القهوة التجارية فى
الاسكندرية أشباها فى القاهرة ، هم السمار الذين يعرفون لجنة
الترجمة والنشر والتأليف ، حيث تطيب النكتة على أسنة أحمد أمين
وعبد الحميد العبادى ومحمد عوض ، وحيث ترهف الآذان من أمثال
الأساتذة أحمد زكى وأحمد حسن الزيات .

ولسمار الاسكندرية أشباه غير هؤلاء . وهم سكان البعسكوكة
الأرضية بدار الكتب المصرية ، حيث يلتقى الأساتذة محمد الهراوى
وأحمد رامى وأحمد الزين وعبد الله حبيب .

ولكن هذه البعسكوكة نهائية ، فيا ليت شعرى كيف يصنعون
فى رمضان !

أما الأندية الأدبية فهى مشورة فى مختلف الحواضر المصرية ،

وأشهرها جمعيات الشبان المسلمين ، وأندية الموظفين ، وهي مختلفة الألوان فمنها ما يخوض في شؤون المجتمع ، ومنها ما يخوض في شؤون الأدب ومنها ما يشرح أصول الدين ، وفيها تيارات اجتماعية وسياسية يصعب الكلام عليها في هذا الحديث ، ويكفي أن نذكر أن حياتها الليلية تعتمد على السمر الطريف ، وتهتم في الأغلب بسماع المحاضرات أو الإقبال على ما ينشر المذيع من أغان وأحاديث .

* * *

بقي أن نشير إلى الجرائد الهزلية في مصر ، فلها لون طريف في أيام رمضان .

لقد كان من عادة الناس في مصر أن يختصوا هذا الشهر بنوع من الحلوى اسمه قمر الدين ، وهو دائما مادة الفكاهة في الجرائد الهزلية ، وقد اتفق مرة أن أرسل أحد الموظفين هدية إلى حضرة صاحب العزة عوض بك إبراهيم وكيل وزارة المعارف ، فعدها رشوة وأبلغ الأمر إلى النيابة ، فكتب الأستاذ حسين شفيق المصري يقول : إن هذه من أقوى دلائل النزاهة في عوض بك إبراهيم ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الهدية كانت في رمضان وأنها من قمر الدين !

ونشرت إحدى الجرائد عن رجل مشهور أنه تناول الغداء في القناطر الخيرية ، وكان ذلك في رمضان ، فكتب أحد الأدباء في

تأنيده يقول : ألم تسمع أننا في رمضان ؟ ألم تسمع وحوى وحوى
أيوحه ؟ ألم يطبخوا في بيتكم قمر الدين ؟

ولكن قمر الدين ، مع طلعتة البهية ، تقلصت دولته ، وحلت
محلها الكنافة ، على وجهها أزكى التحيات ، فمن شاء منكم أن يزور
مصر فليكن ذلك في رمضان ، ليمتع عينيه بمنظر الكنافة ؛ فلها وجه
خمرى جميل !

وقد يكون من الفكاهة أن أحدثكم أن الكنافة تقوم في مصر
بعمل قومي جليل ، فإخواننا المسيحيون يدعون كثيراً لتناول
الكنافة مع إخوانهم المسلمين في رمضان ، وأكثرهم يتوهم أن جنة
المسلمين ستكون مملوءة بالكنافة ، وأنا لذلك أرجو أن يهديهم الله
جميعاً للإسلام فيجتمعوا على الكنافة هنا وهناك .



سيداتي وسادتي

تلكم كلمة موجزة عن أسفار رمضان ، فإن راقبكم فيها ونعمت
وإن لم ترقكم فاعذروني ، فقد فارقت في مصر أصدقاء أعزاء ، منهم
السيدة كنافه والسيد قمر الدين ، والمرء حين يبعد عن أعزائه تفارقه
بلاغة القلم وفصاحة اللسان !

من صديق الي صديق

أخي الأستاذ مدحت عاصم

أتذكر المثل القديم : واحدة بواحدة جزاء

أنت تذكر هذا المثل ولا ريب ، فلتعرف أني سأجزيك مفاجأة بمفاجأة ، وكلية مفاجأة كلية جافية ، ولكنهم اصطالحوا عليها لتؤدي معنى الكلمة الفرنسية (Surprise) تلك الكلمة اللطيفة التي كنت أجد فيها أطيب الجزاء على ما أقدم من الهدايا لمعشوقاتي في باريس

والمفاجأة هي أن تكون أول قارئ لهذا الخطاب في جريدة الصباح ، لأن محطة الإذاعة هي أول من يقرأ جريدة الصباح ، وهل نسيت يا شيطان يوم كنتم ترسلون من يترقبها في ميدان الأزهار لتطلعوا قبل سائر الناس على ما يقال فيكم؟ وهل نسيت أنكم مع ذلك لم تنتفعوا أبداً بما يوجه الناقدون إليكم؟ وهل نسيت أنكم هجرتوني هجراً غير جميل لأنني أغرمت بتعقيبكم في جريدة البلاغ؟

المفاجأة هي أن تقرأ خطاباً لم تكن تنتظره على صفحات الصباح وذلك هو الجزاء على المفاجأة التي روعتني بها في بغداد

وأشهد أنى كنت أترقب كل خيال ، وأنشوف إلى كل وهم ،
وأتظر كل مستحيل ، إلا أن أتلقى فى بغداد خطاباً من الفنان
مدحت عاصم ، أخى وصديقى ومولاى

وإنما كان الأمر كذلك لأنى نفضت منك يدى منذ أعوام
طوال . واليوم من هجر ككألف سنة بما تعدون

نفضت يدى منك لأنك طغيت وتمردت ، ونسيت ما قضينا من
الأسفار فى الليالى السود والبيض ، حين كان أهلك الأكرمون
لا يعرفون السبيل إلى قلبك المتمرد إلا بشفاة الدكتور زكى مبارك
أشرف صديق عرفه أهلك فأحبوه ، واطمأنت إلى مروءته تلك
السيدة النبيلة وذلك السيد النبيل ، وأنت تعرف من أغنى

وفى خطابك عبارات لا يقولها إلا رجل فى مثل كرمك ونبلك
فاسمح لى أن أسجل بطريقة علنية أن روحى كان له تأثير قوى فى
الفن القهار الذى تذيعه أنامل الفنان مدحت عاصم ، فليس من
القليل أن يكون لروحى فضل على فنان مثلك ، وإنى لأعرف أنتى
أدخلت البهجة والأريحية على العصر الذى ظهرت فيه ؛ ولكننى لن
أجد من يذكر فضلى غير آحاد ، وأنت أولئك الآحاد

فهل أستطيع أن أطمئن إلى أنك لا تبدأ ألحانك بمحطة الإذاعة
قبيل منتصف الليل إلا لأن سهراتنا الوجدانية كانت لا تبدئ
إلا قبيل منتصف الليل ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أنى أخطر ببالك حين تمزج
دموعك بالحنانك ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أنى كنت مصدر الوحي لأكثر
ماتذيع من الألمان ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أننا سنسمر مرة واحدة بعد الألف
فى ذلك المنزل الجميل ؟

مدحت - أفى الحق أنك رجعت إلى منزل الأهل ؟ أفى الحق
أنك شبتت من الشطط والجوح ورجعت إلى ذلك المنزل الجميل
الذى كانت تظلنا ظلماؤه فى عفوات الليل ؟

إنك تذكر فى خطابك أنك رجعت إلى تلك الحديقة ، فهل
هذا صحيح ؟

وهل تذكر ، يا جاحد ، تلك الحديقة ؟

هل تذكر كيف كنت أرجوك أن تطفئ الأنوار لتمتع
بظلام الليل ؟

لقد آن الأوان لأحدثك عن السبب ، فقد كان يسرنى أن تلعب
أناملك على العود فى الظلمات لأخفى عنك دموعى ، دموع الوجد
الذى يشيره فك المطلول .

ثم جدت أحداث وخطوب نسيك فيها ونسيتنى ، إن كان
النسيان يحوز على قلب مثل قلبى ، ولعل الأستاذ حسن السندوبى ،
الأديب الساخر ، لا يزال يذكر أنى أتعبت قدميه فى ليلة شاتية

لنصل إلى منزلك ، وما وجدناك ، وقد ظل يسخر منى زمنا غير قليل ، ولعله لا يزال يسخر من سذاجتى إلى اليوم !

مدحت ، لقد بدا لك أن تقارن بين قى وبين فنك ، قى فى البيان وفنك فى الألحان ، وأنت ترى أنى اجترفت ما وقف فى طريقى من حواجز وأسداد ؛ فاسمح لى أن أسجل أنى لم أنتصر وحدى ، وإنما انتصرت معك ، فأنت أيضا من المنتصرين ، على ماتدعيه لنفسك من الخمول ، وهل من القليل أن يبقى مكانك فى محطة الإذاعة بضع سنين وهى أخطر وكر من أوكار الدسائس ؟ إن إخوانك — وأنا منهم — أحجموا عن مناصرتك فمضيت تشق طريقك بيدك ، وسيذكر عالم الفن ، إن كانت له ذاكرة ، أنك كنت فى طليعة النوابغ .

مدحت ، لك فى عنقى ديون ، فقد أوحيت إلى قاي كثير من المعانى . ولكنى سأجزيك خير الجزاء حين أقدم إليك المذكرات الطريفة التى خطتها يمينك فى التشوق إلى أخيك . وبعد ، فهل أستطيع أن أسألك عن حال الصديق السخيف الذى يسمونه الموسيقار محمد عبد الوهاب ؟ هل أستطيع أن أسألك ما حاله فى دنيا غرامه الأثيم ؟

لقد نسى هذا الصديق السخيف فضلى عليه ، ونسى موقفنا فوق بحيرة أنجان ، ونسى أيامنا فى باريس وهو يخرج الورد البيضاء ،

ونسى القصيدة التي نظمها فيه وأنا في القطار من باريس إلى ليون،
ويظن هذا الصديق السخيف أن كسب المال أفضل من كسب
القلوب ، تبت يداه ، ما أشقاه !

هل أستطيع أن أسأل عن صحة المغنية (حياة محمد) التي وعدتها
فأخلفتها وما وعدتني فأخلفتني ؟ هل أستطيع أن أسأل عن رباعي
العقاد ؟ هل أستطيع أن أسأل عن الفتاة التي تلقى محاضراتها عنكم
بصوت أرق من بغام الأطباء ؟

مدحت ، حدثني عن لحيتك ، لعنها الله ، ألا تزال في صحبتك ؟
والأستاذ سعيد بك لطفي كيف حاله ؟ وعزيز رفعت ، وعلى خليل ،
والصديق الغادر عبد الحميد الحديدي ، كيف حال هؤلاء الأعراء ؟
وشارع علوي أين يقع ؟ وبار اللواء أين يكون ؟ وخلدون أين
يجلس ؟ وحفني محمود أين يلعب ؟ والشناوي أين يغرد ؟ وجبريل
أين يمزح ؟ وهيكل أين يؤمن ؟ وطه حسين أين يشك ويرتاب ؟ ؟
أراني اشتقت إليكم ، وأقسم ما قاذني الشوق إلا إلى ناس هم
مثال الغدر والجحود والعقوق .

صورة آمال....

صديق رئيس تحرير البلاد

تفضلتم فطلبتم مني صورة العشماوى بك وصورة كريمته آمال
وأستطيع أن أمن عليكم فأقول إن وقى لم يكن يتسع لطلب هاتين
الصورتين ، فإني مشغول جداً ، ويكفى أن تعرفوا أنى أشغل
مطبعتي من كبريات المطابع فى بغداد ، ولكنى صحفى قديم ، صحفى
يعرف حقوق الزملاء ، ويرى من واجبه أن يعينهم على حقوق
صاحبة الجلالة كلما دعاه الواجب . وأنا أقدم إليكم صورة العشماوى
بك ، أما كريمته آمال فقد رفضت إعطاء صورتها بقوة وعنف ،
ودعاها أبوها إلى مطاوعتى فلم تجب ، وتلطف فقال لها إن الدكتور
زكى مبارك مصرى كبير تجب طاعته فلم تطع ، وأصرت على أنها
فتاة لا ترضى عن نشر صورتها فى الجرائد ولو دعاها إلى ذلك
ألف رجل من أمثال الدكتور زكى مبارك ، فما رأيك يا صديق
إذا قدمت إليك من تلك الفتاة صورة قلبية هى أدق وأصدق من
الصورة الشمسية ، لتعرف أن الأدباء لا يسلم من «خيرهم» مخلوق ؟
أنا أعرف أنها ستغتاظ ، ولكن ماذا يضيرنى من ذلك ؟ هل
تستطيع إفساد ما بينى وبين أبيها ؟ هيات ! هل يضيع الحظ السعيد

فى امتلاك منطقة من قلبها الخفاق ، وكيف وهى لاتزال طفلة وأنا
أومن بأن المرأة لاتستطيع أن تنقل القلب من مكان إلى مكان إلا
بعد الثلاثين ؟ ،

هاك ، يا صديق ، صورة الأنسة آمال :

فتاة غريرة بكلية الحقوق ، لها وجه أسمر يشهد بأن السمرة قد
تكون أكثر جاذبية من البياض ، ولها لسان عذب يرشحها لأن
تكون أفصح الفتيات ، ولها فم يضمن كنزاً ثميناً ، ففيه ثنايا أولوية
قليلة الأمثال ، وبالرغم منى أن أصرح بأنى لأملك التغزل بتلك الثنايا
اللؤلؤية ، لأن والد تلك الفتاة من أساتذتى ، ولأساتذة على
تلاميذهم حقوق ، وإن كنت لا أدرى كيف يكون التغزل من
المحرمات .

والآنسة آمال على جانب عظيم من الذكاء ، وما يسرنى أن
أشهد لها بذلك ، ولكنى مصور أمين .

وهى تجلس على المائدة فى المكان الذى يقابل مكان أبيها فلا
تدرى لمن الصدر : أهو الأستاذ العشماوى أم الآنسة آمال
ولو كان أبوها من أهل الغطرسية لقلت إن المقادير تنتقم منه
فتحكم فيه طفلة لا تملك غير صباحة الوجه وسلامة الذوق وقوة
الذكاء ، ولكنه رجل يمثل الأدب وطيبة القلب ، فكيف جاز أن
تتحكم فيه تلك الطفلة السمراء ؟ .

ومن خصائص تلك الفتاة أنها تحب أباهاً حباً شديداً ، ولكن محبتها إياه تتمثل في التمرد والعصيان ، فهل تدرك بفطرتها أنه كان من عبيد الجمال في صباه ؟ .

ولهذه الطفلة التي أبغضها غرام عجيب بتعقب آثار الكتاب والشعراء والمؤلفين ، وقد أرغمتني ساعها الله على أن أقدم إليها جميع الجرائد العراقية ، فتكلفت في ذلك ما تكلفت ، وكنت أحسب أنني سأشغلها يوماً أو يومين ثم هالني أن تستوعب ذلك المحصول كله في نصف ساعة ، وأن ترهقني في بقية السهرة بنقد صحافة العراق . والآنسة آمال نحيفة جداً ، وربما كان السبب في ذلك أنها قضت أربعاً وعشرين ساعة في طريقها من الشام إلى العراق فسرقت نخافة الجسم من غزلان الصحراء .

والعجيب من أمر هذه الآنسة أن تكون من أعضاء المؤتمر الطبي ، فهل رأيتم أغرب من ذلك ؟ .

فماذا تريد أن تصنع ؟ هل تشترك في الطب للأكباد والقلوب ؟ . أحب أن أعرف ماذا تصنع هذه الفتاة في المؤتمر الطبي وقد كوت كبدى ، كوته بالغيظ لا بالحب ، فاست من المجانين حتى تفتنى فتاة لا تملك غير قوة الذكاء وحلاوة الحديث ، وإن شهدت ملاحظها بأنها ستكون من غرائب الجمال .

أما بعد فقد آذنتى تلك الآنسة أعنف إيذاء ، حين رفضت أن

تعطيني صورتها ، فلتعرف الآن أنى أكرم منها وأسمح لأنى أقدم
إليها صورتها بلا ثمن ، وكل ما أرجوه أن تغتابنى فى حضرة أبيها ،
لأنى أحب أن أذكر عنده ولو بلام
آمال ، آمال

لا تغضبى ولا تعبى ، فلن تفرغى من دروسك العالية فى كلية
الحقوق ولن تبلغى مبالغ النساء حتى يكون اسمى (بابا زكى) وأنا
منذ اليوم (بابا) له زوجة وخمسة أبناء .

فيا أيتها الفتاة الغالية ، ويا قرة العين لرجل هو أكرم أساتذتى وأعز
أصدقائى ، تذكرينى حين تعودين إلى الجامعة المصرية ، تذكرينى أنى
أحب أن أقبل تلك الجدران ، وأنى أتشهى أن أكل عيني بتراب
الجيزة والزمالك ، تذكرينى يا آمال أن الدمع يفيض من عيني كلما
تذكرت أن لى طفلة لها وجه مثل وجهك الجذاب ، ولها جبين
مثل جبينك المشرق ، وفى شمائلها عناد مثل عنادك المحبوب ، تذكرينى
أيتها الفتاة أتى رأيت وجه مصر الغالية حين رأيت وجهك الغالى ،
تذكرينى أتى عذرت أباك حين رأيت يعطيك طاعة المحب لمن يحب ،
فلى أبناء كنت عند هواهم فى جميع الأحوال .

اعذرينى أيتها الأنسة النبيلة إذا قدمت صورتك لجريدة عراقية
فمن الخير للمرء أو المرأة أن يذكر ولو بالشر فى أرض العراق
حفظك الله لو الديك ، ورعى إخوتك الأعزاء ، والسلام .

دروس الادب

في المعاهد العالية

المعروف أن المعاهد العالية للتخصص : فهذا معهد يخرج
الاطباء ، وذاك معهد يخرج الرياضيين والمهندسين ؛ وذلك معهد
يخرج رجال الأدب أو رجال التشريع .

والتخصص من مزايا هذا الزمان ، ومن آفات هذا الزمان
هو من المزايا لأنه يقصر طوائف من الناس على طوائف من
العلوم ، فنعرف إلى من توجه ومع من تتحدث ، فيذهب من
يشكو الرمد إلى طبيب العيون ، ويمضي مهيبض الساق إلى الجراح ،
ويتوجه الممعود إلى الطبيب المختص بالأمراض الباطنية ، وكذلك
يفعل من توجه معضلة هندسية ، أو مشكلة قانونية .

وهو من الآفات لأنه يورث الناس ضيق الذهن ، وفقر العقل
وخمود الإحساس ، فالمهندس لا يرى من واجبه أبداً أن يفكر في
تهذيب ذوقه بالنظر في بعض المؤلفات الأدبية أو الفنية ، والمشرع
لا يرى من واجبه أبداً أن يحرص على تثقيف عقله بالنظر في بعض
المصنفات الرياضية أو الطبية ، والأديب يرى أنه لم يخلق إلا
لدرس آثار الشعراء والكتاب والوقوف على ألوان الأساليب .

وقد اتهم المتخصصون فرصة الغفلة الفاشية في هذا العهد فأعفوا
انفسهم من كل ما يعود بالنفع على الذهن والعقل والذوق ، فصار
الأديب يجالس الطبيب فلا يحس أنه يخاطب رجلا من أهل هذه
الأرض ، وإنما يخاطب مخلوقا من سكان المريخ ، وصار أستاذ
الأدب ينسك على طلابه أن يوجهوا إليه سؤالا في مشكلة نحوية
أو صرفية ، لأنه فيما يزعم غير مشغول عن علوم المبرد والكسائي
وسيبويه ، وإنما هو رجل تخصص في درس آثار الكتاب
والشعراء والخطباء ، وصار المحامي أو القاضي لا يسوءه أن يجهل
الأوليات من المسائل الأدبية أو العلمية .

* * *

ذلك تصوير لمزايا التخصص ومساويه ، وتصوير لأحوال
التخصصيين في هذا الزمان .

وأقول بصراحة إنني تأثر على التخصص الذي يصل بأصحابه إلى
ذلك الحد من ضيق العقل ، وقد حملت على هذا الضرب من
التخصص أعنف الحرب ، وكلفت نفسي ما تطيق وفوق ما تطيق في
الطواف بعلوم كثيرة كان لها أثر ظاهر فيما أخرجت من المؤلفات
الأدبية والفلسفية ، وأحب أن يكون طلاب العلم والأدب في هذا
الزمن من الثائرين على الإسراف في فهم التخصص ومن المقبلين
على المشاركة في جميع الفنون ، وإليهم يساق البيان :

كان أقطاب العلماء في الزمن القديم يجهلون التخصص ، أعني
أنهم لم يكونوا يقصدون إليه قصداً ، وإنما كانوا يتتهون إليه وفقاً
لوحى الفطرة والطبع ، فالعلماء الخالدون من أمثال أرسطاطاليس
وأفلاطون وابن سينا والفارابي وابن رشد والجاحظ وابن خلدون
والقلقشندي ومحمد عبده وعبد العزيز جاويز ، هؤلاء العلماء في
التاريخ القديم والمتوسط والحديث لم يكونوا يعرفون التخصص ،
وإنما كانوا يفهمون أن من واجبهم أن يطلعوا على ما يمكن
الاطلاع عليه من المعارف الإنسانية .

ولا يجهل أحد أن أمثال أولئك العلماء كانوا على جانب عظيم
من التفوق والبصر بحقائق الحياة .

وقد أشرت إلى أنهم انتهوا إلى التخصص بوحى الفطرة والطبع
ولم يسمحوا لأذهانهم وعقولهم بأن تنصرف عمداً عما تتطلع إليه
الأذهان والعقول ، فكان لثقافتهم الواسعة أثر فيما تخصصوا فيه ،
وكان اطلاعهم الشامل يفتح لهم فيما تخصصوا فيه أبواباً للبراعة
والسبق والتفوق .

وهل يستطيع المتحذلقون من شبان اليوم أن يفقهوا كيف
كانت ثقافة ديكارت وباسكال ؟
وهل فيهم من يدرك كيف كانت ثقافة سبنسر أو كيف كانت
معارف أناطول فرانس ؟

وما أدعو إليه اليوم كنا حاولناه مرة في الجامعة المصرية ، ثم أخفقتنا بفضل الخذلقة التي تغلب على شبان هذه الأيام ، فقد كان تقرر أن لا يدخل الطالب كلية الحقوق إلا بعد أن يمضى سنتين في كلية الآداب ، وأن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يمضى سنة في كلية العلوم ، وسارت الجامعة المصرية على هذا النظام أعواماً قليلة ، ظهر أثرها في طوائف من المحامين والأطباء . ثم أسرف الطلبة في الصرخ فأعفتهم الجامعة من ذلك النظام المفيد ، ومن الواضح أن ذلك النظام كان في جوهره حرباً على الإسراف في فهم التخصص ، فقد كانت الجامعة تفهم أن طالب الحقوق لا يمكن أن يبرع في فهم أسرار القوانين إلا إن أمضى سنتين في كلية الآداب يدرس فيهما علوم اللغة العربية وعلم النفس وعلم الأخلاق ويتعمق بعض التعمق في اللغات الحية وفي الجغرافيا والتاريخ وكانت الجامعة تفهم أن طالب الطب لا يعتمد عليه إلا إن أمضى سنة في كلية العلوم يدرس فيها الطبيعة والكيمياء والرياضة درس الفهم والتثبت ليكون في المستقبل من الأطباء العلماء .

ونحن اليوم نحاول أن نضع للحياة العلمية في العراق أصولاً من التقاليد الصالحات ، فهل ترون من الخير أن نحقق ما عجزت عن تحقيقه الجامعة المصرية ؟

ما الذى يمنع من ذلك ؟ أفى الحق أن وزارة المعارف العراقية
قد تلابن الطلبة كما صنعت وزارة المعارف المصرية ؟

ولكن إلى أن يتحقق ذلك الغرض المنشود أرى أن يفرض
درس الأدب العربى على جميع الطلاب فى المعاهد العالية ، وإليكم
موجبات هذا الاقتراح

أولاً — نحن فى العراق نحاول جهد الطاقة أن نعيد مجد
الأسلاف فى حياتهم العلمية والأدبية والفلسفية ، وكان أسلافنا
جميعاً معروفين بالتفوق فى اللغة العربية . فما كان فيهم طبيب ولا
مهندس ولا مشرع إلا وله آثار نظمية ونثرية تشهد ببراعته فى
الأدب والبيان .

ثانياً — نحن نحاول نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية : وهذا
يوجب أن يكون الرياضيون والمهندسون والمشرعون والأطباء
قادرين أتم القدرة على التعبير باللغة العربية تعبيراً يذكّر بـ ابن سينا
وابن رشد وابن البيطار والغزالي والكمال بن الهمام وإمام الحرمين .

ثالثاً — سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مدرسين فى
المدارس الثانوية والمعاهد العالية ، وهؤلاء لا مفرّ لهم من أن
يشعروا تلاميذهم بأنهم يتكلمون لغتهم العلمية ، كما يتكلم المدرسون
الأوروبيون لغتهم العلمية .

رابعاً — سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مسئولين عن تثقيف الجمهور ، وهذا الجمهور لغته العربية ، وهو في بعض أحواله يفهم لغته بأدق مما يفهمها المتحدثون من شبان هذا الزمان .

* * *

أما بعد فانه من العيب أن يقع ما عبتة مرة على أستاذ مصرى ألف كتابا في علم النفس فكانت مراجعته كلها إنجليزية ، ولم يشر مرة واحدة إلى رسائل إخوان الصفاء ، مع أن في تلك الرسائل كثيرا من أمهات المسائل في علم النفس وعلم الأخلاق .

ومن العيب أن يقع ما سمعت من أن مكتبة كلية الحقوق في بغداد ليس فيها نسخة من شرح فتح القدير على الهداية ، ومن العيب أن يستغرب بعض الطلبة في دار المعلمين العالية أن أكلفه درس مسألة فقهية ، مع أن الفقه جانب من الأدب يصور مشكلات المجتمع في الحواضر الإسلامية .

ومن هذا يرى القراء أن أفق الأدب أوسع مما يظنون ، وأنه واجب كل الوجوب في تثقيف جميع الطلاب .

الفن المصرى في العراق

صديق

أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر بالحمد الجزيل تلك التحية
النبيلة يوم حضرت ومعك جميع الأساتذة المحررين بالصباح لتوديعي
بمحطة القاهرة يوم الرحيل إلى العراق .

وبعد فقد كان في النية أن أحدثكم عن معركة أدبية أثارها مجلة
الصباح في بيروت ولسكني اليوم أسارع فأحدثكم عن الفن المصرى
في العراق ، وأؤجل الحديث عن تلك المعركة إلى حين .

وأرجو ألا تدهش حين ترانى أتحدث عن الفن المصرى بروح
العطف ، فقد علمتني الغربة أشياء كثيرة ، أهمها التلطف في الحديث
عن المواطنين الأعزاء ، وهل تصدق أن اسم الدكتور طه حسين
لايجرى على لسانى في بغداد إلا معطراً بأطيب آيات الشاء ؟ هل
تصدق أنى أقول في بغداد إن الدكتور طه حسين أديب عظيم وإنه
دان الأدب العربى أثقل الدين ؟

ذلك أدب تعلمته في الاغتراب ، فقد رأيت أن الرجل الكريم
لايليق به أن يذكر مواطنيه وهو غريب إلا بالخير ، ولا ينبغى له
أن يتحدث عن قومه بغير الشاء .

وأعود فأقول : إن أغاني أم كلثوم هي اليوم أجمل زاد يتزود به
أهل الوجدان في العراق ، فحيثما حللت ، وحيثما تلفت ، سمعت
صوت أم كلثوم ، فهذه المطربة المصرية هي في هذه الأيام الريحانة
الندية التي تشتاقها الأرواح والقلوب في جميع أرجاء العراق .
وقد جلسنا نسمر منذ ليال مع الأستاذ فؤاد جميل ~~س~~كرتير
الإذاعة بوزارة المعارف فقال :

سنفاجئكم بعد ليلتين بأعجوبة ترتاح لها النفوس والأذواق !
فقلت : وما عسى أن تكون تلك المفاجأة يا صاح ؟
فقال : ستكون السهرة كلها في إذاعة أغاني نشيد الأمل للأنسة
أم كلثوم .
وكان خيراً ساراً فرح به السامرون .

* * *

فإن سألتكم : وما هي الأغاني الكلتومية التي يطرب لها العراقيون
في هذه الأيام ؟
فإننا نجيب بأن لأم كلثوم صوتين يذاعان مرات كثيرة في كل
يوم ، أما الصوت الأول فهو الدور المحبوب :
« على بلد المحبوب وديني »
وهذا الدور صار من الأدوار الشعبية في العراق ، فهو على

ألسنة الفتیان والفتیات وعلى ألسنة الصناع والتلاميذ، وهو ملهاة
الشباب والكهول في بغداد، فإذا رأيت ناساً متجمهرين أمام قهوة
أو سينما أو مرقص فاعلم أنهم لم يتجمعوا هناك إلا لأن أم كلثوم
تقول في صوت ناعم حزين :

يا مسافر على بحر النيل أنا لیتہ فی مصر خلیل

من حبه ما بنام الليل

أما الصوت الثاني فهو دور «إفرح يا قلبي»

وأهل العراق يعجبون بهذه المعاني :

«أقطف معاه زهر الحياه مادام هواك وافق هواه»

وأنا أيضاً معجب بهذه المعاني ، وليكن أين الأحباب ؟ وأين

أصفياء الروح الحزين ؟

* * *

أنتقل بعد هذا إلى لون آخر من الفن المصرى وهو الفن

السينمائي ، ففي هذه الأيام تعرض في سينما الحمراء رواية المجد الخالد

وهو الفيلم الناطق الذى أخرجه الممثل يوسف وهبى ، فهل

تصدقون أن هذا الشريط أسر مشاعر البغداديين ، وهل تصدقون

أن فيهم من يقترح على الحكومة المصرية أن تخرج منه نسخة

أوروبية على نفقاتها ثم تذيعه في العالمين ليرى أهل المشارق

والمغرب كيف يؤمن الناس بالوطنية في أرض الفراعين ؟

وقد نشرت جريدة البلاد مقالا لكاتب اسمه إبراهيم المعروف
قال فيه :

« عرضت أمس هذه الرواية الطريفة ، السامية المعنى ، وبالرغم
من سعة الصالة فقد غصت بالمتفرجين من كافة الطبقات ، فبلغ
الازدحام أشده ، وكنت ترى الجماهير الغفيرة تزدهم على أبواب
الجمراء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال . أما موضوع الرواية
فلا أريد أن أتحدث عنه ، إذ يكفي أن تكون هذه الرواية من
تأليف نابغة التمثيل العظيم الأستاذ يوسف وهبي ، ولا إخال أحداً
يجهل هذه الشخصية الفذة التي تجتمع فيها كافة عناصر الفن
والعبقرية الخالدة . . . فنشكر إدارة الجمراء كل الشكر لجلبها
أمثال هذا الفيلم الرائع الذي يمكن الاستفادة منه لما فيه من
العظات والعبرة والدروس الوطنية العالية » .

تلك كلمة قصيرة عن الفن المصرى فى العراق ، سنتبعها بأمثالها
كلما لاحت فرصة ، والسلام .

زكى مبارك في لبنان

صديقى

تحيتى إليك وإلى شارع الهرم ومصر الجديدة والزمالك
وشارع فؤاد.

وبعد فقد كانت جريدة المكشوف نشرت كلمة طيبة تحت
عنوان « الدكتور زكى مبارك فى طريقه إلى العراق » ثم لخصها
الكاتب المفضل الذى محرر الصفحة الأدبية والاجتماعية فى
الصباح ، ولكن ظهر أن تلخيص تلك الكلمة لم يرض كاتبها
الأول فاندفع يهجم على الصباح وعلى الدكتور زكى مبارك فى
جريدة المكشوف بأسلوب غير مقبول .

فاسمحوا لى وأنا محور هذا الجدل أن أزن المسألة بميزانها
الصحيح فأقول :

لم تكن ظروفى فى مصر تشجعنى على السفر إلى العراق فقد
كنت شرعت فى طبع كتاب التصوف الإسلامى ، ولكن أصدقائى
فى مصر خوفونى عواقب الرفض ، وقالوا إن خصومك
سينعمون أنك غير صادق فى الدعوة إلى الأخوة العربية ، فهاج فى
نفسى غرام العروبة وأجبت الرغبة النبيلة التى أعلنتها الحكومة

العراقية ، ونظرت فرأيت زملائي من الأساتذة المصريين يعبرون الوصول إلى العراق من أقرب طريق فأبيت مرافقتهم وصممت على المرور بالبقاع الكريمة : فلسطين وسورية ولبنان .

ولما نزلت بيروت قضى الحظ السعيد أن أرى أديبين فاضلين هما روى فيصل وأحمد شبلي ، فلقيت منهما كرما لا يستغرب من أهل لبنان ، ثم مضيت فسلمت على من استطعت التسليم عليه من رجال القلم والبيان .

وما كدت أقضى أسبوعا واحداً في بغداد حتى تلقيت نسخة من جريدة المكشوف وفيها كلمة طيبة عن الدكتور زكي مبارك ، وفي ذيلها عنوان الكاتب الأديب ، ومضت أسابيع وجاء عيد الفطر فجاءتني تحية كريمة من ذلك الكاتب ، فأخذت أستعد لكتابة خطاب أشكر له فيه ذلك الفضل الذي لا يستغرب من أهل لبنان . وقبل أن أضع الخطاب في صندوق البريد تلقيت نسخة جديدة من جريدة المكشوف فرأيت ذلك الكاتب نفسه يهجوني ويهجو مجلة الصباح ، مع أنه تلقاني في بيروت على غير معرفة سابقة بأحسن آيات الترحيب .

والآن أسأل نفسي : أفى الحق أن الذين يهجونني في لبنان هم أنفسهم الذين أكرموني في لبنان؟ وهل فسدت الدنيا إلى هذا الحد فينتقل المرء من الصداقة إلى العداوة في أسبوعين ؟

أفى الحق أن المودة فى لبنان مودة عابرة كسحابة الصيف ؟ أفى
الحق أن الأديب الذى تلقانى مرحباً فى جريدة المكشوف هو
نفسه الذى نشر الهجوم على زكى مبارك ومجلة الرسالة ومجلة
الصباح ؟

اسمع يا صديق

إن هذه التقلبات تغزو قلوبنا بالحسرة على ما صارت إليه آداب
الناس فى البلاد العربية ، ولكن لا تحزن ولا تجزع ، فأولئك الناس
لا يمثلون البلاد العربية ، وإنما يمثلون أشخاصهم الفانية ، وقد
لقيت فى بغداد رجالاً كادوا ينسوتنى وطنى وأهلى ، وذلك الكاتب
نفسه يعترف بأن الصباح له فى بيروت قراء مدمنون ، والإدمان
على قراءة المجلات المصرية هو فى ذاته تمجيد للبلاد المصرية .

اسمع يا صديق

إن مصر تنفق ألوف الدنانير فى كل أسبوع لنشر اللغة العربية
فهى تتحمل تضحيات فى سبيل العروبة يعرفها كرام الرجال ، فلم
يبق إلا المغرم الهين وهو أن نحتمل الأذى فى هذه السبيل .
وأنا بالرغم من كل ما حدث أذكر الذين لقيتهم فى لبنان بكل
جميل ، رعاية لعواطف صادقة عانيت فى سبيلها ما عانيت ، ورعاية
لإخوان أعزاء يسوءهم ألا أكون من المحبين لذلك البلد الجميل ،
والسلام عليهم وعليك من ضيف العراق . (٧)

الجامعة العراقية

لقد آن للمفكرين في العراق أن يسألوا أنفسهم عما صنعوا في
سبيل الجامعة العراقية ، فإنني أخشى أن يطول أمد النريث
والتسويق فتمر أعوام وأعوام قبل أن يتحقق هذا المشروع الجليل
ولقد يكون عجيباً أن يوجد ناس يحتاجون إلى من يقنعهم
بوجوب إنشاء جامعة في بغداد ، فهذا أمر كان يشير الجدل في مصر
منذ خمس وثلاثين سنة ، ومعاذ الأدب أن يثور الجدل حوله في
العراق بعد أن تمتع بالاستقلال

ولكن الأعبأ أن لا تجد هذه الحقيقة على وضوحها من يتحمس
لها تحمسا قوياً فينقلها من عالم الفكر إلى عالم الوجود
الأعجب هو أن يصبر ناس على حرمان بغداد من حظ أدبي تتمتع
به جميع العواصم في العصر الحديث .

قد تقولون إن الجامعة العراقية موجودة بالفعل ، بدليل ما في بغداد
من المعاهد العالية ، وأنا لا أنكر ذلك . ولكنني أؤكد أن الصورة
التي أنشدها تختلف عن الصورة الموجودة أشد الاختلاف .
وإليك البيان :

عندنا مثلاً دار المعلمين العالية ، وهي معهد عال بالتأكيد ، ولكن

شخصيتها ستقوى وتستفحل حين تصبح كلية من كليات الجامعة العراقية ، وستصبح أيضا في أمان من التقلبات ، فلا تكون مرهونة بإعداد من نحتاج إلى إعدادهم من المدرسين فتفتح مرة وتغلق مرة وفقاً للظروف ، وإنما تظل كلية ثابتة تجاهد في سبيل الآداب والعلوم والفنون .

وستتغير أيضا نفسيات الطلاب ، فلن يكونوا كالطلبة الذين نعرف وتعرفون ، لن يكون همهم أن يصاحبونا ثلاث سنين محدودة المواقيت ليظفروا بمناصب التدريس في المدارس الثانوية ، ثم يذهب نشاطهم العقلي فلا يكون فيهم باحثون ومؤلفون .

نريد إنشاء الجامعة العراقية لتغير هذه النفسيات ، فقد أصبح من الواجب أن يفهم أبناؤنا أن التعليم العالي ترخص في سبيله السنون الطوال ، أصبح من الواجب أن نفهم جميعاً أنه لا مفر من أن يكون عندنا مئات من الشبان المثقفين ثقافة عميقة بحيث نستطيع أن ننتفع وننتفع بتبادل الأساتذة مع كبار الجامعات

في العراق اليوم عدد من الرجال الذين كانوا أنفسهم ، ولكن هؤلاء في الأغلب يشغلون مناصب إدارية تحول بينهم وبين الانقطاع للتدريس والتأليف ، وهم قد نشأوا في جيل غير هذا الجيل ، نشأوا في زمان يعرف قيمة اللذة العقلية ، ولن يسمح الدهر بوجود

نظائرهم مرة ثانية ، لأن المغامر المسادية صارت أكبر ما يتطلع إليه
شبان هذا الزمان .

فلا بد من التفكير الجدى فى تهيئة جو جديد تتنفس فيه المطامع
العلمية والأدبية ، لا بد من فتح آفاق جديدة تنسم هواءها عزائم
الشبان الذين يسرهم أن يكونوا من أقطاب العلم والبيان .

إن العراق لا ينبغي له أن يصبر طويلاً على القناعة العقلية التى
يعيش فى ظلالها شبان هذه الأيام ، إن العراق سيتذكر دائماً أنه
كان فى طليعة الأمم التى أحيت العلوم والآداب والفنون ، وسيطالب
أبناءه بأن يرفعوا رايته بين رايات الأمم التى تواجه العصر الحديث
بما هو أهله من القوة والطراقة فى المذاهب والآراء .

ولكن كيف ننشئ الجامعة العراقية لنحسن إنشاء الجيل الجديد؟
يخيل إلى أننا لن نواجه المصاعب التى واجهتها مصر حين أنشأت
الجامعة المصرية ، فقد كان الجمهور فى مصر سنة ١٩٠٦ ينقسم إلى
فريقين يقال لأحدهما أمة ولثانيهما حكومة ، وكانت حكومات تلك
العهود تراعى ذوق الاحتلال ، والاحتلال لم يكن يسره أن يكون
فى مصر جامعة ، وكان يخشى أن تنشأ طوائف من المزودين بالثقافة
العالية ، وهذا الصنف من الشبان يكون شوكة تحز الاحتلال
وقد فطن الفريق الذى يمثل الأمة إلى هذه الحقيقة فأعلن بأسسه من
الحكومة ، ودعا الجمهور إلى الاكتتاب العام لإنشاء جامعة مصرية ،

فلم تمض غير أشهر معدودات حتى صارت فكرة الجامعة المصرية حقيقة واقعية تلمسها الأيدي وتراها العيون .

وقد أتعب المحتلون أنفسهم في حرب الجامعة المصرية ، وتقولوا عليها الأقاويل ، ولكن الجامعة ظلت تكافح حتى انتصرت وعاد خصومها بغنيمة القنوط .

فهل حالنا اليوم في العراق كحال إخواننا المصريين في سنة ١٩٠٦ ؟
ليس في العراق اليوم فريق يقال له أمة وفريق يقال له حكومة ، وإنما هو كتلة واحدة بحيث يستوى الحاكم والمحكوم في التسابق إلى خدمة البلاد .

معنى هذا الكلام أيها القراء : أننا ننتظر أن تكون الحكومة هي القوة التي تنتظر منها المبادرة إلى إنشاء الجامعة العراقية ، وستكون الحكومة بمعونة الله عند ظنكم الجميل

ولكنني أرجو أن تسارع الأمة إلى معاونة الحكومة ، أرجو أن يكون للنواب والأعيان وكبار الملاك والتجار والموسرين يد مشكورة في تأسيس الجامعة العراقية ، أرجو أن يمد الجمهور يده الكريمة لينفخ في هذا المشروع روح الحياة فإنه يحتاج إلى كثير من الأموال

وإني لموقن بأن في أرجاء العراق نفوساً تتطلع إلى المجد ، وهذه فرصة نفيسة يجب اغتنامها ، فليس من القليل أن تسجل أسماء

المتبرعين في كتاب ذهبي يصبح على الزمن من أشرف وثنائق التاريخ
والجمهور الذي أدعوه إلى الاكتتاب لإنشاء الجامعة العراقية
يدخل فيه الوزراء والموظفون ، لأنهم لا يمثلون الحكومة إلا في
دوائرهم ومكاتبهم ، وهم بعد ذلك من صميم الشعب الذي وثق فيهم
وأسند إليهم القيام بجلال الأعمال
فما رأيكم فيما أقترح أيها الصحفيون ؟

ما رأيكم فيمن يدعوكم لنصرة الوطن الغالي ، الوطن الذي تعود
منكم البر والوفاء ، الوطن الذي يعرف أن الصحافة هي قلبه النابض
ولسانه المبين ؟

هل أرجو أن يكون للصحافة الفضل الأول في إنشاء الجامعة
العراقية ؟

هل أرجو أن تدعوا الجمهور إلى الاكتتاب العام بحيث تستطيع
الحكومة أن تبنى للجامعة داراً عالية الشرفات تذكر بدار الجامعة
المصرية ؟

أيها الصحفيون الشرفاء

أنا لا أطلبكم بعمل مرهق ، وإنما أرجوكم أن تشغلوا أقلامكم
بهذه القضية شهرين اثنين ، فإن فعلتم — وستفعلون — فستضعون
الأساس للمنافسات العلمية والأدبية والتشريعية بين جامعة القاهرة

وجامعة بغداد ، وقد آن أن يعرف الجمهور أن المنافسة العلمية هي
السناد الوحيد الذي تنهض به المعارف العربية

أيها الزملاء

تذكروا أن الجامعات ليست من أعمال الحكومات وإنما هي من
أعمال الشعوب ، فادعوا قراءكم وجماهيركم إلى تقديم الهبات والأوقاف
لمشروع الجامعة العراقية ، حتى يقال إن الأمة سبقت الحكومة ، فإن
الحكومات لا تسبق الأمم إلا في عصور الضعف ، ومعاذ الله أن
يكون أهل العراق من الضعفاء

أيها الزملاء

أدعوكم إلى المبادرة لمناصرة هذا المشروع الجليل ، وأنشرف
بتقديم خمسة دنانير تكون فاتحة مباركة إن شاء الله لقوائم
الاكتتاب

أيها الزملاء

هناك تردد في إنشاء الجامعة ، لأن ناساً يقولون بوجوب التفكير
في تعميم التعليم الابتدائي قبل إنشاء الجامعة ، وأقول بصراحة إن
الأمم لا ترقى بفضل انعدام الأمية وشيوع القراءة والكتابة ، وإنما
ترقى الأمم حين توجد فيها صفوة ممتازة تتفوق في العلوم والآداب
والفنون . وكيف يمكن أن يكون انعدام الأمية هو الشاهد على

تقدم الشعوب ونحن نعرف أن هناك ملايين يقرأون ويكتبون
ثم تمر الأعوام وهم غافلون لا يطلعون على شيء ؟

إنما تنهض الشعوب حين يكون فيها مئات لا ملايين يسايرون
روح التقدم في الشرق والغرب ويقودون بلادهم إلى التفوق
والسبق في الميادين العلمية والاقتصادية والاجتماعية

إن الغرض من هذا الاكتاب هو بناء دار الجامعة العراقية ،
ليشعر الشعب بأنه استطاع أن يقيم شاهداً على صلاحيته لحياة
الفكر والعبقرية، ويؤكد لا ترى الحكومة بدأمن استصدار مرسوم
ملكى بإنشاء الجامعة وتكوين ما يحتاج إليه العراق من مختلف الكليات
أيها الزملاء

إن العراق يفيض بالشعر ، وليكن هناك قصيدة نحب أن نسمعها
في العراق ، قصيدة كالتى سمعها أهل مصر منذ أكثر من ثلاثين عاماً ،
حين تقدمت الأميرة فاطمة هانم إسماعيل نخلعت جمع حلبيها وقدمتها
هدية لبناء الجامعة المصرية ، ومن المؤكد أنكم ستجدون في العراق
قصائد من هذا النوع ، ستجدون نديلات يقدمن حلبيهن لبناء
الجامعة العراقية ، وستجدون من أعيان الأولوية رجالاً كرماء
يزينون صدر بغداد بدار عظيمة تكون ملاذ العقول في عاصمة
الرشيد .

أخت بغداد والاستاذ محمود عزمي

صديقي

نشرت مجلة الدنيا كلمة طريفة عن إصابة الاستاذ محمود عزمي بأخت بغداد، وأخت بغداد الطريفة اللطيفة هي قرحة تترك بالجسم وسما طريفا لطيفاً يتميز به أهل العراق .

وقد شاء صديقنا الاستاذ طاهر الطناحي أن يداعبني في كلمته الطريفة فقال :

«وبقي دور صديقنا الدكتور زكي مبارك ، ولا بد أن يكون له نصيب إن شاء الله من « أخت بغداد » وأغلب ظني أن لدغته لن تكون إلا من أنثى ، لأنه شاعر وله شهرة في الغزل بالجنس اللطيف تحبب هذا الجنس فيه ولو كان من البعوض ، .

ولكن إصابة الاستاذ محمود عزمي بأخت بغداد لها تاريخ يستحق التسجيل . وإليك البيان :

كان طلبة كلية الحقوق في بغداد أقاموا حفلة تكريم للكشافات السورية ، وفي تلك الحفلة أقيمت خطبة ، فلما وقف الاستاذ عزمي ليلقي كلمة الختام نوه بخصائص الحفلة فقال : «وتمتاز هذه الحفلة

بأنها أول حفلة للشباب اندس فيها خطيب كهل هو الدكتور زكي مبارك .

فقدت عليه ، وانتظرت الفرصة للانتقام ، وأنا فيما يظهر رجل حقود !!

وبعد أسابيع أقام لي أفاضل الأدباء في بغداد حفلة تكريم ، وشاء كرم الأستاذ عزمي أن يشرقي بخطبة يلقاها في ذلك الاحتفال . ورأيت الفرصة قد سنحت للانتقام منه بلباقة سحرية فقلت مامعناه :

أرجو أن يعذرني أهل العراق إذا عجزت عن الوصول إلى قلوبهم على نحو ما صنع الأساتذة المصريون ، فهم أوفر مني علما وأدبا ، وفيهم رجل سبقني إلى الدنيا بأكثر من خمسين عاما ، وهو الأستاذ محمود عزمي .

وفي اليوم التالي نشرت خطبتي بجريدة البلاد ، وصدق أهل العراق أن الدكتور عزمي يكبرني بخمسين عاما ، ولم يروا في هذا ما يوجب الاستغراب ، لأن الدكتور عزمي أشهر مني ، وأقدم مني ، وأنا أستاذ وهو عميد .

وبعد أيام من ذلك التاريخ كنا مدعوين لتناول الشاي عند سعادة الأستاذ ساطع الحصري وكان في المجلس معالي الأستاذ رستم حيدر ، وجرت بيني وبين الأستاذ عزمي مناقشة قلت فيها بترفق :

من واجبي يا سعادة الأستاذ أن أتلف معك رعاية لسنك ١١ .
وكانت دعاية ثقيلة توجع منها معالي الأستاذ رستم حيدر ، لأنه
من سن الأستاذ عزمي .

* * *

ثم شاءت المقادير أن تلوح الفرصة التي ينتقم بها الأستاذ عزمي
فقد أصيبت رقبته بأخت بغداد ، وأخت بغداد مرض لا يصاب به
غالباً إلا الشبان ، فمضى يقول في الأندية والمجالس : إن إصابتي
بأخت بغداد هي الدليل على شبابي ، وما أظن الدكتور زكي
مبارك يصاب بها لأنه كهل .

واليوم أضع الأمر في نصابه فأقول :
إن الأستاذ عزمي يغالط ، ويغالط ، ثم يغالط .
هو يعرف أنني أصبت بأخت بغداد منذ أول يوم تنسجت فيه
هواء بغداد ، فإن كان يجهل ذلك فليتكز أنى ابتليت بهوى ليلى
المريضة في العراق .

شاعرية زكي مبارك

ياسيد فؤاد

ما هذا الذي تصنع ؟

إنى لأزال أبحث عن لحظة فراغ لأنقض تعليقاتك على مقالتي
الماضية ، وسترى كيف أرجع إليك رجعة السيل ، فإن عندي
كلمة قاسية لا يجرؤ على كتابتها رجل غيرى ولا يجرؤ على نشرها
رجل غيرك .

وأبادر الآن بهدم ما نشرتموه لأحد الأدباء من الاستخفاف
بشاعرية زكي مبارك . وما كان يهمنى أن أهدم ما بنى ذلك الأديب
فمثلى يحب أن تكون للناشئين أوهام وأحلام ، ولكنى خشيت أن
يصدق القراء كل ما ينشر فى مجلة «المكشوف» وقد وقع ما خشيت .
فقلت ما نشرتم جريدة «الرأى العام» فى بغداد .

والطريف فى هذه القضية أن تنشروا أكثر من خمس مقالات فى
الرد على الأنسة نجلا عبد المسيح لأنها وقعت فى أكبر خطيئة حين
قررت أن رأيها فى الدكتور زكي مبارك لا ينقض بسهولة !

وكان الظن بأدبكم أن لا تشجعوا القراء على مناوشة تلك الفتاة .
فالدكتور زكي مبارك هو صاحب كتاب النثر الفنى الذى لم تعرف

مثل اللغة العربية ، لا في القديم ولا في الحديث ، ولا تؤاخذني ،
ياسيد فؤاد ، فليست بالرجل المغرور ، وسيأتي يوم تنظر فيه كتاب
النثر الفنى وتعرف أن الدكتور زكى مبارك دان اللغة العربية بذلك
الكتاب ، وعند الله جزأى .

لا تؤاخذني ، ياسيد فؤاد ، بأنى أشعر بالآلم اللاذع حين يحىء
كاتب من كتابكم فيسمنى «أمير الشعر والبيان» على طريق السخرية
ولو كنت سلكت المسالك التى تعرفون لكنى اليوم من أقطاب
الوزراء واسترحت من إمارة الشعر والبيان .
وأنا والله غير نادم على ما اخترت لنفسى من مذاهب الحياة ،
ولكننى أعانى مضاضة اللوعة كلما تذكرت أن جهودى فى خدمة
الأدب العربى لم تجدد من يحفظ الجليل .

أترك هذه الشجون وأدخل فى لباب الموضوع فأقول :
إن الناقد اعترض على التسمية الفرنسية للديوان لأنى سميتـه
(Poèmes Erotiques) .

ولو كان درس علم البيان فى حدائـته أو فى صباه لعرف كيف
يندرج الجزء فى الكل ، وأكتفى بهذه الإشارة راجياً أن يعود
«فيذاكر» علم البيان :

ثم وقف حضرته عند قول زكى مبارك :
أطوف بالحسن تصبينى بدائعه : كما يطوف معنى القلب بالدمن

فلا تشير مغانيه ونضرته في ظل ذكراك غير الهم والحزن.

فقال : إن الدمن هي المزابيل .

وأنا ياسيد فؤاد لم أكن أعرف أن الدمنة هي المزيلة ، وهل

كانت كذلك في قول صاحب المعلقة المشهورة :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتمشلم

هل كانت الدمن هي المزابيل في قول الشريف الرضى :

دع من دموعك بعدالبين للدمن غداً لدارهم واليوم للظعن

وهل كانت الدمن هي المزابيل في قول أبي نواس :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم

تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الإقواء ثوب نسيم

وهل كانت الدمنة هي المزيلة في قول ابن سنان الخفاجي :

خليلى قد عمّ الأسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلي ودورها

فلا دار إلا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها

أنا ياسيدى شاعر ، رضيتم أم كرهتم ، والدمنة في كلام الشعراء

الحضريين والبدويين هي الدار العافية ، فاسألوا عن صنعة ذلك

الناقد لتعرفوا كيف جاز له أن يسمى الدمن مزابيل . وما أحب

أن أزيد !

ثم ماذا ؟ ثم اعترض حضرته على قول زكى مبارك :

لولا مثالك في باريس المحه في طلعة البدر أو في نضرة الفن

ما صافح النوم أجفاني ولا احتملت

جواني ما أثار البين من شجن

واستغرب أن يكون للعاشق عزاء في الأقسام والأفنان .

ويظهر أن هذا الأديب الناشئ لم يطلع على كتاب «مدامع

العشاق» ولو كان اطلع عليه لعرف أن الشعراء يتعلمون بالأوهام

وأن جحدراً يقول :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني

نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلموها النهار كما علاني

وعجب حضرته من أن أقول :

نسيت العهد واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين

وقال : « الله ما أبشع هذه الميم في مخاطبة الحبيب ! »

ولو كان حضرته اطلع على كتاب «مدامع العشاق» لرأى أن

هذه الميم تقبّلها أبو صخر الهذلي وهو يخاطب محبوبته فيقول :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

ولو شئت لقدمت إليه ألف شاهد من هذا النوع .

ثم ماذا ؟ ثم رمانى بالسرقة لأنى قلت :

أحبك يا ظلوم ولا أبالي أأكرم في غرامك أم أهان

فإن بخل الزمان بكم علينا فصبراً للذي صنع الزمان

ورأى أنى أخذت هذا المعنى من قول عنترة :

أحبك يا ظلوم فأنت منى مكان الروح من جسد الجبان
مع أن المعنى مختلف تمام الاختلاف ، وهل تكون السرقة
لأنى اشتركت مع عنتره فى عبارة «أحبك يا ظلوم» ؟
إن كان هذا صحيحاً فما رأى هذا الناقد المبتدئ فيما قيل من أن
عند العرب أربعمائة قصيدة تبتدئ بعبارة «بانت سعاد» ؟
ثم عجب حضرة من أن أقول :

لقد أسرفت فى حبي كذلك يفعل الصب
نعم عجب من أن يحاسب الشاعر نفسه على الإسراف فى الحب
كأن الشاعر يحرم عليه أن يرجع على نفسه بعتاب أو ملام .
وتأذى حضرة من كلمة « كذلك » فهل تسمحون بأن أقترح
عليكم أن تبيعوا ما يملك هذا الناقد من حاسة الذرق ؟ إنه يملك
موهبة لو بعتموها لأغنتكم عن مصاييف لبنان !

ثم ماذا ؟ ثم أتعب نفسه فى فهم هذه القطعة :

يا طفلة الحسناء والدرة العصماء
ما طرقت النعسان وخدك الفتان
إلا بقايا الأم ذات اللثات الحميم

أشبهتها فى الدل وجفنها المعتل
وردفها الثقيل وخصرها النحيل

فاستوصفها الحبا واستودعها الربا
فقد تنهى العمرُ . ونال منها الدهرُ

* * *

يا زهرة في العين ونغمة في الأذن
وطفلة في المنظر وغادة في المخبر
لا مستك الغرامُ فإنه ظلامُ

أتعب الناقد نفسه في فهم هذه القطعة ولم يفهمها ، وما أحسبه
سيفهمها إلا بعد سنين ، ولو كانت المصادر تحت يدي لأريته كيف
فهمها كبار النقاد من أمثال الأستاذ عبد الكريم الكرمي أديب
فلسطين .

وقد أراد حضرته أن يقارن بين هذه القطعة وبين قطعة قالها
شاعر لبناني في المهجر ، والموضوع مختلف ولكن الناقد لا يعرف ،
فطفلة المهاجر اللبناني كانت بنت ثلاث سنين ، أما الطفلة التي قلت
فيها قصيدتي فكانت في سن حضرة الناقد حرسه الله ! فإن تفكيره
يشهد بأنه ابن عشر سنين !

وبعد فماذا تريد ، ياسيد فؤاد ؟
أنت بين أمرين : الأول أن تكون سيّ النية ، وهذا ما أستبعده
كل الاستبعاد .

والثاني أن تريد أن أكون محرراً في مجلة «المكشوف» بالمجان

وأنا والله مستعد لمعاونتك فقد شقيت بالقلم كما شقيت ، وأنا
شديد العطف على أصحاب الصحف والمجلات وأسميهم «شهداء
الأقلام» على وزن «شهداء الغرام» كتب الله لك السلامة والعافية
ونجاني من مغالطاتك !

وقد نسيت أن أنص على اسم الأديب الذي نقد ديوانى فى
«المكشوف» فلاذكر أن اسمه حلیم كنعان ولو كان جنى على
نفسه كما جنيت على نفسى حين قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية
حتى ظفرت بإجازة الدكتوراه ثلاث مرات لسميته الدكتور
حلیم كنعان ، ولكنه سخر من أن أكون «دكتوراً» فليكن من
واجبى أن أدعو الله أن يرحمه ما عاش من خطر الألقاب فقد كانت
سبب بلائى .

والسلام عليكم ، وعلى بيروت أيضا !

قرأت ملاحظتكم على الكتاب الذى شرعت فى تأليفه عن
(المجتمع العراقى) وابتسمت حين رأيتم تعجبون ممن يحكم على
الحياة العراقية بعد خمسة أشهر فى بغداد .

ابتسمت لأنكم صدقتم من حكم على أدب زكى مبارك ، مع أنه
لم يصاحبه فى بيروت غير لحظات قصيرة ضاعت بين التسلية
والتحيات .

وقديماً قيل: واحدة بواحدة جزاء
إذا كان الشاعر إلياس أبو شبكه عندكم فسلوه عليه .
وحديثي أحد أعضاء المؤتمر الطبي أن بعض المجلات في لبنان
تغتابني ، فإن كان ذلك صحيحاً فإني أعتمد على مروه تكم في إرسال
ما يكتب عني لأصحح ما فيه من أخطاء ، فقد أكون في ذات نفسي
بريئاً مما يفترى الظالمون .
أراني الله وجوه أنصاري وخصومي بخير وعافية ، والسلام .

غريب الهوى في عيد القمر

أتذكر يا قلبي ؟

أتذكر أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (العيد الكبير) ، وأن أهل سنتريس يقولون : (عيد القمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟
ليت شعري أظّل أهلي وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لى أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبي .
أما أهلى فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديم من وجه أبى ؛ وكان لك أهل يا قلبي ، ولكن أخبارهم غابت عني منذ أزمان . فإن كانت عندك أخبار فحدثني عنهم ، فما أحب لك أن تعيش في دنيائك عيش الغريب !

لا تكتم عني شيئاً يا قلبي ، فما لك في الدنيا آس سواى . أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس في هذا المساء ؟ فما لقيني أحد من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألنى عن صحة ليلي . وما أذكر أبداً أن أحداً سألنى عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القتاتل ويسكتوا عن فجيرة المقتول . والويل كل الويل للمغلوب .

إن ليالى الأعياد ترجعنى إليك يا قلبي .

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفي أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة في حمل المصابيح في الليلة المقمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالآضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً في هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التي دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فإني أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب .

حدثني أين دفنت أحلامك ، فإني أعرف أنك قليل البخت في دنياك . ولو كان لك بخت لمسا جاز أن تبیت مشرد الأمانى في ليلة عيد قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أتذكر ما صنعتُ في سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعي الحب في القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد :

دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان اسمها من

أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمت أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ،
واستقبلتني بوجهه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت :
لابأس ، فهي هـدنة يستجيم فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون
حين يرجع إلى القاهرة : ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن
«عيون المها بين الرصافة والجسر» وقد انخدعت لك فتركتك ترود
مرايح الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها
للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة ، وأسرتك عيون المها
بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقد كان يعز عليّ أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة
لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمى فتصيب ، ولكني ما كنت أحب
أن أحملك جريحاً محطماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبت في تضמיד
جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن
تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل
كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل
النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه
المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتق الله في الناس ؟ من كان يظن
أن ينعدم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلب

غريب لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب

عمزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

* * *

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تَغفُ عيناى . أكذاك تكون ليالى

الاعياد ، يا بغداد ؟ ليتنى أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا

النوم من جفونى ! ليتنى أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فانتقم

منهم أشنع انتقام بتقبييل جفونهم في غفوات الليل !

بغداد !

خذى من نوى ما تشائين ، بل خذى من دى ما تشائين ، فلن

أنسى ما حيت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون : عيون

المها ، على قتلى ؛ فإن من الشرف أن يكون المرء قتيلا المها في

بغداد

إي والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهل تعرف

الظباء التى كانت تعترض طريقى لتصرعنى أتى لا أزال بين الأحياء ؟

أنا أدعوها إلى مناضلتى مرة ثانية ، وموعدنا بهنو أمانة العاصمة
يوم الأربعاء

* * *

أحبابى فى مصر الجديدة والزمالك
ناموا هاتين وادعين ، وانهبوا ماشتم من أحلام الأمانى ،
فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق
أحبابى فى بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يَغِنِ أحداً غيرى حين قال :
وكل محب قد سلا ، غير أنتى غريب الهوى ، ياويح كل غريب

الى ليلي المريضة فى الزمالك

سيدتى

أقدم إلى قلبك النيل أطيب التحيات وأشرف العواطف ،
وأشكر لك تلك الكلمة الرقيقة التى خطتها أمامك اللطاف على
صفحات الصباح . فقد شرحت بها صدرى وأقنعتنى بأن مصر
لا تزال بحمد الله معدن الذوق .

وهذه الغمزة موجهة إلى الشخص الذى تعرفين ، الشخص
الذى اسمه محمد والذى اطمأن إلى غيبتى عن مصر فأخذ يشطح
وينطح على هواه ، والذى اطمأن إلى أنى رجل تقتله الشواغل
العلمية فى بغداد بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه لو أراد ، فهو
يصول وحده ويجول

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا
ومن الغرائب أن يستعين بالكتور سعيد عبده وأن يحتال فى
فى تأليب الأدباء على طبيب ليلي المريضة فى العراق .
ولو كان خصما واحداً لاتقيته ولكنى خصم وثنان وثالث
ولكن لا بأس ، فى يدى قلم أحد من السيف أودب به هؤلاء
«الخناسير» وسوف تعلمين

وأعود إليك ياسيدي فأقول :

إن همك كله انصرف إلى إقناعي بأنك موجودة ، وأنتى زرتك
بالفعل مع محمد وسعيد ، ولكنك لم تذكرى العنوان لا عرف
بالضبط من تكونين ، فقد اشتغلت بطب القلوب سنين عدداً ،
وتشرفت بعيادة نحو سبعين مليحة من ملاح الزمالك ، ويسرنى أن
أسجل أنى كنت دائماً بلسماً شافياً ، وأن الهبة كانت تحل حيث
حللت ، وأن الأفراح كانت تقام فى الأقدرة والقلوب حيث توجهت
فيا سيدتى ، من أنت فى أولئك الملاح ؟ فقد تكونين أجمل من
عرفت ، وأشرف من عرفت ، وأكون نسيت .

وهل يستحيل النسيان على رجل مثلى ؟ لقد عشت دهرى
أتقرب إلى الله بتدليل الملاح ، ولا أدري ماذا أنفقت من مالى ومن
شبابى ، وكل ما أذكر من تفاصيل الحساب أنتى كنت قى كريماً
فلم أعرف الخيانة ولا الغدر ولا النيمة ، ولو شئت لقلت إننى
لم أعص الله قط ، ولكن من يصدقنى ؟ وهل من معصية الله أن
تتغنى بالوسامة والصباحة والجمال ؟

ومعاذ الأدب أن أقول إننى رجل صالح ، فالرجل الصالح هو
الذى لا يؤذى أحداً أبداً ، وأنا قد آذيت الأدباء ، لعنة الله عليهم ،
ولكن يعزى أنتى راعيت الأدب مع الله فلم أقدم أية إساءة إلى
وجه جميل ، أما الأدباء فهم شياطين ودمهم مباح .

سـيـدـتـي

من أنت ؟ ذكريني فقد نسيت

أتكونين تلك الإنسانية التي جلست معي على الشاطئ في ليلة
مقمرة وأعلنت أنها لا تثق بأمانتي ثم بكيت وانصرفت ؟ أأتكونين
تلك الإنسانية التي عبرت معي النيل في زورق ولا متني على عدم
العناية بهندامى ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي كانت تداعبني مداعبة ثقيلة فتثني على
الدكتور طه حسين ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي كان وجهها يتدفق بالنور حين
تراني ، ثم ترفض أن أقبل يديها لتجرب كيف يكون أنس
الروح بالروح ؟

أتكونين تلك الإنسانية التي لطمتني بكتاب مدامع العشاق ثم
داسته بقدمها لأعرف أني عاشق خائن لا يفهم آداب المحبين ؟
أتكونين تلك الإنسانية التي علمت أني مدين فقدمت لي حلها
لأسددها ديوني ؟

أتكونين تلك الإنسانية الغادرة التي انتظرتها ساعة عند محطة
الحمامات بمصر الجديدة لاتزود منها بنظرة قبل رحيلى إلى العراق
ولم تحضر ، واكتفت السفينة ببرقية تهنئتي بها على الوصول سالما
إلى بغداد ؟

من أنت ياسيدتى ؟ من أنت ؟
ذكرينى فقد نسيت ، ولو شئت لقلت إلتى رجل أراد أن يحرس
الجمال فأضاعه الجمال

وهنا أتقل من الرفق إلى العتاب
أفى الحق أنه يجوز لك أن تقولى إن ليلي المريضة فى العراق
امرأة أجنبية ، وأن غرامى بها إشار الأجنبيات على المصريات ؟
لا ، ياسيدتى ، فهذه نزعة خبيثة تنافى أدب العروبة ، فالمرأة
العراقية شقيقة المرأة المصرية ، وستمر أجيال وأجيال قبل أن تسدد
مصر ديونها للعراق

تعالى إلى بغداد أسبوعا أو أسبوعين لتسمعى صوت مصر فى
العراق ، تعالى وانظرى كيف يكرمنا أهل هذه البلاد . تعالى
وانظرى كيف أحبس نفسى فى بيتى فراراً من الكرم والجود ،
فما دخلت مقهى ولا ملهى ولا مطعماً إلا وجدت حسابى مدفوعاً
بدون أن أعرف من الذى دفع ، حتى أصبحت لأدري أين أنوجه ،
والماء العذب يهجر للإفراط فى الخصر : كما يقول أبو العلاء .

لقد آن ياسيدتى أن تعرفى أن المرأة العراقية كلها روح ، كلها
قلب ، كلها قواد

المرأة العراقية هى كما نقول فى مصر «ربة بيت» وحنانها مصدر
الدوة لزوجها وأبنائها ، والتبذج الممقوت لا يعرفه نساء العراق ،

وليس في بغداد شارع واحد تبذل فيه المرأة ، كما يقع وأسفاه في
بعض شوارع القاهرة ، وإنما يعيش أهل بغداد متجملين ،
فلا ينقلهم الحب القاهر إلى الخروج على شريف الآداب
لأنذكرى المرأة العراقية إلا بالخير ياسيدتى ، وتذكرى أن
للرأة العراقية أحساباً وأنساباً ، وأنها تكرم نفسها عن التبذل في
المشارب والملاعب والمراقص ، وتؤثر أن تظل دائماً مصباح
البيت .

سـيـدـتـى

قلت لك إننى انتقلت من الترفق إلى العتاب
فعلى أى قاعدة من قواعد الذوق جاز لك أن تقولى إننى فارقت
شبابى ؟

اسألى عن أهلى ياسيدتى لتعرفى أنى من قوم تشيب نواصيهم ولا
تشيب أبدانهم ولا يقلوبهم
ومعاذ الآداب والذوق أن أنبهك إلى خطأ ستندمين عليه يوم
أعود

ولكن متى أعود ؟

اشتقت إلى الضلال فى الزمالك

اشتقت إلى المنزل الذى لم تسدل ستائره على قلب أشرف من قلبى
اشتقت إلى المنزل الذى كانت تحيىنى أحجاره حين أشرفه بقدمى ،

اشتقت إلى الإنسانية الغالية التي كانت تراني أعظم نعمة عرفها الوجود
اشتقت إلى الجدائل المعطرة التي أخذت منها « خصلتين » أدفع بهما
قسوة الوحشة في أيام الاغتراب

ولسكن من صاحبة هذه الجدائل ؟

من هي ؟ من هي ؟

لن تعرفي ولن يعرف اللثام الذين يلاحقوني على صفحات
الصباح .

ولو سألتني فاطر الأرض والسموات، لأنكرت وكتمت ،
فليس في الدنيا كلها غير عاشق واحد يسكن أسرار الملاح هو
صاحب النثر الفنى ، الرجل الذى تعرفين ويعرفون
ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم تقولين إتنى عجزت عن مداواتك ، وعجز معى الدكتور سعيد
عبدہ والاستاذ محمد . . وإن شفاءك وقع على يدى الشاب الظريف .
وأنا لا أستبعد ذلك فإله عز شأنه قد يضع سره فى أضعف خلقه
وما يسوؤنى أن ينجح الشاب الظريف فهو تلميذى ، ولولم يكن
تلميذى لما أمكن أبداً أن يكون شاباً ظريفاً

ولكن كيف جاز لهذا الشاب الظريف أن يخرج على الأدب
فيداوى مليحة عليلة بدون أن يستأذنى ؟

وكيف جاز لك أيتها السيدة أن ترضى عن ثورة التلامذة على
أساتذتهم ؟ ألم يباغك منشور وزارة المعارف ؟

سيدتى .

من أنت ؟ من أنت ؟ أحب أن أعرف من أنت لأنفض منك
يدى إلى الأبد . فقد كان الظن أن يكون الموت أحب إليك من
الخروج على الذوق . والذوق هو أئمن ماتملك المرأة . وهو عندنا
قبل المال وقبل الجمال

سيدتى

لقد سألتنى أن أحمل عنك التحية إلى ليلاى بالعراق . وأنا أعتذر
عن نقل هذه التحية . لأن ليلاى بالعراق ضحت بعافيتها فى سبيلى
وأبت أن تظهر لأعضاء المؤتمر الطبى . وقررت أن الغرق فى دجلة
أحب إليها من الخروج على الادب مع طبيبها الخاص
مولاتى

إن كان فى هذه الرسالة شىء يسوء فاعذرينى ، فقد ألقت الشطط
فى مخاطبة الملاح ، لأنى عشت مدلا بين الملاح . وأنا مع هذا أفهم
قيمة التضحية التى تقدمها سيدة حين تخاطب رجلا ، أنا أفهم جيدا
أنك صاحبة الفضل . وأعرف أن المعصم الجميل لا يتحرك لكتابة
كلمة مثل كلمتك إلا وهو منفضل . ومثلى يحفظ الجميل ولا ينساه .
وكل ما أرجوه أن تصونى قلبك فلا يعرف أسرارہ شاب ظريف
ولاشاب سخيف وأرجو ألا تسكويك التجارب فتذكرى نصيحتى
بعد الأوان ، والسلام

طبيب ليلى يوصى بنظارة طبية

للدكتور محمد صبحى بك

قالت جريدة العقاب البغدادية :

«من طريف ما يذكر في حفلة افتتاح المؤتمر الطبى العربى أن الدكتور زكى مبارك الأديب العربى الكبير وأستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية حضر الافتتاح بصفته دكتور «أبدان» لا دكتور «آداب» وقد قال عن نفسه إنه حضر لمداوة ليلى المريضة فى العراق .

والنكتة فى الموضوع ليست بما ذكر أعلاه وإنما هى فى مركز الدكتور فى الحفلة : فقد شوهه وهو يرتدى السدرة العراقية ويتقدم إلى الأطباء المصريين والسوريين مصافحاً إياهم ومضيفاً إلى ذلك هذه العبارة :

باسم العراق أحييكم .

وقد تقدم إلى أحد أصدقائه المعروفين من كبار أطباء مصر وتلقاه بهذه العبارة الرقيقة فقال الطبيب : أنا الدكتور محمد صبحى .. فقال له الدكتور زكى مبارك : من أى بلد قدمت ؟ وفى أى فرع تخصصت ؟

فأجاب : أنا مصرى أشتغل بطب العيون ..
فقال له الدكتور زكى مبارك : هل تسمح لطبيب ليلى أن يشير
عليك بحمل نظارة طبية ؟
فتنبه الدكتور صبحى وتلقى صديقه الدكتور مبارك المختفى تحت
السدارة بالعناق والتقبيل .
وسرت هذه النقطة بين أعضاء المؤتمر فكانت حديثهم فى
الصباح والمساء .

حيران حــــيران

حضرة الأستاذ محرر مجلة الهداية الإسلامية .

أقدم إليك أطيب التحيات ، وأذكر أنك تفضلت فطلبت مني كلمة للعدد الخاص ، وكنت أنتظر أن تعفيني من هذا الواجب ، لأنك تعرف ما يثقل كاهلي من الشواغل الثقالة ، وكنت أنتظر أيضاً أن أعفي نفسي ، ولكنني رأيت لكم أصدقاء في الموصل يذكرونكم بالخير ، ويحبون أن يكون لي في مجلتكم مكان ، ومن هؤلاء الأصدقاء أخوكم الأستاذ بشير الصقال .

موضوع هذا المقال مأخوذ من أغنية عراقية تقول : حيران حيران !! وحيرتي مزعجة مضنية لأنني أحب أن أكون من المصلحين ، ولكنني لا أعرف أين أتوجه ، ولا أتبين ما يجب أن أصنع

ولم تكن حيرتي حيرة فردية ، وإنما هي حيرة إسلامية ، فالإسلام اليوم في غربة موحشة ؛ ولكنه مع ذلك في يقظة يحسب لها خصوصية ألف حساب .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المسلمين يملكون أخصب بقاع الأرض ، وهم يشرفون على أعظم البحار ، ويملكون نواصي

المشرق والمغرب ، ولونفضوا عجاج الكسل عن رؤوسهم لسيطروا
على العالم من جديد

ولكن هناك أوهام فردية واجتماعية تشل أعضاء الأمم الإسلامية
ومن رأي أنه يجب الاهتمام بتبديد تلك الأوهام ، وأنا أعتقد أن
هناك دسيسة خطيرة جدا يراد بها تمزيق الأمم الإسلامية ، وهذه
الدسيسة لا يحبطها الإسراف في التغنى بالماضى ، وإنما يحبطها أن
تحارب بقوة وعنف ، وتقوم هذه الدسيسة على أساس القوميات
العربية أو الإسلامية ، فمن أوهام اليوم أودسائس اليوم أن العروبة
شئ والإسلام شئ . فأين المصلح الجرىء الذى يجهر بأن الإسلام
هو الذى أعز العرب وأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن بطلا
عربيا وإنما كان بطلا إسلاميا ؟

وقد جهرت بهذه الحقيقة مرات فى بغداد ، واحتملها منى
العراقيون لأنهم يعرفون أنى مخلص ، والعراقيون يحتملون كل
شئ من أهل الإخلاص

من رأي أيها الأخ أن الإسلام لا ينهض إلا بنهضة اللغة العربية
وأن من واجبنا أن ننشئ المدارس فى الهند والصين وأفغان
وليران وفى سائر البلاد التى يعيش فيها المسلمون لنقيم قواعد
الأخوة الإسلامية على أساس متين

من رأي أن يكون لنا « عصابة أمم » تفكر فى وصل الحاضر

بالماضى وتقنع الشرق بأنه ليس أقل حيوية من الغرب
من رأي أن تكون لنا «عصبة صوفية» تؤمن بالله وحده
وتستعد للجهاد في سبيل الله لا في سبيل المنافع الدنيوية .
من رأي أن تكون لنا «عصبة أدبية» تغنى اللغة العربية بالأدب
والبيان وتشعر شبابنا بأنهم يعيشون في حماية لغة هي أغنى من
الانجليزية والفرنسية .

من رأي أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين بتعليم أهل الشرق
أن الإسلام لم يكن دعوة قامت بالسيف كما يشيع المرجفون وإنما
هو هداية صريحة قامت لإنقاذ أمم العالم من الظلم والطغيان .
أيها الصديق : تذكر ثم تذكر

تذكر أن أمم الشرق لن تصبر طويلا على ما يريد لها الغرب .
إن الغرب يريد أن يظل الشرق حقولا يزرعها كيف يشاء ، وقطعانا
يصرّفها حيث يريد .

وللإسلام غاية واحدة : هي أن يكون المسلمون سادة أنفسهم .
وقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية .
فلنخدعه نحن بما عندنا من مدنية .
عنده نور الكهرباء ، وعندنا نور العدل .
عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق .
عنده الاستعمار ، وعندنا الاستبسال .

نحن نريد أن نسيطر على ممالكنا ، وما نحب أن نسيطر على
الغرب بغير الحق .

أيها الصديق

تذكر ثم تذكر :

تذكر أن الإسلام قوة وتذكر أن نابليون حاول أن يكون
امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر أن غليوم الثانى
حاول أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر
أن موسيلينى يحاول اليوم أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة
المسلمين .

وما كان المسلمون من السوائى المهملات حتى يفسكر فى رعايتهم
عاهل الفرنسيس أو الألمان أو الطليان
المسلمون قوة عاتية وسيعرفون كيف يؤدبون الطاغين
والمستبدين .

أيها الصديق

لقد تأملت فى هندامك فرأيتك تلبس لباسا شرقيا تحتته لباس
غربى ، فاعرف أن هذا اللباس الغربى هو الذى حرمانا من نعمة
الصلاة ، وسيأتى يوم نعرف فيه أن الملابس الشرقية القديمة هى
أصلح الملابس لأهل الشرق

أيها الصديق

لا تضق ذرعا بهذا الخطاب فقد كتبتة في ظلال الحيرة،
والحيرة هي أول خطوة في سبيل اليقين
« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله
لعلكم تفلحون »

محمد العشماوى في بغداد

صديقى رئيس تحرير البلاد

طلبت منى كنية عن سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية ، وأجيب بأنّ احتياجكم إلى من يحدثكم عنه ، مع معرفتكم بأكثر رجال مصر ، هو الصفة الأصيلة فى صفات ذلك الرجل النبيل ، فهو رجل لا يحب أن يعرفه أحد من الناس . هو رجل لا يعرف غير العمل ، والمطمح الأعظم فى نفسه أن يكون من النافعين لا من المشهورين

فإن لم يكن بدّ من ذكر شيء من تاريخه فإنّى أذكر أنه من قدماء الأساتذة بكلية الحقوق ، وهو يشغل منصبه فى وزارة المعارف المصرية منذ سنين .

وإن لم يكن بدّ من ذكر بعض مذاهبه فى الحياة فإنّى أذكر أنه رجل خالص خلوصاً تاماً من التعصب السياسى ، فهو صديق لجميع الأحزاب ، فلا يتولى وزارة المعارف وزير من أى حزب إلا عرف أنّ العشماوى رجل لا غنى عنه لأنه يخدم مصر ولا يخدم الأحزاب ومن الوجهة الادبية والذوقية أذكر أنّ العشماوى أكبر نصير للآداب والفنون .

ومن الوجهة القومية أذكر أن العشماوى من أصدق أصدقاء
العروبة ، وهو يدعو إلى توحيد المناهج الدراسية فى الأقطار العربية
ومن الوجهة الاجتماعية هو خير الآباء ، ويكفى أن تنظروا
كيف يصحب ابنه وابنته فى جميع الرحلات لينعموا بعطفه الأبوى
الشريف

فإن سمعتم أن فى مصر قلقاً على مصير اللغة العربية فتذكروا أن
محمد العشماوى هو باعث ذلك القلق ، لأنه يبغض أشد البغض أن تقع
كلمة من العامية فى دفاتر التلاميذ

صديقى

لقد كنت أرجو أن تكون أيام هذا الرجل فى العراق فرصة
أودى له فيها خدمة يذكرنى بها حين أرجع إلى القاهرة ، ولكن
الحكومة العراقية انتهت منى انتهاباً ، وأقبل عليه فضلاء بغداد فغمروه
بالمأثور عنهم من الكرم والطف ، بحيث لم يبق لمثلى فى خدمته مجال
وكنت أود أن أكتب له ترجمة مفصلة ، ولكنى أخشى أن
لا يرضيه ذلك ، فاكتفوا منى مشكورين بهذا القليل ، والسلام .

بين الآباء والابناء

- ١ -

قد يعتقد الكثيرون أنني عند ما أكتب عن أبي أو أنحدث عنه ، إنما أكتب ما أكتب وأقول ما أقول متأثراً بما بين البنوة والابوة من صلات. ولكنني في الواقع إذا كتبت اليوم عن أبي فإنما أكتب عن صدق ، فأنا الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث عن الدكتور زكي مبارك كرجل من رجال التربية والتعليم .

نشأ أبي نشأة ريفية في وسط عائلة قوية الجانب ؛ لا تعرف غير القوة والجبروت ؛ فاكتمسب صلابة الرأي ، وقوة الإرادة ، وبعد النظر ، وسلامة الذوق . . . ثم تحول إلى المدنية الحديثة في إبان شبابه ، فلم يتأثر إلا بأصولها الحقيقية ، فجمع مع سلامة العقل ، سلامة الجسم ، وقوة الروح ، وصفاء الضمير . فكان لذلك أثر كبير في تربيته وتعليمه ، وقد راضنا أبي على القوة ، فنشأنا بفضل الله أقوياء ، وقد كتب عن ذلك يقول ^(١) «أثروني أبي على أطفالي ؟ هيات لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة ، وحين أفهمتهم أن العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسليحوا بالقوة فقد

(١) في مقاله المشهور الذي عنوانه (عند ما يوافيني الموت)

انتفعوا بما ورثتهم، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا
منهم برىء

وقد عوّدت أطفالي اكل اللحم في كل يوم لينشأوا على قسوة
الحيوان المفترس ، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ،
واللضعيف الضيم والهوان

وقد نشأت في قوم أقوياء ، وكان أبي أشجع رجل رآته عيني ، وكان
أجدادي وأعمامي من نماذج القوة والبطش ، ولم يسكن فيهم رجل
مظلوم ، وإنما كانوا دائماً ظالمين ، فإن شاء أبنائي أن يكونوا لأبيهم
وأجدادهم وأعمامهم ، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء ، وإن ضعفوا
فليذهبوا غير مأسوف عليهم . . . وفيهم بحمد الله فتيان يقرأون هذا
الكلام ، فليعرفوا أنّ أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوى
النفس ، وليتذكروا أنّ أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع
الرجال

وقد يدهش الكثيرون إذا عرفوا أنّ أبي مع قوّته وجبروته ،
رجل كله كتلة من الإخلاص والوفاء والكرم ، فطالما ظللنا
بسحاب العطف وسقانا أكواب الشهد وغمرنا بكرمه وحنانه ،
وأقسم صادقاً أنّ أبي لم يبحر إحساسى مرة واحدة في حياتى وإن
كنت مخطئاً ، بل كان يعاملنا معاملة تدل على حسن التصرف وبعد
ال نظر فهو يدفعنا إلى بحر الحياة لنجرب حلوها ومرها ، ثم يراقب

أعمالنا عن بعد ، فإن أخطأ أحدنا أعاده إلى الصواب بكل شفقة ورأفة قائلا « أنا لا أَرْضَى لَكُمْ بغير التفوق المطلق لأن الرجل والمتسط لا يستطيع العيش في العصر الحديث » وكان لهذه التربية أثرها في أنفسنا ، فأنا لا أذكر يوماً عبث فيه أخي الصغير في حضرة أبي مع أن أبي يعامله معاملة كلها عطف وحب وإخلاص ، ويخيل إلى أن هذه الطريقة من طرق التربية تبعث في نفس الطفل أصدق آيات الإخلاص والولاء لأبيه ، وأروع صور الوفاء لوالديه ، وتعوده الاعتماد على النفس والشعور بالشخصية .

وقد راضنا أبي كذلك على العمل وهو رجل عمل بمعنى الكلمة فقد يقضى في أيام فراغه وفي إجازات الصيف ثلاثة أيام متواصلة لا يغادر خلالها مكتبه بل يظل ساهراً ليصل الليل بالنهار في العمل والتحصيل . ولعل القارئ يوافقني على ذلك إذا اطلع على كتاب النثر الفنى . ورجل هذه أخلاقه يبعث في روح أولاده حب المثابرة والكفاح بكل تأكيد . وكان من جراء ذلك أن ورثت عنه هذه العادة ، فلا أكون مبالغاً إذا قلت إننى كنت في التعليم الثانوى أقوم بجانب دراستى المدرسية بالكتابة فى الصحف ، ودراسة الهندسة اللاسلكية والكهربائية والميكانيكية بجانب الشعر والقصص والموسيقى .

وقد عودنا أبى الصبر ومواجهة الحقائق ، فهو رجل قلبا ييأس ،

وإنما يواجه الحقائق بالحقائق فلا أنسى مطلقاً مساء يوم وفاة جدى
رحمه الله فقد عاد أبى من سنتريس فى مساء ذلك اليوم يحمل إلينا
الخبر المشئوم ويبدى أسفه بقوة جسارة تغلب بها على حزن نفسه ،
وكبت بها عواطفه

وقد سافر أبى إلى العراق ولا أنسى ساعة وداعه ، فقد وقفت
أبكى كالطفل بينما راح هو يبتسم

وبعد فهذه صورة سريعة صادقة عن أبى رجل التريية ، فإليه
وحده أبعث بأصدق تحية .. وإليه أرفع آيات الحب والإخلاص .

ابنه الوفى

سليمان زكى مبارك

—>>><<<—

— ٢ —

صديقى

لقد شاء لك وفاؤك أن تمتعنى بخطاب خاص تبدد به ما فى صدرى
من ظلمات ، وكأنك لم تكثف بالافراح التى يذيعها الصباح يوم
وصوله إلى بغداد .

وقلت فى خطابك :

«أهنتك بأن لك خليفة فى الأدب والعلم والذوق والأسلوب

الإدراك هو سليمان زكى مبارك ،

فهل تدري أيها الصديق أن هذا الخطاب أزعجنى ؟

هل تعلم أنه ساءنى أن أعرف أنك ستنشر له كلمة عنى ؟

أنا أشهد غير مخدوع ولا مفتون أن هذا الشاب عنده بوارق من

الفكر والذكاء.

ولكننى أنظر إلى مصيره نظر الخوف والجزع ، لأنه يسارع إلى الشهرة كما يصنع أكثر الشبان فى هذا الجيل ، والشهرة المبكرة تفتن الشبان أشنع الفتون ، وتصرفهم عن التخلق بأخلاق الأبطال .

فإن كنت فى ريب من ذلك فتذكر أن فى مصر شباناً تعجلوا الوصول إلى الشهرة فوصلوا إليها قبل الأوان ، ولكنهم سيعيشون أطفالاً ويموتون أطفالاً ، وسيكون مصيرهم مصير الصحفي الذى اشتغل بالتحريض فى الجرائد المصرية أربعين سنة ثم مات قبل أن يشهد القراء بأنه صار من الكتاب !

وكان عندك فى جريدة «الصباح» محرر أنقذته أنا من هذا المرض ، فقد كان أخرج ديواناً شعرياً منذ سنين ، وطنطنت به الجرائد والمجلات ، ولكننى أبيت أن أشير إليه فى مقالاتى بجريدة البلاغ ، فلما عاتبنى قلت له : إن أعرفك إلا يوم تظفر بالدبلوم من كلية التجارة . ومن حقى أن أعتز بأننى أنقذت هذا الشاب من جنون

الشهرة فكانت النتيجة أن يظفر بدرجة عالية من درجاب الجامعة
المصرية

ولعل من واجبي أن أتجاهل مكاتبة الأدبية إلى أن يصبح من
رجال الاقتصاد

لقد ذهب ابني سليمان منذ أعوام إلى جريدة البلاغ لينشر بعض
اختباراته في اللاسللكي فرحبت به الجريدة ، ولكنني تدخلت
لوقف مقالاته ، فكيف جاز أن تشجعه في غيبي ؟ أنا يا صديقي
أبغض هذا النوع من التشجيع

إن هذا الشاب يريد أن يتشبه بأبيه ، ولكن في أي باب ؟ إنه يريد
أن ينشر مقالات وأقاصيص في الصحف والمجلات كما يصنع أبوه
فهو يعرف هذا الشاب المفتون أن أباه أحرز خمس شهادات
عالية أصغرها شهادة الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية ؟

وهل نسي هذا الشاب المفتون أنه رسب في البكالوريا وهو
يعيدها وقد يكون الجري وراء الشهرة الكاذبة سبباً في أن يرسم
مرة ثانية ؟

قد يراجعني هذا الشاب فيقول : وأنت أيضاً يأبت رسبت في
امتحانات الليسانس مرتين !!

وهذا حق ، ولكن اللجنة التي أسقطتني مرتين في امتحانات

الليسانس كانت مؤلفة من اسماعيل رأفت ومنصور فهمى
وطه حسين

فتى يكون من حظك أيها الشاب المفتون أن تسقط في امتحانات
الليسانس أمام لجنة مؤلفة من أمثال هؤلاء الرجال ؟
ومتى يكون حظك أن تظفر بإجازة الليسانس كما ظفر أبوك
وهى مذيلة بأسماء كهذه الأسماء ؟

إن هذا الشاب عمل بالمثل الذى يقول « غاب القط فإلعب يا فار » فهو
قد انتهز غيبتي بالعراق وأهمل دروسه ومضى يركض بين المطابع لينشر
كتاباً فى اللاسللكى ، ولو كان من أصحاب القلوب لعرف أنى أقوم
مفزوعاً من نومى فى كل ليلة ، لأنى لا آوى إلى فراشى إلا وأنا
مشغول البال عليه ، فمن أى الصخور صيغ قلب هذا الشاب
المفتون ؟

صديقى

ما كنت أحب أن ينشر مثل هذا فى جريدتك لولا يقينى بأنه يحارب
نزعة خبيثة يعانىها الشبان فى هذه الأيام ، وقد يكون فى قرائك من
يعانى من الألم بعض ما أعانى ، فالذين فى مثل حالى يتمنون أن يكون
لهم أبناء نجباء وأنا أخشى أن يخوننى الحظ فيكون أبنائى غير نجباء
كنت أتمنى أن يصنع أبنائى بعض ما صنعت مع أبى ، فما أذكر
أن أبى بات ليلة وهو موزق الجفن بسببى ، وقد هتف باسمى مئات

المرات وهو على فراش الموت .

أما بعد فقد هذبت ألوفاً من التلاميذ ، وأدخلت النور على ملايين العقول في المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله

وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضاً نعمة من الله

ألم يجرب الله إيمانى فابتلانى بأخطر الأرزاء والخطوب ؟
لقد طوّفت بالشرق والغرب فى الدفاع عن لغة القرآن
لقد ابتدعت مئات الأفاصيص لأحبب الناس فى لغة القرآن
لقد تفرّدت بالزهد فى الوصولية لأقيم الشاهد على أنّ الواثق
بربه لا يضيع

لقد وفيت لكل من عرفت لأخلق لوطنى أصدقاء ، فقد كنت
أسمع أن حب الوطن من الإيمان

لقد أدخلت البهجة على جميع ما عرفت من القلوب ، فكيف
يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟
رباه !

أنت تعلم كيف خلقتنى ، وكيف «ويتنى» ، فاكثبنى عندك من الشهداء

الساعة صارت عشرة !

صديق . . .

إن الساعة صارت عشرة .

ألا تصدق أن الساعة صارت عشرة ؟

إن كنت في ريب من ذلك فاسمع هذا الحديث :

كان سعادة وزير إيران المفوض في العراق تفضل فدعاني لحضور
الاحتفال بعيد ميلاد صاحب الجلالة ملك إيران ، فقهرت نفسي
على الخروج من عزلتي لأجيب هذه الدعوة الكريمة ، وقضيت
هناك نحو ساعة أنست فيها بمحادثة فريق من كرام الرجال . وعند
عودتي إلى المنزل رأيت رجلين ينتظراني بالباب : أحدهما صديق
عزيز ، وثنيهما زائر كريم .

فالتفت إلى الصديق وقلت : من أتى بك ؟ ألم أقل لك أكثر من
عشرين مرة إنني لأحب أن يزورني أحد ؟ ألم أنشر في الجرائد
مرات ومرات أن وقتي لا يتسع للزيارات ؟

فتبسم الصديق وقال : لطفاً ، لطفاً ، فما جدت إلا بالرغم مني ،
وصاحبي هذا قدم من الموصل ورجاني أن أدله على بيتك ليراك
ودخلنا فجلسنا لحظة وأنا على جانب من سوء الخلق لأنني كنت

أحب أن أدخل إلى القلم والقرطاس ، ولكن الزائر الكريم ظنني
أمزح فاحتمل سوء خلقي ، ثم اقترح الصديق أن نخرج فنقضي
لحظة في أحد الأندية فاعتذرت ، فقال : راع حق الموصل . فقلت :
حياً وكرامة !

وخرجنا فجلسنا في أحد الفنادق نحو نصف ساعة ثم استأذنت .

وسأل الرفيقان : متى نلتقي ؟ فقلت : بعد شهر !

فقال الزائر الكريم : إني لن أقضي غير أسبوع واحد في بغداد .

فقلت : سأزورك في الموصل !

فقال : أراك تهرب مني !

فقلت : لا أهرب ولكنني مشغول

وبعد ثلاث ليال سمعت طارقاً يناديني ، فنظرت فإذا هو أديب

الموصل ، فاستقبلته وأنا متضجر متأنف ، ولكنه ظنني أمزح ،

كأنه استكثر أن ألقى الضيف بالتضجر والتأنف ، فتشجعت وقلت :

إني أحرم نفسي من إخواني في العراق وأعتكف في المنزل لأتم

كتاب عبقرية الشريف الرضي .

فقال ولكن نحن على موعد مع الصديق (ع) .

فقلت : ما أظننا على موعد .

فقال : هو ينتظرك .

فقلت : هذا بعيد .

فقال: ولكن لا بدّ على أى حال من الخروج للسهر فى هذه الليلة.

فقلت: هذا مستحيل، لأن كتابى أعزّ علىّ منك.

فابتسم وقال: ولكن الليلة عيد ميلاد صاحب الجلالة ملك العراق.

فقلت: أحسنت إذ نهيتنى إلى ذلك، فمن الذوق أن أشارككم فى

الأفراح، ولكن اسمع يا صديقى: نحن فى الساعة السابعة وقد

شرعت فى كتابة بحث مهم جداً، ويؤذنى أن أخرج الآن، فارجع

إلىّ فى الساعة العاشرة، وسأكون فى صحبتك إلى نصف الليل.

فقال: وأنا أقترح أن نخرج الآن ثم تعود فى الساعة العاشرة

لتخلو إلى عملك ما طاب لك.

فقلت: هذا حل موفق

وقد مت إليه جملة من المجلات المصرية ليتلهى بها حتى أستعدّ

للخروج

خرجت فى صحبة الزائر الكريم وأنا متضجر متأفّف، ولم يكن

الأمْر على نفسى إلا حين خطر بالبال أن بكائى سيطول على الصحة

التي أنفق منها بلا حساب فى سبيل الأدب، فأنا أشتغل فى كل

يوم أكثر من سبع عشرة ساعة، وجبال الكحل تفنيها

المراد، وهيات أن تبقى صحى مع هذا الكدح الخفيف،

وأخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعنى الناس إلى قبرى،

فذاكرة بنى آدم ضعيفة جداً ، وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذى يخدمهم ويشقى فى سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفى كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف .
عفا الله عنكم يا بنى آدم وعفا عني !

خرجنا فمضينا إلى منزل الصديق فرأيناه يسمر مع زوجته ، ولم يكن ينتظرنا كما زعم صاحبي ، ولكنه مع ذلك جرى على الفطرة العراقية فاستقبلنا أكرم استقبال
وتلطفت الزوجة الكريمة فأحضرت فناجين القهوة والشاي ، وبعض الطيبات من الفاكهة والحلواء

أما صاحب الموصلى فأخذ يتلهى بالخطاب الموجه إلى ليلى المريضة فى الزمالك على صفحات الصباح ، وأما الصديق البغدادي فشاركنى فى متابعة الأغاني التى يجلجل بها المذياع ، ودار صوت من أصوات أم كلثوم فكادت أبكى ، ثم ابتسمت فجأة حين تذكرت أنه لا بد من انتهاء قبلة أو قبليتين من أم كلثوم يوم أعود ، وهل تستطيع أم كلثوم أن تفر من يدى ؟ هيهات هيهات !
وانقطعت الأغاني وشرع طبيب يتكلم عن العناية بصحة الطفل فقام صاحب البيت وأغلق المذياع بعنف .

فقلت : ما هذا الحق ؟

فقال فى ألم موجه : إن هذا الطبيب هو الذى قتل طفلي

ومدّ يده إلى الحائط فأنزل لوحة فيها صورة طفل يشبه أدونيس
ابن أفروديت

وجريت على عادتي في درس الوجوه والعقول والقلوب ،
فأريت الزوجة تتطلع إلى صورة الطفل وهي في مثل حال الطيبة
المروعة التي اختطف الأسد رشأها منذ لحظة أو لحظتين .

ثم تغير حالي أشدّ التغير ، وغلبني الحزن ، وتذكرت الدواء
الناجع الذي ينقذني من أحزاني ، وهو دواء مركب من ثلاثة
عناصر هي الكتاب والقلم والقرطاس

فجريت إلى معطفي البسه لأخرج ، فنظرت الزوجة نظرة تالطف
وقالت : هذا منزلك يادكتور ، فما الذي أزعجك ؟

ثم وقفت في وجهي صاحب البيت وهو يقول : لن تخرج ،
لن تخرج

ورأيت موقفي صار سخيلاً جداً فقلت : اسمع يا صديقي ، أنا أخشى
أن تكون دسيسة من دسائس الدكتور طه حسين !

فضحك وقال : وهل للدكتور طه حسين دسائس !

فقلت : هو يحاول منذ سنين أن يخلق لي صداقات كريمة تصدني
عن متابعة الإنتاج الأدبي ، وأخشى أن يكون كرمك من عقايل
تلك الدسائس .

وكانت فكاهة غمرت المجلس بالضحك وساعدتني على الخلاص

وفي السيارة تحدث الرفيق الموصلی فقال : يظهر أنك مصمم على العودة إلى منزلك .

— نعم ، وهل في هذا شك ؟

— ولكن الساعة العاشرة لم تكن ، وأنت وعدت بأن نظل معاً إلى الساعة العاشرة

— أعفني يا صديقي ، فأنا أشغل مطبعتين في بغداد ، وسيطرقون بابي مع الشروق ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول

— تذكر أنني راحل إلى الموصل

— ألم أقل إنني سأزورك في الموصل ؟

— أنا لا أضمن ذلك ، وتكفيني ساعة واحدة في صحبتك ، من التاسعة إلى العاشرة .

— ألم تسمع حكاية العالم مع الأمير ؟

— وكيف كان ذلك ؟

— زعموا أن عالماً دخل على أحد الأمراء فدعاه الأمير إلى المنادمة ، فقال العالم : إنما وصلت إلى مولاي بالعقل ، فأنا أكره ما يذهب العقل ، وأنا يا صديقي لم أصل إلى مسامع أهل العراق إلا بالمحافظة على الوقت ، فأنا أكره ما يضيع الوقت ، ولولا هذه المزية

لما أمكن أن أكون من كبار المؤلفين

— هي ساعة واحدة تكرم بها أديباً يعشق أدبك ثم تعود فتخلو
إلى قلبك كيف شئت

* * *

وكانت لحظة دار فيها رأسي فتذكرت ما كتبت عن أدب
الآخوة في كتاب التصوف الإسلامي ، وتذكرت الحكيم الذي
قال «إذا قلت لصاحبك : هلم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فليس بصاحب»
فقلت : لك يا صديقي ماتشاء ؛ على شرط واحد
— ما هو ؟

— أن نفرق في الساعة العاشرة

— وهو كذلك . ولك الفضل

دخلنا في فندق .. فلم نر فيه مكاناً خالياً فذهبنا إلى فندق .. فرأيناه
أشبه بسفينة نوح

فمضينا إلى فندق .. فرأيتـه لا يليق برجل يشتغل بالتدريس ،
والمدرس مسئول عن كرامته ولا يليق به أبداً أن يدخل مكاناً
تحيط به شبهات

واعترض رفيقي فقال : هذه ليلة أنس فيها ما لا يباح

فقلت : هي ليلة عيد في قصر جلالة الملك ، ولكن يغلب على
ظني أن الملوك لا يعرفون الأعياد ، ومن يدريك فلعلّ جلالة الملك

فى هذه اللحظة مشغول بتدبير بعض الشؤون

فتضجر رفيقى وقال : ولكن الملك يسره أن يفرح الشعب فى
ليلة عيد

فقلت : ولكن يسره أيضاً أن يعرف أن شعبه لا ينسى كرامته
فى ليالى الأعياد

— سمعت أن الملك فؤاد كان يترك ضيوفه أحراراً فى سهرات
قصر عابدين ويكتفى هو بشراب الليمون
— ولو أنهم تأدبوا بأدبه فاكتفوا بشراب الليمون لكانوا إلى
قلبه أحب وأقرب

— أنت رجل مزعج يا دكتور !
— لست بمزعج ، وإنما أحب أن أرجع إلى قلبى وكتابى

* * *

وانتهى بنا المطاف إلى فندق يغلب عليه التجميل ، إن كان للتجميل
مكان بين أكواب الصهباء

جلس رفيقى وجلست بالقرب من جماعة يسكرون ويعربدون.
جلست وأنا متهيّب ، وجلس رفيقى وهو متهيّب
أما أنا فتهيّبت لأن هذه الجماعة تعرفنى وربما كان أحدهم أباً أو

عماً أو خالاً لأحد تلاميذى ، وأنا مسئول عن كرامتى أمام هؤلاء
الناس .

وأما رفيقى قتهيب لأن هذه الجماعة بها ثلاثة هو لهم رئيس
وأخذت أدرس الوجوه والشمال والخصال لأصحح أغلاطى فى
فهم الأدب العربى ، وهنا أصرح بأن الدراسات الفلسفية لا تطيب
لى إلا فى مدينتين اثنتين : باريس وبغداد

أما باريس فأمرها معروف ، لأن جميع الوجوه هناك كانت
مألوفة لى ، لأنى رأيت صورها فى مؤلفات المبدعين من أقطاب
الأدب الفرنسى ، وأما بغداد فإنى أرى فيها صور الرجال الذين أولعت
بدراسة آثارهم العلمية والأدبية والفلسفية منذ أعوام طوال

أما القاهرة فليس فيها وجه رأيت صورته فى كتاب ، لأن أدباء
القاهرة فلاسفة عظام لا تراهم إلا فى مكانين : بغداد فى العصر
العباسى ؛ وباريس فى العصر المنصرم ، أو طلائع العصر الحديث ،
وربما تطرف فريق منهم فحدثونا عن أدب اليونان والرومان !
ثم يقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يادكتور ١١
فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى ١١

فأقول : بقى وقت . . . ثم أعود إلى درس الوجوه من جديد
هذا هو الشعب العراقى ، الشعب الطروب الذى لا يشغله الجدل
عن اللعب ، ولا يصرفه اللعب عن الجدل

هذا هو الشعب الذى طال عهده بكفاح الأيام والخطوب هم
بقيت عنده ذخيرة من الابتسام

ثم أخذ السامرون يغنون ، والعراقى إذا طرب غنى فأجاد الغناء
ولم تقع فى أغانيهم كلمة بذية ، ولم تنفرج شفاههم عن كلمة فيها
رائحة الفحش ، ولم يتوهم أحد أن المجلس قد يقع فيه ما ينافى الذوق ؛
هذا هو الشعب العراقى ، وتلك شمائله وسجاياه

فإن وقع منه ما يؤذك فتذكر أن مياه الأنهار قد تقع فيها أحياناً
أقذاء ، وتذكر أن البدر لا يخلو من كلف ، وتذكر أن الأزهار قد
تحيط بها أشواك ، ثم تذكر أن الحياة فيها الشهد والصاب

* * *

يقع هذا ورفيقى متجمل متهيب ، ولكنه يخرج فجأة عن وقاره
ويغنى :

فيك ناس ياليل يشكوك مواجعهم
بالله ياليل ما تبقاش تواجعهم
أجريت ياليل على الخدين مدامعهم
باتوا حيارى بطول الليل سهرانين

ياخوفنى ياليل من طول المدى معهم
فأخرج علبة السجائر وأكتب فوقها هذا الموال ، ثم أتذكر أنى
كنت سمعته من رجل جالس متربع فوق جسر أبو العلا منذ سنين ،

وكانى سمعته بالأمس فقد كان المغنى « ابن بلد » وكانت سيماء تشهد بأنه ذاق طعم الصبايا فى بولاق ، وأنه اكتوى بنيران العشق ، وقاسى لواعج الأشواق ، ثم يثب الخيال إلى آفاق بعيدة جداً ، فينتقل من بغداد إلى بولاق ومن بولاق إلى باريس ، فأتذكر أنى كنت أعطف أشد العطف على الدكتور الديوانى مدير البعثة المصرية فى باريس لسبب واحد هو أنه من مواليد بولاق ، بولاق العظيمة التى صنعت المدافع لتحارب بونا بارت ، والتى سمعت على جسر ها فى ليلة صيف :

لك ناس ياليل يشكوك مواجعهم

وقد تفضلت على الدكتور الديوانى فقصصت عليه هذا الحديث فى سهرة من سهرات باريس فى سنة ١٩٢٨ .

ثم يقع ما هو أعجب : ذلك بأن أحد العربدين بحسب الرفيق الموصلى قى مصر يا ، لأنه يغنى موالا مصر يا ، فيقبل عليه ويقول : نحن فى العراق أربعة ملايين وعندنا قوة جوية ، وأتم فى مصر ثمانية عشر مليوناً ولا تملكون قوة جوية تناسب عظمة مصر .

فأعرف أن أهل العراق لا يفكرون فى غير الحرب والقتال . ويضحك رفيقى ويقول : ألا ترى كيف رآنى العراقيون مصر يا ؟ فأجيب : والأغرب أن يروا سكان مصر ثمانية عشر مليوناً .

ويتدخل ذلك المعربد فيقول : إن سكان مصر في الواقع يبلغون
خمسة وعشرين مايو نا .

فأقول : أفصح يا أخا العراق
فيقول : إنما أعني سكان مصر والسودان .
آه آه آه

إن جنود العراق يذكروننا بالسودان ، ولكن أين من يسمع ؟

*
* *

ثم يقول الرفيق الموصل : الساعة صارت عشرة يا دكتور
فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى ١٢
فأقول : بقى وقت

فيقول : مطابع بغداد تنتظرك
فأقول : أنا لها ، أنا لها ، لأنى أستثقل النوم فى الليل ، وهل
جئت إلى بغداد لأعرف فيها طعم النوم فى الليل ؟
ثم نخرج لنعود إلى منازلنا ، فيقترح الرفيق الموصل أن نطوف
ببعض الملاحى

، فأقول لا بأس ، فهذه ليلة عيد ، وما أقل الأعياد فى حياتى !
وفى ملهى لا أسميه أرى صديقاً عذب الروح وفى يده كأس
ويدعونى إلى منادمته فأرفض لأنى سكرت من كأس أحزانى ،
ثم تقبل فتاة ندية الجسم كأنها من دمياط فتدعونى إلى الرقص

فأرفض أن أرقص ، لأنى راقصت أشجانى

- ويقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يادكتور
- فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى الثالثة بعد نصف الليل ، فأصرخ :
- نعم ، الساعة صارت عشرة !
- صحيح ، الساعة صارت عشرة !
- مؤكد ، مؤكد ، الساعة صارت عشرة !
- ثم نخرج ؛ ويجرى هذا الحوار فى الطريق :
- هل أستطيع أن أخبر أهل الموصل أنى قد قضيت نحو تسع ساعات فى صحبة الدكتور زكى مبارك ؟
- حدث أهل الموصل عنى بما شئت فهم إخوان أعزاء
- ولكن أدباء الموصل سيسألون عن أسباب النجاح الذى حظرك به الدكتور زكى مبارك فى حياته الأدبية
- قل لهم إن زكى مبارك نجح فى حياته الأدبية لأنه رجل يؤمن بأن رزقه بيد الله لا بيد الناس
- ثم ؟
- ونجح فى حياته الأدبية لأنه يعشق الصدق ، ويبغض الرياء
- ثم ؟
- لأنه يبذل دمه فى سبيل الوفاء

— ثم؟

— لأنه لم يقدم أية إساءة إلى أى مخلوق ، وكان أصدقاؤه يكتبون له بأيديهم صحيفة الاتهام .

— ثم؟

— لأنه أحب كل بلد عاش فيه : فعشق سنتريس والقاهرة وباريس وبغداد .

— ثم؟

— قل لأهل الموصل إن زكى مبارك نجح في حياته الأدبية لأن اسمه زكى مبارك

ليلى المريضة في العراق

ليست مصرية وإنما هى عراقية

صديقى ...

لعلك تعرف أن من حقى أن أعتب عليك فالصدقة حق ،
ومثلك من يراعى شروط الوفاء

من هذا الكاتب الذى اسمه (محمد) والذى وجد من كرمكم
مايسمح له بأن ينشر فى الصباح أنى أجترئ على الحقيقة وأن ليلى
المريضة فى العراق ليست عراقية وإنما هى مصرية ؟

إنك يا صديقى تعرف أنى لست من كتاب الأفاضل حتى تهمنى
هذا الكاتب بأنى أكتب قصة غرامية ، وتعرف أنى ما فكرت يوماً
فى أن أزاحم محمود تيمور أو توفيق الحكيم ، وإنما أنا طبيب أضاءه
الآدب فلم يبق أمامه إلا أن يقضى بقية عمره فى خدمة الحقائق

وأسارع فأقرر أن نتائج أبحاثى عن ليلى المريضة فى العراق كانت
من أصح ما ينشر فى الصباح ، ولكنى خشيت أن تظنوها قصة
فقدمتها إلى الرسالة لأن صديقنا الزيات عاش مدة فى بغداد وعرف
أشياء من أخبار ليلى المريضة فى العراق

وقد حققت الأيام ما توقعته وسمحت لأحد محررى الصباح أن

يشير الظنون حول ليلاى ، شفاها الله

على أنى أرى من الإنصاف أن أنص على أن صديقتكم (محمد) كان
أكرم من صديقتكم (خلدون) الذى يكتب فى جريدة الأهرام
ويسمر مع (الشناوى) فى بار اللواء

فصديقتكم (محمد) يرتاب فى غراميات زكى مبارك لأن الذى يؤلف
كتاب النثر الفنى لا يتسع وقته للغراميات ، وأنا والله أخشى أن
يجيء ناس فيزعموا أن كتاب النثر الفنى من تأليف الدكتور طه
حسين ، وإن يكون هذا غريباً ، فقد نشرت عدة مجلات أن كتاب
(الأخلاق عند الغزالي) من تأليف الدكتور منصور فهمى ، وقد
يقول ناس فيما بعد إن كتاب (التصوف الإسلامى) من تأليف
الأستاذ مصطفى عبدالرازق ، فالذى صنعه صديقتكم (محمد) كان من
الكرم والنبيل ، أكرمه الله ورعاه

ولكن تعالوا فانظروا ماذا صنع الأستاذ خلدون :

قدمت إليه نسخة من كتاب (ذكريات باريس) وهو كتاب
تعرفون قيمته الأدبية والاجتماعية ، وتعرفون أنه كان الطليعة
للمؤلفات التى نشرت بعد ذلك عن باريس ولندن وبرلين

فهل تذكرون ما صنع ذلك الصديق ؟ هل تظنون أنه أدى
واجب النقد الأدبى نحو كتاب كان ولا يزال أجمل ما خط كاتب
فى وصف باريس ؟

لم يصنع شيئاً من ذلك وإنما قال إن ذلك الكتاب يشهد بأن
زكى مبارك كانت له غراميات في باريس ، وزكى مبارك دميم
الوجه فلا يعقل أن تكون له غراميات

وأنا يا صديقي أعترف بأنى لست مخلوقاً جميلاً ، وإن كانت ليلي
تراني أجمل إنسان ، ولكنى أنكر أن يكون وجهى دميماً جداً ،
إنما الوجه الدميم جداً هو وجه الأستاذ خلدون الذى يعد بحق
جاحظ هذا الزمان

وقد فكرت مرات في أن أقترح على نقابة الصحافة - وكانت
هوجودة يومئذ - أن تشتري وجهاً للأستاذ خلدون ، ثم عدلت عن
هذه الفكرة ، لأن صديقى وصديقكم خلدون يتألاً وجهه
بالجاذبية ، وإن زعم ناس أن دمامة وجهه لا تطاق ، والعياذ بالله
ليس لى غراميات ، لأنى ألفت كتاب النثر الفنى ، كذلك يقول
الأستاذ محمد

ليس لى غراميات ، لأنى دميم الوجه ، كذلك يقول الأستاذ
خلدون .

وأنا والله راض بحكم هذين الصديقين .

ولكن ماذا صنعتكم فى إنصافى ؟

أنا بشهادتكم جميعاً من كبار المؤلفين ، وبشهادتكم جميعاً
لا أصلح للغراميات

فما الذى يمنع وهذه حالى من أن أكون مدير الجامعة المصرية
أو شيخ الأزهر الشريف

إنّ مقامى فى التأليف أعظم من مقام لطفى باشا والشيخ المراغى .
فليس لأحدهما كتاب يشبه كتاب النثر الفنى ، و لطفى باشا أجل
منى ، على أرجح الأقوال ، أما الشيخ المراغى فله ابتسامة عذبة
تحدثت عنها مرات فى مقالاتى بجريدة البلاغ .

حدثونى ماذا صنعتُم فى إنصافى ، أيها الجاحدون !
أتحسبون أنى أقبل العيش فى الدنيا بلا غرام وبلا مجد ؟ هيات ،
هيات ! .

أنا أعرف السبب فيما يغىظ بعض الناس من غرامياتى .
هم يروتنى أبتدع فناً جديداً فى اللغة العربية ، ويرون أنى انتهبت
منهم جماهير القراء ، ويعرفون أنى الكاتب الوحيد الذى يتلقى من
قرائه نحو سبعين رسالة فى كل أسبوع ، فهم يقولون بلسان الواعظ
الكذاب : احترس يا دكتور زكى فأنت تسوى سمعتك بهذه
الغراميات ، وأنت تضيع المستقبل الذى ينتظرك فى وزارة المعارف .
وكنتم والله مستعداً لقبول هذه النصائح الغالية ، ولكن هل
أنصفنى هؤلاء الناصحون وقد كنت بلا جدال أعظم المؤلفين فى
علم الأخلاق ؟ .

أحب أن أعرف من هم الناس الذين يستحقون أن أصطنع فى

معاملتهم مذاهب الرياء ؟ .

لقد أقنعتني عقيدتي بأن رزقي عند ربي ، وما أذكر أبداً أن الله عز شأنه عاقبني بالجوع ، فلتكن حياتي هي الشاهد على أن الأرزاق بيد الله لا بيد الناس .

وما أزعج أنني أتقى الاتقياء ، فعلم ذلك عند ربي ، وإنما أستطيع أن أؤكد أنني أقوى ديناً وأصح عقيدة من بعض الذين تسنموا أعلى المناصب بفضل الرياء .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن الكاتب الذي أراد أن يشكك القراء في حقيقة ليلى زعم أن
(الاسطوانة) التي تصدح

يقولون ليلى في العراق مريضة

فياليتني كنت الطبيب المداويا

زعم هذا الكاتب أن هذه أنشودة تغنيها مطربة ، لا أكثر ولا أقل ، كذلك والله قال ، وما أقترى عليه ، فمن كان في ريب من ذلك فليراجع العدد (٥٩٢) من جريدة الصباح

فما رأيه إذا أحلته على ما سينشر في مجلة الرسالة من أخبار ليلى ؟ إنه إن أطاعني وقرأ تلك السلسلة فسيعرف أن السيدة نادرة لم تغن تلك الأنشودة بلا سبب ، ولولا الخوف من تبديد أسلوب القصة في مجلة الرسالة لعجلت بنشر الحقيقة على صفحات الصباح ، وذلك

ما لا يرضيك ياسيد مصطفى ، وأنت من أعرف الناس بحقوق الزملاء .

ثم ما ذا ؟ ثم ما ذا ؟

ثم يصرح صاحبكم بأن ليلاى مصرية لا عراقية وأنها تقيم بالزمالك أهلا وسهلا ، وهل أنكر أن هناك ليلى تقيم بالزمالك وأن يبنى وبينها أشياء ؟

هذا حق ، ولكن صاحبكم يفترى ولا مؤاخذه حين يزعم أنه زارها معى بصحبة الدكتور سعيد عبده ، فمتى كانت هذه الزيارة ؟ إننى لا أذكر أبداً أنه صحبنى إلى ليلى المريضة فى الزمالك ، وإنما أذكر أنه كان فى معيتى هو وسعيد عبده حين ذهبت لزيارة ليلى المريضة فى مصر الجديدة ، وكان الذى دعانا لزيارتها أمير الشعراء شوقي طيب الله ثراه .

صديقى

معذرة إليك إذا أطلت القول فقد ثارت شجورى .

كان شوقي رحمه الله أراد أن يعرف بعض المستور من خلائق النساء فدعا ثلاثة لزيارة ليلى . وأنا أولهم وثانيهم محمد وثالثهم سعيد ، وكنت يومئذ شيخا معهما ، شيخا ضئيلا دميلا لا يقام له ميزان ، وكان محمد وسعيد من أجمل الشبان فى القاهرة ، على ماضيهما السلام ، فلما دخلنا على ليلى لم تأنس بوجه غير وجهى ، فهل كانت تنافق ؟

ذلك ما زعمه صديقنا محمد وأخونا سعيد .
أما شوقي رحمه الله فصرح بأن عندي مزايًا تفقن النساء ، وتفضل
رحمه الله فأعطاني ثلاثين جنيهًا أستعين بها على طبع كتاب (حب ابن
أبي ربيعة) ولولا تلك المنحة لعجزت عن إخراج ذلك الكتاب
الطريف الذي طبع ثلاث مرات .
يالوعة القلب !

وياغضبة الله على الأديب الذي أثار هذه الذكريات !
فقد كانت تلك السيدة تحب وتعشق
كانت تحب أبناءها وتعشق زوجها
وكان زوجها من الغادرين ، وأبناءؤها من أهل العقوق
وكنتم أستطيع أن أمزج هواها بهواي ، وأنا رجل قاتل النظرات ،
ولا أذكر أبداً أني رميت سهماً فطاش ، ولكن في صدري بقايا
من المروءة ورثتها عن أبي وجدى
وكذلك رأيت أن أترك تلك السيدة لزوجها وأبنائها ، ولكنها
— واحر قلباه — ماتت بعد ذلك بعامين اثنين
فإن سمعتم أن في مصر الجديدة شارعاً لا أمر به في الليالي المقمرة
فاعلموا أنه الشارع الذي كانت تقيم فيه تلك السيدة الحسنة ، على
روحها أطيب الرحمات

لا تذكروني أيها الأصدقاء بما عانيت في حياتي من لواذع
الوجدان ، وانسوني قليلاً لأنسى أحزاني ، فقد ظال ما قاسيت من
شقاء الروح وعذاب الفؤاد

الى ليلي المريضة في الزمالك

سيدتي

أشكر لك مرة ثانية ما تفضلت به من الكلمات الطيبات التي
عطرت بها صفحات الصباح .

وليتك تعرفين كيف تقع كلماتك على قلبي ، إنها يا مولاتي تفعل
به ما يفعل الندى بالزهر الظمآن ؛ وهو قلب مفطور مجروح ، عافاك
الله مما يعاني .

ليتك تعرفين كيف أتسم العافية كلما قرأت كلمة لسيدة لها قلب
مثل قلبك ، فما تمثلت القلم في أناملك اللطاف وأنت تصويينه إلى
صدرى إلا طار صوابي وانتشيت .

وليتك تعرفين مرة ثالثة أنني لا أملك في مجازاتك على ما تبدين
من رفق ولطف غير الاعتراف بأني المذنب ، وأن إليك غفران
الذنوب .

سيدتي

أتأذنين للعبد المذنب أن يحاسب سيده السكريمة بعض الحساب؟
إن أذنت فأنا أسأل : كيف جاز لك أن تدافعي عن الأستاذ محمد؟
ألم تقرئي ما كتب في الصباح؟ ألم تنظري كيف أهان الحب فجعله
ضرباً من اللهو والمجون؟

أنا ياسيدي لا أجهل فضل هذا الصديق ، ولن أنسى مروهته
ما حييت ، ولكني أراه في حاجة إلى تقويم وثقيف ، وسأدخل في
دمه شيئاً من الحديد ، وسيدكرني بالخير يوم يعرف أنني أنشأته
خلقاً جديداً .

ما هذا ؟ أراني أخطو إلى مكاشفته بما في نفسي ، لا ، اسمحي لي
أن أحبس قلبي ، فعندي صواعق سأصبها فوق رأسه إن حدثته
النفس بمصاولتي ، وأرجوك أن تأذني بطرده نهائياً من جنة الحب ،
فلا يعود إليها إلا إن تاب وأناب ، ولست باليائس من أن يتوب
وينيب ، فعطفك عليه خليك بأن يغمر قلبه في كوثر الصفاء .

لا تؤاخذيني ياسيدي ، فقد امتلأ قلبي بالحق على هذا الصديق ،
لا تؤاخذيني فقد كنت أظن أنني رفعت قدر الحب بعد أن شغلت
قلبي وقلبي بالحديث عنه عشرين عاماً أو تزيد ، ثم عرفت وأسفاه
أن في مصر كاتباً اسمه الأستاذ محمد يستبيح لنفسه أن يقول إنه زار
معشوقة الدكتور زكي مبارك وإنما أطلعت على الخطابات المعطرة
التي يرسلها من بغداد .

ألم تقرئي هذا الكلام ياسيدي ؟ ألم تعجبي من الجرأة التي زينت
له أن يكتب خطاباً على لساني ليزعم أنه خطاب كتبه في بغداد إلى
ليلي في الزمالك ؟

أرجو أن تعرفي أن هذا المزاح لا يضايقني لأنه لا يفضحني أمام

أحد ، فكل كاتب يمكن أن تزور باسمه رسائل الحب ، إلا زكى مبارك ، لأن لى أنفاسا حاراً يعرف الناس بها أدبى ، ولا يستطيع الأستاذ محمد ولا ألف من أمثاله أن يلفقوا على حسابى ما يشتهون . ولكن لا بأس ، فهذا صديق يثق بالسلامة من شر غضبى ، ولو كنت فى القاهرة لأدبته يدي ، فإن سمعت فى الصيف المقبل أننى قتلت رجلاً فسيكون ذلك الأفاك الأثيم .

أما الدكتور سعيد عبده فلا يهمنى من أمره غير الاطمئنان على صحته الغالية ، فقد رأيت يتوكأ على عصا ، والدنيا سخيصة كل السخف حين تسمح بأن يتوكأ الدكتور سعيد عبده على عصا ، ذلك الفتى البسام الذى جاد قلبه بأجود الرسائل وأطيب الأقاصيص . ثم ماذا ياسيدتى ؟

ثم تدلينى على منزلك فى الزمالك فتقولين :

« فاذا سرت يمينا ثم شمالا تجد بيتى فى واجهتك ينهض على أعمدة من البلور وتصعد إليه على درجات من المرمر ، فاذا سرت فى أبهائه فأنت مسحور مأخوذ مهوور الأنفاس »
الله ، الله !

هذا صحيح ، وإنى لا تذكر أنى زرتك ياسيدتى فى ذلك البيت . ولكنى أنكر أنى أسير يمينا ثم شمالا ، فقد كنت أسير إليه شمالا ثم يمينا ، ولكن قولك أصدق ، فقد أكون نسيت لطول العهد ، ولا كثرة .

ما يحمل القلب من هموم وأحزان . عافاك الله مما أعانى .

ثم تقولين :

« طالما تركت لك يدى لتقبلها ، وهذا لم يمنع من أن تأنس
روحى إلى روحك »

فأنت تشهدين بأننى قبلت يدك الكريمة وأن روحك أنست
بروحى .

فهل تعرفين معنى ذلك ؟

معناه يامولاتى أنتى ظفرت منك بهطيف من الحنان ، وهذا يزيد
فى وقدة الشوق ، فما وردت مورداً من موارد الحب إلا طال وجدى
به وشوقى إليه ، ولا رشفت ثغراً إلا بقى عطره فى فمى ، ولا
استروحت ظلاً من ظلال الحسن إلا بقى روحه فى فؤادى ، ولا
رفعت بصرى إلى وجه مشرق إلا بقى ضياؤه زاداً شهياً تقناته عيناى ،
ولا لعبت أباسلى فى الجدائل المعطرة إلا بقيت صورة هذا العبد
الظريف مدار أوهامى وأحلامى .

سيدتى

إن خطابك لا يخلو من مزاح .

ولكن هل يؤذنى هذا المزاح ؟ وكيف وهو يشهد بأنك كتبت
ما كتبت وأنت تبسمين ، ولو كانت البسمات مما تدفع فيه كرائم
الأموال لبعت عقلى لأشترى لك بسمه أو بسمتين ، أنا المحب الصادق .

الذى يبذل الدمع والدم في سبيل الملاح .. وهل أبقى لي الهوى عقلا
يشترى أو يباع ؟
سيدتى

كيف أنت الآن ؟ ألا يزال وجهك الجميل يشع بذلك النور الوهاج ؟
كيف أنت بين وسائد الدمقس والحرير ؟ كيف أنت فوق تلك
الأريكة التى تختال حين تحوى جسمك الفيضان ؟
ثم تقولين ياسيدتى إنك ما أعطيت ميعاداً لأحد ، وإنك إنما
تخرجين وحدك لتنسم الهواء العليل ، ولتشرفى على الدنيا الصاخبة
من وراء حجاب

وهو كذلك ، ولكن ما رأيك إذا حملنى الطيش فقلت إتنى قادر
على الظفر منك بألف ميعاد وميعاد ؟ لا تعجبنى ياسيدتى ، فسيأتى يوم
يشتااق فيه قلبك النذيل إلى صحبة قلب نذيل . سيأتى يوم تعرفين فيه
أن شمائلك العالية فى ظمأ إلى شمائل عالية ، سيأتى يوم تعرفين فيه أن
الكبرياء على رجل مثلى لا ترضاه حرائر القلوب

لقد صرحت بأنك تشتاقين أحياناً إلى رؤية الدنيا الصاخبة ، إن
صح ذلك فسيحملك الشوق إلى رؤية قلبى ، ففيه يا مولاتى مواكب
للأفراح والأحزان ! فى قلبى يا مولاتى نعيم وجحيم ، وفيه وديان
وأنهار وبحار وجبال ، وفيه الشهد والصاب ، والهدى والضلال
فى قلبى يا مولاتى ما يشوق الآعين وما يفزع القلوب ، والفرجة

على قلبي يدخل إليها الملاح بالمجان ، وهو قلب خطر هرب من شره
الكرام الكاتبون ؛ فتعالى أنت للتفرج عليه : فالمرأة أجزاً من
الملائكة وأجزاً من الشياطين !

أما الشاب الظريف الذي تزعمين أنه شفاك فأنا أسمح له بأن
يقطف من روضك ما يشاء ؛ لأنني أعرف أنه لا يزحزحني عن
مكاني ، وأفهم أنه في حاجة إلى رعايتي ، ويسرني يامولاتي أن يكتوى
بنار الحب كما اكتويت ، ليصير فيما بعد من كبار الرجال
أما غيرتك من المرأة العراقية فسأعود إليها في غير هذا الخطاب
والسلام

الادب والاخلاق

حضرة الأستاذ محرر المكشوف

تحيتي إليك وإلى زملائك الأعزاء

وبعد : فأني أصارحك بأني لم أرض عما نشرته وه عني في مجلتكم ولكن لكم في بغداد أصدقاء يؤكدون أنكم لا تريدون غير إيقاظ الحياة الأدبية . فإن كان ذلك ما ترمون إليه فعلى الرحب والسعة ، واشتموني كيف شئتم ، فأنا أومن بأن كل سطر يقرأ هو سهم موجه إلى صدر الجهل .

ولكم أيضاً أصدقاء في بغداد يؤكدون أنكم تحترمون حرية الرأي ، فإن صح هذا فأنا أشكوكم إليكم . ولعلكم تتفضلون بنشر هذا الخطاب ، ثم تعلقون عليه بما توجب أخلاق الرجال .

أولاً - صدقتم من يزعم لكم أني قلت إن الأديب في حياته العامة يعامل الناس بالتلون والتقلب ، ولو راعيتهم أصول النقد لعرفتم أنه من المستحيل أن يصدر عن هذا الكلام .

ثانياً - سمحتم لأحد الشبان أن يحرض على أهل العراق فيقول إن الدكتور زكي مبارك يزعم أنه الطبيب الوحيد الذي يقدر على مداواة ليلي المريضة في العراق ، مع أن في العراق كثيراً من

الاطباء النطاسيين ، وسيغار أهل العراق على كرامتهم فيحاسبون
الدكتور مبارك أشد الحساب !

ولم تكتفوا بهذا ، بل نقلتم الدسيسة الخسيسة التي نشرها سعيد
الريان في مجلة الرسالة ، إذ يزعم في سخره أني أنكر خصومي للرافعي
لأتقرب إلى أهل العراق . وأنا موقن بأن الأستاذ الزيات لم يراجع
تلك الكلمة ، فمرت مرور الباطل على مساعديه .

وأحب أن يعلم من في مصر ومن في لبنان أني لا أنودد إلى أهل
العراق ، وإنما أحمدا لله عز شأنه على أن شرفني بخدمة الأدب العربي
في العراق ، وأحب أن تعرفوا جميعا أن زكي مبارك لا يخاف إلا ربه
ولا يؤذيه أن تحاربه جميع الجرائد والمجلات في سائر الأقطار
العربية .

ثالثاً - عجبتم من أن أرد عليكم في مجلة الصباح لأنها في رأيكم
مجلة المطربين والمطربات . وأحب أن أقول لكم بعبارة صريحة
مكشوفة إنني أعرف صاحب مجلة الصباح منذ ثمانية عشر عاماً ،
فلم أعرف فيه غير الأدب والصدق والوفاء ، وأعرف المحررين في
مجلة الصباح معرفة تكفي للثقة بأماتتهم ونزاهتهم . ومن أجل ذلك
أكتب في مجلة الصباح من حين إلى حين ، بل أرى من الواجب أن
أساهم في تحريرها كلها ساعدت الظروف .

ومن التحكم أيها السيد أن تطلبوا مني أن أرى الدنيا بعيونكم ،

ومن التحكم أن تقولوا إن المجلات التي تمثل مصر هي الرسالة والمقتطف والهلال ، فهذه حقاً مجلات جيدة ، ولكن في مصر عشرات من المجلات تصور جوانب كثيرة من المجتمع ، ولا يمكن الغض من قيمتها الأدبية إلا إذا أنكرنا الحقائق على نحو ما تفعلون في بعض الأحيان .

رابعاً -- زعمتم أني أكدت أن المودة في لبنان مودة عابرة كسحابة الصيف ، وهذا منكم تحريف لكلامي ، وهو تحريف لا يقع فيه رجل سليم الطوية .

ويهمني والله أن أسألكم : كيف جاز لرجل مثلي أن يقضى في مدينتكم ليلة واحدة ولا يسلم من الأقاويل والأراجيف بالرغم من حرصه الشديد على التعرف إلى من فيها من الأدباء ، مع أني صحبت جماعة من أدباء تونس سنين عديدة ولم تمسني منهم كلمة سوء ، ومع أني أقمت في بغداد أشهراً وأنا أصاول وأجادل كل يوم ولم أسمع من العراقيين كلمة ينفر منها الذوق .

خامساً -- زعمتم أني أقيس الأدب بمقياس الصداقة ، ونسيتم جهودى في تحرير الأدب من النزعات الشخصية ونسيتم أني أول من رفع أعلام النقد الأدبي في العصر الحديث .

سادساً -- أكدت لقرائكم أنكم تفرقون بين الأدب والصداقة وأنى سأجد فيكم دائماً أصدقاء أوفياء يعربون عن عواطفهم الخالصة

بالأعمال لا بالأقوال . فأين مصداق ما تقولون وقد حملتموني على
الندم إذ تعرفت إليكم ، وسليت عليكم ؟ ألا ترون أنه كان الأنفع أن
أمر بمدينة بيروت فلا أرى غير الجدران ؟ ولكن ما قيمة الجدران
بدون الرجال ؟ وهل كانت بيروت أجمل مدينة حتى نضيع الوقت
بالمرور عليها ؟ إن يوما واحداً في الأسكندرية أجمل من قضاء
الدهر كله في بيروت ، فأعزّوا مدينتكم بحسن الأدب ، يا أدباء
لبنان ، والسلام .

الشهرة مرض مزعج !

صديق

رسالتى فى هذه المرة قصيرة جداً ، وهى فى التألم من مرض الشهرة ، ذلك الداء العضال الذى لا يرجى منه شفاء .

الشهرة مرض مزعج ، ولا يعزىنى إلا شىء واحد ، هو أنى لم أسع أبداً إلى الشهرة ، وأنت تعرف أخلاقى : أنت تعرف أنى لم أنفق فى حياتى درهماً واحداً فى سبيل الشهرة كما يفعل من يشتهرون الشهرة بوسائل مختلفات !

ولكن هذه الشهرة الجذابة التى يبدل فى سبيلها الناس ما يبذلون أصبحت تزعجنى وتعطل أعمالى ، بحيث أصبحت وأمست لا أفتح بيتى لطارق وإن طال وقوفه بالباب ، وما أكثر من يطرقون بابى ثم يأسون !

وفى مساء هذا اليوم وقع حادث طريف هو من جنائيات الشهرة فقد دخلت المنزل الذى أقيم فيه فرأيت جماعة من السكان ينتظروننى ، أتدرى لماذا ؟ ليقولوا فى صوت واحد :

يحيا شارع فؤاد ! تحيا الزمالك ! تحيا سنتريس ! تحيا الرسالة !
يحيا الصباح !

وقد ظننتهم سكارى فدخلت وأغلقت الباب بالمفتاح ، وشرعت
فى أعمالى التى ستعرف بعض شواهدىا يوم ألقاك ، وظلوا هم
يهتفون حتى يثسوا من خروجى إليهم ، وكنت على الرغم من
أشغالى أستمع فلا أراهم ينطقون بغير الجميل ، وهل ينطق العراقى
بغير الجميل ؟

والآن وقد فرغت من أعمالى فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل
أستمع فلا أسمع شيئاً ، فأفهم أن جيرانى ناموا وعلى شفاههم يحيا
شارع فؤاد ، تحيا الزمالك ، تحيا سنتريس ، تحيا الرسالة ،
يحيا الصباح !

ثم أتذكر أن فى مصر ناساً ينامون ملء الجفون ولا يخطر ببالهم
أن فى العراق رجلاً مصرياً يشقى ويكدح ليجعل لمصر صوتاً
فى العراق

متى تسكرون لتقولوا كلمة الحق ، كما سكر جيرانى فقالوا
كلمة الحق ؟

سهرات المسيو دى كومنين

مضت أعوام وأعوام وأنا لا أعرف التسويد ولا التبيض ،
فكيف اتفق أن أكتب هذه الكلمة خمس مرات ، وأتردد في نشرها
أكثر من عشرين مرة ؟؟

لقد مزقت ما كتبت ، وعدت إلى فطرتى فى الإنشاء ، عدت إلى
الفطرة السليمة النقية التى صقلتها بباريس ، على أيامها أزكى التحيات
وأنا أكتب هذه الكلمة طوعاً للأواصر المتينة التى تجمع بينى
وبين المسيو دى كومنين ، فإن رضى عنها فذلك ما أرجوه ، وإن
غضب فليست أول مرة أحتاج فيها ذلك القلب النبيل .
ومن هو المسيو دى كومنين ؟

كان التعارف فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ بعد عودتى من باريس
للمرة الثانية ، وكان الذى تفضل بالشاء علىّ عند مدير الليسيه ريجلان
من أساتذتى ، هما المسيو بابانى والدكتور ضيف ، وكان المسيو
دى كومنين فى ذلك العهد مراقباً عاماً لمعهد الليسيه .

ولم يمض أسبوع واحد حتى أصبحنا صديقين ، وهى صداقة
لا أعرف كيف صرت لها أهلاً ، فقد غمرنى هذا الرجل بأفانين

من العطف ما أحسبه تفضل بها على أحد سواي ، ومضت المودة
تكبر وتعظم وتضخم حتى صار من حق أن أدخل بيته حين أشاء
ولو بعد نصف الليل .

ولم تقف الصداقة عند هذا الحد ، بل مضى الرجل إلى أهلي في
سنتريس فصادقهم وأحبهم ، وتعلق بهم وتعلقوا به أشد التعلق ،
فكان يسأل عنهم ويسألون عنه في كل حين .

واشتدت الصداقة بينه وبين أبي فكانا يتعانقان عند اللقاء ، ويأنس
كلاهما بصاحبه أنساً شديداً ، مع أن أبي كان يجهل الفرنسية ،
والمسيو دي كومنين يجهل العربية .

ولما مات أبي رحمه الله عزاني المسيو دي كومنين ببرقية مطولة
جداً ، ثم تجشم الانتقال إلى سنتريس ليعزي أهلي .
وأرجع إلى سهراتنا فأقول :

كان التكليف ارتفع بيني وبين هذا الرجل العظيم ، فكنت أمضي
إليه قبيل العشاء ، وكان لي دائماً على مائدته مكان محفوظ ، وكان
للحديث شجون وشجون ، فكنا نتكلم في كل فن ، كنا نتكلم في
الفلسفة وفي الأدب وفي التشريع ، وما أذكر أبداً أن هذا الرجل ضاق
عليه أو خياله عن شيء ، ومن المؤكد أن هذا الرجل له تأثير شديد في
حياتي الأدبية : فمن طريقه تعلمت ما فاتني أن أعلمه في السوربون .
كانت سهراتنا أول الأمر في منزله بشارع خلفي ، ثم صارت

فى منزله بشارع قصر العينى ، ثم صارت بمنزله فى عمارة الليسيه ،
وكنت أنا قطب الدائرة فى تلك السهرات ، ولا أدرى كيف اتفق
ذلك ، فما أعرف أبداً أن المسيو دى كومنين أحب إنساناً فى مصر
كما أحببى ، ولا أعرف أبداً أن المسيو دى كومنين اشتاق إلى صديق
حين يغيب كما كان يشتاق إلىّ حين أغيب

وفى تلك السهرات كان يتوافد إلى المنزل عشرات من أقطاب
الرجال فيسمرون كيف شاعوا ثم يخرجون ، وأبقى أنا ، أبقى إلى
أن يفوتى الماترو ، فينزل معى المسيو دى كومنين ويصحبنى بسيارته
الأمينة إلى منزلى بمصر الجديدة .

وقد طالت صحبتنا وطالت ، وعرف المسيو دى كومنين ما ظهر
وما خفى من شؤونى فكان يصادق من أصادق ويعادى من أعادى ،
وقد مرت بى ظروف حرجة جداً لم أجد فيها من يواسينى غير ذلك
الصديق العظيم .



وفى أحد الأمسية كنت فى مجلس أنس مع جماعة من الأصدقاء
فى صيف سنة ١٩٣١ ولكن المجلس تكدر علىّ بلا سبب أعرفه
فقضيت السهرة وأنا حزين ، وفى الصباح عرفت السبب فقد ذهبت
إلى المسيو دى كومنين فوجدته فى صورة أخطر وأفتك من صورة
الأسد الغضبان ، ورأيت أنه قد كتب إلىّ خطاباً سوّده وبيضه نحو عشر

مرات ، وعند العتاب عرفت أن جماعة من الزملاء زاروه في المساء وترجموا له كلمة نشرتها في جريدة البلاغ وفيها أن الفرنسي متحول متقلب لأن جوّ فرنسا متحول متقلب ، وأنه كما يجب عليك في يوم الصحو أن تحمل مطريتك لئلا تمطر السماء على غير موعد فكذلك يجب أن تحترس من الفرنسي البسام لئلا يثور على غير موعد .

فقلت : وما الذي يزججك من هذا التصوير الطريف يامسيو دي كومنين ؟ .

فقال : التصوير لم يزججني وهو يدل على ذكاء ، ولكن الذي أزججني ألا تحب فرنسا من أجل صديقك المسيو دي كومنين كما أحب مصر من أجل صديقي زكي مبارك .

وكان أعظم درس تلقيته في حياتي فصرت لا أرى البلاد إلا في صورة من أعرف فيها من الأصدقاء .



وبعد سنين من هذه المودة الغالية دخلت منزلي فعلمت أن المسيو دي كومنين طلبني بالتليفون أكثر من عشرين مرة فمضيت إليه مسرعاً فقابلني باسمياً وهو يقول : تعال ، تعال ، عندي خبر مهم جداً ، جداً ، عندي خبر يشرح صدرك . فقلت : هات ما عندك . فقال : يجب أن تعرف أن لمصر ملكاً عظيماً .

وكان ذلك في اليوم الذي تشرف فيه المسيو دي كومنين
بإعطاء أول درس في الأدب الفرنسي لحضرة صاحب الجلالة
الملك فاروق

وبعد أشهر افتتح معهد اللبسيه بمصر ، وعين المسيو دي كومنين
مديراً لذلك المعهد ، فابتسم وقال : أصبحت جارك يادكتور مبارك
وبعد أيام طلبتني حكومة العراق فتذكرت نصيبي من سهرات
المسيو دي كومنين ، ذكرت نصيبي من تلك السهرات في حسرة
ولوعة ، فمضيت إليه وأنا أرجو أن يصدر أمره العالي بمنعني من
السفر إلى العراق ، ولكن الرجل أخلف ظني ، فقد قال : إن سفرك
إلى العراق واجب يادكتور مبارك ، لأنك شغلت نفسك أعواماً
طويلة بأدباء العراق ، ورؤية تلك البلاد تعود عليك بأعظم النفع ،
ولو أنك فكرت في السفر إلى فرنسا لمنعتك لأنك عرفت
فرنسا وعرفتك

ثم دعاني المسيو دي كومنين إلى وليمة عشاء قبل الفراق
ويا لها من سهرة ويا له من عشاء !!
لم يكن عند المسيو دي كومنين غير جملة واحدة يرددها وهو
محزون :

«لقد فرحت باننقالى إلى مصر الجديدة لأكون بجوار الدكتور مبارك وما كنت أعلم أن الأقدار ستحكم بفراق الدكتور مبارك»
وفى اليوم التالى نشر الجورنال ديجيت أنى مسافر إلى العراق فلم
يبق فرنسى يعرفنى بالقاهرة إلا وهو يسأل بالتليفون كيف أسافر
وأترك المسيو دى كومنين

وكانت أبلغ تحية تحية المسيو كازاتى الذى لم يرنى غير مرة واحدة
وأنا اليوم أعيد الأيام والليالى لأعرف متى ألقى المسيو
دى كومنين

فما هذا الضعف النليل الذى يربطنى بأصدقائى إلى هذا الحد ؟

ما هذه العواطف التى تقض مضجعى وتشرد نومي ؟

سألتنى بإذن الله يامسيو دى كومنين

سأعود إلى المنزل الذى تشهد أحجاره وأشجاره بأنى أكرم

صاحب وأشرف صديق

سأعود إلى الصديق الذى لم يكن يثق بأحد سواى

سأعود إلى الصديق الذى عميت عينه عن عيوبى فسكنت عنده

أعظم الرجال

سأعود بإذن الله إلى الرجل الذى يتحلى بأخلاق الملوك وكان

أجداده من الملوك

سأعود أذنأى إلى الأنعام الفرنسية التى يجود بها ذلك

الفهم المعسول .

سيعود لسانى إلى الانطلاق بلغة أناطول فرانس فى حضرة

المسيو دى كومنين

سأسهر مع المسيو دى كومنين فى سينتريس ، ولكن كيف وقد
مات أبى ؟ إن موتك يا أبتاه حرمنى لذة الشوق إلى الأعياد
والأفراح ، فاشهد عند ربك أتى من الأوفياء .

غرام «مى» بالرافعى

قالت مجلة المكشوف :

كان الدكتور زكى مبارك قد صرح لأحد الأدباء في بغداد أن لا صحة البتة لما زعمه الأستاذ محمد سعيد العريان من غرام الرافعى بـ «مى» . وكان من المنتظر أن يؤيد الدكتور مبارك تصريحه هذا بوقائع صريحة تنفي هذا الغرام الذى شككنا فيه منذ اللحظة الأولى لأسباب لا مجال للتبسط فيها الآن .

ولكن الدكتور مبارك آثر البقاء على الحياد في هذه المعركة ، مع أنه اعتاد خوض معارك أقل شأنًا من هذه . ولم كان خروجه عن هذا الحياد مفيداً لو عرف ! .

إلا أننا قرأنا في عدد « الرسالة » الأخير كلمة للدكتور مبارك حول ما ينشره الأستاذ العريان عن خصومات الرافعى استطرد فيها الكاتب إلى ذكر « فلانة » ، - أى مى - فقال : « وقد آذاني ما كتبه (والضمير عائد إلى الأستاذ العريان) عن « فلانة » ، التى جلست معى جنباً إلى جنب أربع سنين في الجامعة المصرية ، وعرفت من شؤونها ما لا يعرف . »

ووقف الدكتور مبارك عند هذا الحد من كلامه عن « مى » ، وعلاقة الرافعى الغرامية بها . فهل يعنى ذلك أن الأستاذ العريان تخيل هذه العلاقة ، أم يعنى أن هذه العلاقة قامت بين الرافعى ومى على غير الشكل الذى يصفها فيه الأستاذ العريان ؟ .

أما الأوساط الأدبية التى تتبعت فصول الأستاذ العريان فتطالب الدكتور مبارك بإفصاح عن فكره ، لأن ما كتبه حول هذه المسألة غامض ، ولا يفيد شيئاً . ولعله يغتم هذه الفرصة لبسط ما يعرفه من شؤون « مى » ، فيلقى نوراً جديداً على هذه الناحية الطريفة في شخصيتها الأدبية .

حضرة الأستاذ محرر المكشوف .

أقدم إليك أصدق الشوق إلى لقائك ، فإن اللحظات التي قضيتها
عندك لم تكن كافية للتعرف إلى أدبك ولطفك ، وأعتذر عن
الجواب الذي يفصل ما أجملته في الكلمة التي نشرتها بمجلة « الرسالة »
عن غرام مـى بالرافعى ، وهو الغرام الذي تخيله أو ادعاه حضرة
الأستاذ سعيد العريان .

وأنت تعرف أنى لا أبالى المعارك القلبية ، ولكن موقفي في هذه
المسألة دقيق ، لأنى قد أتهم الرافعى ، رحمه الله ، بالتزيد وسوء
الأدب ، إن صحت رواية العريان ، وكان للرافعى أن يحب من يشاء ،
ولكن القول بأن مـى أحبته وأغرمت به وتهافتت عليه ، كلام لا يقول
به إلا إنسان مخبول .

بقى الكلام عن سرائر مـى وكانت لها سرائر من الحب الدفين ،
فهل ترى من الذوق ، ياسيد فؤاد ، أن نفصح عن هذه السرائر تلبية
لما سميت به أنت رغبة الأوساط الأدبية ؟ .

لقد حدثتمونا أن مـى لا تزال صحيحة ، فلتعرف في صحتها المنشودة
أن فى الدنيا أصدقاء نبلاء يبغضون اللغو والفضول .

اعذرني أيها الصديق ، إذا طويت ما أعرف من شؤون الأنسة مـى
وقد صحبتها أربع سنين فى الجامعة المصرية يوم كانت أطيّب من
الطر ، وأرق من الأملود المطلول .

وغضبة الله على الأدب والأدباء إذا استطاعت الألسنة أن تمضغ
ذلك العرض النبيل ! .

أيها الزميل

أرجو أن تذكر أن الذى كتب ذلك الكلام هو أديب عريان ،
وبعض أهل العري لا يستحون ! .

هذا ، ولا يفوتنى أن أشكر من أنطقونى بما لم أقل يوم مررت
على بيروت ، وكان اختراعهم فرصة لمناوشة الأقلام على صفحات
« المكشوف » فقديمًا قيل :

هنيئًا مريئًا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحللت
جعل الله بلادكم من حصون اللغة العربية أبد الآبدين .
وتقبل تحية المشتاق إليك وإلى إخوانك المحررين فى مجلة
« المكشوف » .

غزال يترنح في شوارع بغداد

صديق

هاك القصة الآتية :

استأنفت أعمالي بالأمس في الساعة الخامسة بعد الظهر ، وما زلت أدرس وأراجع حتى رأيتني في الساعة الثانية بعد نصف الليل فهالني الأمر ، لأنني قضيت تسع ساعات في نفس واحد ، وأسهرت فأويت إلى فراشي ، ولكنني استيقظت قبل الشروق ، فعدت إلى العمل من جديد ، وظللت كذلك حتى الظهر ، فلم يكن بد من الطواف على شاطئ دجلة لأريح أعصابي ، فكانت تمر السيارات فيسلم عليّ راكبوها بدون أن أعرفهم فأقول في نفسي : هؤلاء أهل ليلى المريضة في العراق !

وفي رجوعي إلى البيت رأيت رجلا يقود غزالا في شارع الرشيد ، غزالا وحشيا من سكان الصحراء ، فاستوقفت الرجل وقلت يا عمي ، بكم تبيع هذا الغزال ؟ فقال : تريد كلبة واحدة ؟ فقلت : نعم ! فقال : ثمنه ثلث دينار . فاستصغرت الثمن وتجاهلت كلمته ثم قلت : ثمنه دينار ؟ فقال : نعم . ثمنه دينار . فمددت يدي إلى الغزال لأرى عينيه فقد طال عهدي بعيون الأطباء ، ولكن الغزال كان يرتعد من الخوف ! وهي أول مرة تخافني فيها الأطباء !

ولم تمض لحظة حتى اجتمع من حولنا الناس ، وكان في نيتي أن
أشترى ذلك الغزال ، ثم تذكرت أن الأطباء تأكل حب القلوب ،
وتذكرت أن قلبي لم تبقى منه بقية يعيش منها الأطباء
ولاحظ الرجل ترددي فقال : إن هذا الغزال لا يشرد أبداً ،
فهو يترك في حوش البيت بلا خوف

وعندئذ وجدت الفرصة للتخلص فوضعت فمي على أذن الرجل
وقلت (أنا أعرف ياعمى أنك مستعدّ لبيع هذا الغزال بثلاث دينار ،
وهذا المبلغ لا يضايقني ، ولكنني أحب لك الخير وأرجو أن تبيعه
لغيري بدينارين ؛ أنت قلت إنه غزال لا يشرد ، لتجذب إليه
الراغبين ، والأصلح لك ياعمى أن تقول إنه غزال شرود لترتفع
قيمته في أعين الراغبين)

وما كدت أنفحه بهذه النصيحة حتى مضى وهو يصيح : غزال
شرود لا يقيم على عهد ، ثمّنه عشرون ديناراً فقط ، فأين من يعرف
قيمة الظبي الشرود !!

أسئلة أدبية

موجهة إلى أستاذ الأدب العربي في دار المعلمين العالية بالعراق

الأستاذ الدكتور زكي مبارك

نرجو من الأستاذ الدكتور زكي مبارك التفضل بالإجابة على

الأسئلة التالية :

١ — من هو الشاعر الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر

شعراء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٢ — من هو الأديب الذي تعتقدون بحق وإخلاص أنه

أحسن أدباء العربية في الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٣ — ما هي الأسباب الرئيسية التي أخرجت النهضة الأدبية في

في العراق ، ثم ما هي الأسباب التي تساعد على النهضة الأدبية في

العراق ؟ .

٤ — ما رأيكم الصريح في الصحافة العراقية اليومية والأسبوعية

وهل تقوم بتأدية رسالتها ، وما هو السبيل إلى رقيها ؟ ؟

جريدة الهدف

لكل سؤال يابئين جواب

حضرة الأستاذ محرر الهدف

قرأت أسئلتك . وهى حيلة صحفية لطيفة . ولكن يظهر أنك تريد أن تجرني إلى ضروب من الجدل تنفع جريدتك وتضيع وقتي ، كما يصنع معى الصحفيون المصريون ، أرانى الله وجوههم بخير وعافية .

فما رأيك إذا أجبتك إجابة قاطعة تضيع فيها حيلتك هذه المرة ؟

السؤال الأول : من هو الشاعر الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر شعراء العربية فى الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

وأجيب بأن هذا السؤال يشهد بأن فيكم رجعة إلى العقيدة التى كاد يتفرد بها الشرق وهى عقيدة التوحيد ، فالشرقيون كانوا أول من آمن بالوحدانية ، وحدانية الله ، حتى قال القائلون إن مصر سبقت أمم الشرق إلى التوحيد بفضل الملك الشاعر أخناتون .

وأنا بحمد الله أو من بأن الله منزه عن الشريك . ولكنى أكره أن أكون «موحداً» فى الآداب والفنون ، فلا يسوغ فى ذهنى أن

يقال : من هو أشهر شعراء العربية ؟ ومن هو أعظم كتاب العربية ؟
ومن هو أفصح خطباء العربية ؟

وقد اتفق لي من قبل أن احارب مجلة الحديث الحلبية حين
زعمت وزعم بعض قرائها أن الدكتور طه حسين أكبر أديب ،
فقلت إن الدكتور طه أشهر أديب وليس أكبر أديب .

وكنا في مصر نجعل شوقي أمير الشعراء ؛ ولكنكم لو رجعت
إلى الجرائد والمجلات لرأيتم مئات المقالات في الثورة على ذلك
اللقب مع ما تعرفون ويعرف العرب جميعاً من عظمة شوقي .

والرأى عندي أن يقوم فريق من الناقدين بالبحث عن الشعراء
المغمورين فقد تكون فيهم مواهب يقتلها الخمول ، وقد اقترحت
مائة مرة ومرة أن يؤلف كتاب يجمع الأطايب من الشعر
الحديث في جميع الأقطار العربية على نحو ما صنع الثعالبي في القرن
الرابع ، ولكن يمنع من ذلك أن العصر الحاضر ليس فيه رجل
واحد يملك من الإخلاص ما كان يملك الثعالبي ، فأهل هذا العصر
يغلب عليهم الحقد ولا يحب أحدهم خيراً لأخيه ، ولا ينبغ النابغ
في زماننا إلا إن كان فيه من الحيوية ما يرغم حاسديه على أن يخلوا
له الطريق .

وقد اتفق مرة للدكتور عبد الوهاب عزام أن يثنى على الرافعي

في مجلة الرسالة ثناء مستطاباً ثم حدثني بعد ذلك أنه لقي مرة العتب
من بعض الأصدقاء

ولما مات شوقي رثاه صاحب البلاغ بكلمة طيبة ، ولكنه
وجد من يعترض بأن شوقي لم يكن من الوفديين ، ومعنى ذلك أن
الخصومة السياسية قد تنقلت إلى خصومة أدبية .

هذا اقتراح أذعته في مصر ثم ضاع ، فهل ترون من الخير أن
أقدمه إلى أدباء العراق ؟

ويسرني أن أعلن بلا موارية وبلا تكلف أن الله نجاني من هذا
المرض البغيض : فما أذكر أبدأ أني جمحت الحق ، وربما كنت
أشجع أهل هذا العصر لأنني أنصف أعدائي ، في زمن يضن فيه
الأصدقاء بالإنصاف

وخلاصة القول أني أنكر التوحيد في الآداب والفنون ، وذهني
يسيع الحكم بأن أبا تمام في باب شعر من البحري في باب ،
والبحري في باب شعر من أبي تمام في باب ، والمتنبى شعر من
الشريف الرضي ، والشريف الرضي شعر من المتنبى ، وشوقي
أعظم من حافظ ، وحافظ أعظم من شوقي ، والرصافي أعظم من
الزهاوي ، والزهاوي أعظم من الرصافي ، وزكي مبارك في باب
أعظم من الجميع .

وهذا الكلام يحتاج إلى توضيح ، وقد بينته في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

السؤال الثانى . من هو الأديب الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أحسن أدباء العربية فى الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟
وأقول مرة ثانية إن فيكم رجعة إلى عقيدة التوحيد ، مع أن الشرك أفضل فى هذا المجال ، ولكن لا بأس من الإشارة إلى أن الأدباء المصريين فى الوقت الحاضر يتساهلون جميعاً إلى هذا اللقب الطريف . وسيموت منهم ناس قبل الأوان بفضل الكدح ، وأخشى أنى أقول مثلاً إن خصومتى مع الدكتور طه حسين ستقصف عمرى ، لأنى أحاول طرد مؤلفاته من الأسواق لتحل محلها مؤلفاتى ، ولاغتصب ما ادعاه لنفسه من زعامة الأدب العربى ، وستنقل جرائد مصر هذه الكلمة وسيبيت الدكتور طه مؤرقاً لأنه سيتذكر أنه لم يؤلف كتاباً فى قوة كتاب النشر الفنى
ومن شواهد هذا النضال تلك الحمى المخيمية التى ترونها فى أدباء مصر ، وإلا فما الذى يوجب أن نرى اسم العقاد واسم المازنى فى جميع الجرائد والمجلات ؟
وما الذى يوجب أن يصبح هيكل أعشى لا يكاد يبصر بفضل شهر الليل ؟

وما الذى يوجب أن تهجم الشيخوخة على الأستاذ أحمد أمين ؟
ولأى سبب يذوى غصن الأستاذ محمد عبد الله عنان حتى كاد
يضاف إلى الفانين ؟

إنّ الأدباء المصريين مجانين ، وهم سيقتلون أنفسهم ، وسيقتلوننى
معهم ، لا عفا الله عنهم ، ولا حشرهم إلا فى زمرة السفهاء .
على أن المصائب لا تخلو من منافع ، فهذه المنافسة التى ستصرعنا
جميعاً هى التى جعلت هذا العصر أعظم عصور اللغة العربية ، هى التى
جعلت المطابع المصرية تخرج فى كل عام نحو أربعة آلاف كتاب
وهى التى جعلت الأديب العربى يستطيع أن يجد فى كل يوم كتاباً
جديداً يقرؤه بلذة وشوق ، والتى جعلته يعجز عن متابعة ما ينشر
فى الصحف والمجلات . وهذا أمل كنت دعوت إليه منذ سنين
فتحقق بأقوى وأعنف مما كنت أريد

* * *

أترانى أخلفت ظنك فى الجواب الأول والجواب الثانى ؟
لا بأس فقد تجد شيئاً فى الجواب الثالث أو الرابع
تسأل عن الأسباب الرئيسية التى أخرجت النهضة الأدبية
فى العراق ؟

وهمنى هذا أنك تقول بتأخر النهضة الأدبية عنكم ، فاسمح لى
بتسجيل هذا القول ، فإنه مهم جداً ، وهو يشهد بأن النهضة الأدبية

موجودة بالفعل ، وعدم الرضا عما تملك يشهد بأنك أهل لأكثر مما تملك ، وأنا أحتفظ بآرائى فى نهضة العراق إلى الوقت الذى أتدخل فيه من التشرف بخدمة العراق ، فقد يقال إنى ضيف يحدوه حسن الأدب على الرضا عن كل ما فى البيت ، مع أن الواقع أن فى العراق نهضة أدبية تستحق الاهتمام والتشجيع ، وليت الزمن يسمح بتسجيل آثارها بعد حين ، على أنه لا مفر من الاعتراف بأن النهضة الأدبية الحاضرة أقل مما ينتظره الأدب من العراق والأسباب الرئيسية كثيرة ، أهمها ما يأتى :

أولاً — كان التعليم فى العراق باللغة التركية إلى عهد قريب ، وكان من أثر ذلك أن أصبح أكثر الرجال المثقفين لا يملكون القدرة على الإنشاء والتأليف باللغة العربية كما يملكون ذلك باللغة التركية ، فهم فى أنفسهم أدباء ومفكرون ، ولكنهم يعجزون عن تغذية النهضة الأدبية ، وهذا العائق لن يدوم لأن الجيل الحديث يتعلم باللغة العربية

ثانياً — شغلكم النضال السياسى عن الأدب فضعف النشر والتأليف

ثالثاً — وزارة المعارف عندكم مشغولة بإعداد المدرسين ، ويمنعنى الذوق من التصريح بأنها مصروفة عن إعداد الأدباء والمؤلفين ، ولعلها تعدل منهاجها بما يجمع بين المزيين

أما الوسائل التي تعين على تقوية النهضة الأدبية في العراق
فكثيرة وميسورة

ويحسن النص بوضوح على وجوب الإكثار من البعثات إلى
القاهرة فإن القاهرة تؤدي في العصر الحديث ما كانت تؤديه بغداد
في العصر العباسي ، وهذه البعثات المنشودة يجب أن تكون تحت
رعاية رجل مسئول ، فالقاهرة مدينة كبيرة ، وفيها عيوب المدائن
الكبيرة ، والمحاسن الحقيقية في القاهرة تحتاج إلى دليل . ولو
استطاع الشاب العراقي أن يعيش في القاهرة عيش الموقنين لكان
في مقدوره أن ينفع وطنه أجزل النفع حين يعود

فما الذي يمنع من أن يكون لكم في القاهرة دائرة تسمى البعثة العراقية
ما الذي يمنع أن يكون لكم في القاهرة خمسون أو ستون
يتخصصون في الدراسات الأدبية ليعودوا فينشئوا في بغداد
مدرسة مثل دار العلوم أو معهداً مثل كلية الآداب ؟

إن هذه البعثات التي أنشدها ستنتفع العراق من ناحيتين

ستنتفع من الوجهة الأدبية ، وستنتفع من الوجهة العمرانية .

أما الوجهة الأدبية فظاهرة ، وهي كفيلة بأن تخلق التنافس الأدبي
بين القاهرة وبغداد . وأنا أتطلع إلى اليوم الذي يقع فيه هذا
التنافس لتزداد القاهرة حياة إلى حياة .

أما الوجهة العمرانية فتحتاج إلى شرح :

وبيان ذلك أن القاهرة في هذا العصر أصبحت مدينة هائلة جداً

ولا يعرف قيمتها إلا من يراها رأى العين ، وفيها ضواح لا تعرف
أمثالها بباريس ، والشاب العراقي حين يعيش في القاهرة ويرى
الزمالك والجيزة والمعادي وحلوان ومصر الجديدة وحدائق القبة
سيدكر ولا ريب أن من واجبه أن يفنى عمره في تجميل بغداد ،
ولا بد للعراق من شبان يؤذيهم أن تظل بغداد على ما هي عليه ، ولا
مؤاخذه ياسيدي ، فأنا متألم لحال بغداد ، ولو كان بيدي شيء من
الأمور لأريتكم كيف يكون تخطيط عاصمة الرشيد .
هذه وسيلة .

أما الوسيلة الثانية فأيجاد الجوائز الأدبية ، ومن الممكن تخصيص
ألف دينار في كل سنة توزع منها الجوائز على المتفوقين في اللغة
العربية ، ولو صنعت ذلك لضمنتم الظفر بطلائع الحياة الأدبية ،
وأظنني ضمننت لكم جائزة النحو في البصرة : فقد أقيمت فيها محاضرة
ثم اقترحت على سعادة المتصرف وسعادة مدير المعارف هناك
إنشاء جائزة نحوية ، فإن من العيب أن لا يتفوق أهل البصرة في
النحو ، وكان أهلها أساندة الناس في هذا الباب ، ضمننت لكم هذه
الجائزة لأن من العسير أن يخذلني سعادة متصرف البصرة ، أو
سعادة مدير المعارف بالبصرة ، وهما قد وعدا بتحقيق هذا الاقتراح
أمام جمهور يعد بالملئات ، وسأنتظر شرف الإنجاز في وعود الرجال
قد تقولون : وهل في مصر جوائز أدبية ؟

وأجيب بأن في مصر جوائز عظيمة جداً ، وهي خذلان الأدباء ،
ولعنة الله على الزمن الذي يضطرنى إلى اغتيال مصر في العراق .
أستغفر الله فقد تلقيت اليوم خطاباً من كلية الآداب بالجامعة
المصرية هذا نصه :

« حضرة الدكتور زكى مبارك

لمناسبة مباشرة حضرة صاحب الجلالة مولانا فاروق الأول
سلطته الدستورية وما قررته دار الكتب المصرية من منح هدايا
لأوائل الناجحين في الدراسات النهائية للجامعة المصرية ترجو
الكلية الطالب إفادتها عن اسم وعنوان من يوكله بمصر في استلام
الكتب الموضحة بعالیه الخاصة به بأقرب فرصة لإرسالها إليه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

ثم إمضاء حضرة سكرتير كلية الآداب .

والخطاب لطيف ، لأنه وثيقة رسمية تشهد بأننى كنت من
أوائل الناجحين في الدراسات النهائية للجامعة المصرية ،

ولكن أتعرفون ماهى هذه الجائزة ؟ هى نسخة من ديوان مهيار
ونسخة من ديوان صرّدر ، ولكم أن تتصوروا مبلغ فرحى بهذه الجائزة
حين تعرفون أنلى أبحاثاً عن أشعار هذين الشاعرين عرفها قراء مؤلفاتى
منذ أكثر من عشرين سنة ، فلم يبق إلا أن يمنحونى نسخة من كتاب

القراءة الرشيدة ١١

ولو كانت الجامعة المصرية تعرف السبيل إلى تشجيع أبنائها
لسألتني عن كتاب التصوف الإسلامي ، وهو كتاب مخطوط يقع
في أكثر من ألف صفحة أنقله معي من أرض إلى أرض إلى أن
يسمع بأخباره رجل منصف فيتطوع بطبعه لوجه الله والأدب
قبل أن أموت ، وليت حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول
يسمع هذا الصوت ، فمن الموضع أن يموت كتابي عن التصوف
الإسلامي وفي مصر ملك يسره أن يشجع كبار المؤلفين ، وقد
أصبحت مؤلفاً كبيراً من حيث لا أحسب ولا أريد .

والاستنجاد بالملوك لا يغض من كرامة الرجال
ليس في مصر جوائز أدبية ، فليشرع العراق هذه الشريعة
وليكن أول قطر عربي يمنح الجوائز للمتفوقين في اللغة العربية .

فإن كان هذا الكلام يؤذي مصر فلتسكذبني ولتذكر متى
استطاعت ولو مرة واحدة أن تشجع التأليف بعد شهامة الخديو
إسماعيل .

إنما يعيش الأدباء المصريون في حماية أقلامهم ، ولم يستطع
أديب مصري أن يشرب فنجاناً من القهوة المرة باسم الأدب ، إلا
إن رعاه رجل عظيم كالذي وقع للمنفلوطي مع سعد زغلول .
أما الوسيلة الثالثة فهي إنشاء الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

ولو شئت لرددت اسمها ألف مرة ، وستعرفون ما أصنع بعد
أن أرحل عن العراق : فسأكتب في جرائد مصر أن العراقيين
لا يرعون حقوق بغداد ، سأغتابكم بإذن الله أعنف اغتياب ، وسأقول
إن العراقيين يؤجلون إنشاء الجامعة إلى أن يقضوا على الأمية ،
مع أن القضاء على الأمية قضاء مطلقاً سيما العراق بالعاطلين
وسيحرم العراق من السواعد الشداد ، سواعد الفلاحين الذين
يتقربون إلى الله بالجهل . والذين يسمع الله أصواتهم قبل أن يسمع
أصوات العلماء ، سأكتب في جرائد مصر وسأقول في الأندية
المصرية إن أهل العراق يجهلون الحقيقة الواضحة ، الحقيقة التي تقرر
أن النهضة العلمية والأدبية يقوم بها مئات ولا يقوم بها ملايين ،
وهل ارتفعت الأمية في عهد الرشيد أو عهد المأمون ومن إليهم
من الخلفاء ؟

اسمع هذه الكلمة أيها الأخ العزيز : إن مصر في هذا العصر
تسيطر بالعلم والأدب على جميع الاقطار العربية
فهل تظن أنها تملك هذه السيطرة لأن فيها ستة عشر مليوناً
يقرأون ويكتبون ؟ هيهات
ففي مصر خمسون رجلاً فقط من بين هذه الملايين ، وهؤلاء

الخمسون هم الذين يرفعون اسم مصر في الميادين الأدبية والعلمية
والتشريعية والاقتصادية

ولو جاء رجل مجرم وشنق هؤلاء الخمسين لأصبح القطر المصري
في صفوف الجهلاء . ولتوضيح ذلك أقول :

إن لواء المنوفية في مصر كادت تنعدم فيه الأمية ، وهناك قرية
فيها نحو عشرة آلاف ليس فيهم أمي واحد ، ومع ذلك لم ينبغ
فيها نبوغاً ظاهراً غير رجلين اثنين

ما أحب أن أسترسل في الشواهد ، وإنما أحب أن أقرر بصراحة
أن إنشاء الجامعة العراقية أصبح واجباً كل الوجوب ، وكنت فكرت
في الخروج إلى الميدان لهذه الفكرة الشريفة ، ثم رأيت أنني لا أعرف
من أخطب ، وإلى من أتوجه ، لأنني مع الأسف غريب ، وإن كان
قلبي يحدثني بأنني لست في هذا البلد من الغرباء

وهذه أول مرة ألقى فيها سهمي ، وأطوى لوائي ، فإلى شبان
العراق وكهوله ، وإلى أدبائه ونوابه وأعيانه ، إليهم جميعاً أكل هذه
الامانة الغالية وهي فكرة الجامعة العراقية . ويجب أن تحترسوا
فسيقول قوم إن أهل العراق ينسون حقوق بغداد
وسأنظر وينظر العالم ما تصنعون

أما الوسيلة الرابعة فهي اطلاعكم على الجديد في عالم النشر
والترجمة والتأليف

والظاهر أن سوق الوراقين، وهو ما تسمونه سوق السراى،
لا يؤدي واجبه تأدية صحيحة، وأخشى أن أقول إنه لا يتصل بالقاهرة
أتم اتصال، أو هو لا يتقبل من الكتب إلا ما يعرض عليه، فليس
عنده سياسة مرسومة، لأنه يجهل أصول الاقتصاد، فالشباب العراقي
قد يتشوق إلى كتاب جديد ثم لا يجده في سوق السراى، وحين
يتنبه هذا السوق إلى الكتاب المطلوب تكون حماسة الشاب قد تفتت
وتضيع فرصة الاطلاع، وقد لاحظت أن بعض المؤلفات المهمة
يجهلها شبان العراق بفضل تكاسل الوراقين

وربما كان من الخير أن أقترح إنشاء جائزة تسمى جائزة
الوراقين تمنح لأكبر وراق تحسن سمعته في معاملة المكاتب العربية
ويصل شبان العراق بما ينشر في سائر الحواضر العربية؛ ولا ينبغي
أن نطلب معونة الحكومة في جميع الشؤون فيمكن أن تكون
هذه الجائزة شهادة تمنحها جماعة أدبية مكونة من المؤلفين
والصحفيين.

هذه أيها الأخ أهم الوسائل لتقوية النهضة الأدبية في العراق

بقى السؤال الرابع وهو الخاص بما أراه في الصحافة اليومية

والأسبوعية التي تصدر عن العراق

فما رأيك إذا هربت من جواب هذا السؤال ؟

أنا لا أخاف من الجهر بكلمة الحق ، ولكنني أعرف أن الصراحة في هذا الموطن لها عواقب ، وقد أعرض الصحفيين العراقيين إلى موقف شائك : فقد تغضبهم صراحتي فيهمجون على رجل لا يملك وسائل الدفاع .

والحق الذي يعرفه الجميع أنني رجل مشاغب ؛ ولكنني أعجز عن الشغب في العراق ، لأن الحكومة المصرية بالمرصاد : وقد يسوءها أن أشتبك في معركة أدبية فتطلبني بالبرق لا بالبريد . ومن المؤكد عندي أن الصحفيين العراقيين تأبى شهادتهم أن يهجموا على رجل أعزل ، ولكن من المؤكد أيضاً أنه لا يليق بي أن أستغل شهادتهم فأهجم عليهم ثم أحتج بحقوق الضيافة ، فليكن عندكم أتم جواب هذا السؤال

وأتهز هذه الفرصة فأقرر أن مشاغباتي لم تخرج من حدود مصر ، لأن أدباء مصر يحتمل بعضهم شر بعض ، أما الأدباء غير المصريين فكنت أتلفظ معهم في جميع الأحوال ، وكانت حجتى في ذلك أن ما أفسدته السياسة يجب أن يصلحه الأدب ، ونحن لانحمل القلم لنزق الأواصر بين الشعوب العربية ؛ وإنما نحمل القلم لنصلح ما بين القلوب

وأنتهز هذه الفرصة أيضا فأقدم أصدق آيات الشاء إلى من
أكرهوني في العراق ؛ راجياً أن لا يمر أحد منهم بمصر بدون أن
يراني ، فسأكون بإذن الله من صور العراق في مصر ، كما كنت من
صور مصر في العراق .

وأنتهز هذه الفرصة مرة ثالثة فأقدم التحية إلى من داعبوني في
الجرائد والمجلات ، فهذه المداعبات هي شاهد المودة والإخلاص ،
وسأجزئهم على مودتهم الغالية فأذكرهم بالخير عند مصدر الوحي ،
في حضرة ليلي المريضة بالعراق شفاها الله وشفاني ، وشفى من أجلها
ومن أجل جميع الملاح وجميع المفكرين .

أيها الصحفيون العراقيون

اشتموني مرة أو مرتين لأصدق أن أهل العراق ناس كسائر
الناس يحسنون ويسيثون ، فقد كادكم ينسيني أهلي وأبنائي ،
وما يجوز في شريعتكم أن ينسى الرجل حقوق الأهل والأبناء .

حقائق وأباطيل

- ١ -

وعدت ليلى ثم أخلفت

فهل تعلمين ياليلي عواقب ما تصنعين ؟

تذكرى ياليلاي أن النظام هو سر هذا الوجود .

فلو أخلف النيل لهلك المصريون ، ولو أخلفت دجلة أو الفرات

لهلك العراقيون .

تذكرى ياليلي أن الإخلاف هو سبب الموت ، فلو عرفت

الأعضاء معنى النظام لكان الموت من المستحيلات .

لو عرف الإنسان متى يأكل ومتى يشرب ومتى يستريح لعاش

على الأقل مثل ما عاش نوح ، وكان عمره أطول من صدودك ،

أيتها الحسناء الظلوم .

ليلاي

كان إخلافك جريمة ، والمجرم الأعظم هو من يثق بعهود الملاح .

- ٢ -

لى صديق عزيز جداً شاء له هواه أن يقول إنه وصل يوم كان

فى سن العشرين إلى مالم أصل إليه بعد أن جاوزت الأربعين .

وهذا صحيح فما استطعت في سن العشرين ولا الثلاثين ولا
الأربعين أن أقول لأحد أصدقائي « إني أفضل منك » .
وما أنكر أني قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب
أعدائي ، ولا عيب في ذلك فالجروح قصاص ، ولكني مع أصدقائي
مثال الأدب والوفاء .

فإن كان لأصدقائي شيء من النفع حين يزعمون أنهم أفضل مني
فهنيئاً مريئاً ، وإن كنت أتهمهم بالبخل ، إني والله أتهمهم بالبخل ،
فالحكم بأنهم أفضل مني مزية كنت أحب أن أسبقهم إليها ، ولكن
لا بأس فأنا أحب أن يكون لهم فضل السبق في كل نضال .
عفا الله عنك يا صديقي وحفظك ورعاك .

ليتني أعرف من الشاعر الذي يقول :
سيد كرنى الناسون يوم تشوكهم
شمايل من بعض الخلائق سود
سيد كرنى الناسون حين تروعهم
صنائع من ذكرى هواي شهود
فوالله ما أسلمت عهدى لغدره
ولا شاب نفسي في الغرام جحود
ولا شهد الناسون مني جنابة
على الحب إلا أن يقال شهيد

— ٢٢٤ —

— ٤ —

أنا أزن الذوق بميزان الذهب ، ولكن مع من ؟ مع صديق
يكيّل الذوق بمكيال ١

— ٥ —

لطمّنتي ليلي بالأمس فغفرت وصفحت : لأن كفها لين ، ولأن
وجهها جميل

— ٦ —

تمرت ليلي وتمردت ، فقلت : اصنعى ما شاء لك الدلال بالثيمة
فأنا آخر من يغفر الذنوب لأهل الجمال

— ٧ —

عجبت ليلي من أن أخلق لها المحاسن وهي في غاية من الشراسة
وسوء الأدب ، وأنا أعجب مما تعجب منه ليلي ، وإلا فكيف اتفق
أن أخلق لها المحاسن وهي تختلف لمحبوبها العيوب ؟

— ٨ —

أحسنّتُ وأساءتُ ليلي ، وهي مع ذلك ترجو أن أستغفر لئمن
بالغفران ١

— ٩ —

إن ليلي تجهل السبب فيما أُسبغ عليها من رفق وعطف
والظاهر أنها كالكريم الذي تجهل يسراه ما أعطت يميناه
فاعرفي يا ليلي أني لا أتصدق عليك بالرزق والعطف ، وإنما أقضى

الديون الثقال ، فقد قضيت في حماك لحظات كانت أطيب من
الآمن بعد الخوف ، وأنضر من النعيم بعد الشقاء

- ١٠ -

سألني تلاميذي : من أشعر الناس ؟ فأجبت هو الذي يقول :
لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت بياك

- ١١ -

أطلعني ليل على مقال نشرته إحدى المجلات المصرية وفيه الفاظ
غلاظ فابتسمت متكرهاً وقلت :
« جرح الأحبة عندي غير ذى ألم » - وهم والله أحباب !

- ١٢ -

السيارات العمومية في بغداد ضيقة جداً ، وردية جداً ،
والصعود إليها متعب ، والنزول منها متعب .
كنت في إحدى هذه السيارات في يوم غزير المطر كثير الأوحال
فتقدمت سيدة لتركب ، سيدة لها وجه رائع ، وجسم فينان ،
وكان صعودها إلى السيارة لا يتم بسهولة إلا إذا مددت يدي
فعاوتها على الصعود ، وما كان في ذلك بأس ، ولكنني خشيت أن
أمد إليها يدي فيتغامر الركاب ، وفيهم كسائر الناس طيب وخبيث .
وقضى الوحل والمطر أن تزلق قدم تلك السيدة وأن تفوتها
السيارة .

قلت فى نفسى : إن الناس يمين بعضهم على بعض فى قول قائلهم :
لقد ضحيت براحتى ومالى فى سبيل كيت وكيت .
فما الذى كان يمنع من أن أبتدع فناً جديداً من التضحية ، هو
التضحية بالسمعة فى سبيل الخير ؟
ليتنى فعلت وأنقذت تلك السيدة من الزلق فى الوحل .

— ١٣ —

تقول لىلى إنها ستتعبنى وأنا فى مصر كما تعقبنى أصدقائى وأنا
فى العراق .
تأدبى يا لىلى فאלله من ورائكم محيط .

— ١٤ —

ما كنت أحسب أن الليل يعقبه نهار ، وأن النهار يعقبه ليل ، وأن
المرء ينتقل من الشباب إلى المشيب ، وما كنت أظن أن المقادير
ستحكم بأن أعانى ضجر السهاد فى باريس وفى بغداد ، وما كنت
توهم أن الأقدار سترغمنى على مداراة أحبائى ، وما كنت أتوقع
أن أسمع كلمة تؤذنى من صديق يابن له الدهر فىقضى الأصائل .
والعشيات فى شارع فؤاد .

وما كان يخطر بالبال أنى أسقى الناس الشهد ليسقونى الصاب ..
ذلك حظى من أهلى وأحبائى وأصدقائى ودينائى .
لا تحزن يا قلبى ، فالعاقبة للصابرين ، وسوف تعلم ويعلمون ..

— ٢٢٧ —

— ١٥ —

لى صديق مولع بإخلاف المواعيد ، فلما عاتبته على ذلك قال :
ما أذكر أبداً أنى أخلفت معك موعداً ، وإنما أذكر أنى كنت أحضر
قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل .

فقلت : ذلك أبشع ضروب الإخلاف !
وفقهاء الإسلام نصوا على أن الصلاة لا تقبل إلا حين تجب
بحلول الوقت .

وهذا من الآداب الدقيقة التى لا يدرك أسرارها إلا الأقلون ،
وكم فى الإسلام من آداب .

— ١٦ —

لقينى صديق فقال : أنا أعجب لاهتمامك بمصالح فلان .
فقلت : وما وجه العجب ؟

فقال : إنه يغتابك عند جميع الناس .
فقلت : وما الذى يمنع من أن تتخلق بأخلاق الله ، وقد أمرنا الله
بذلك وهو عز شأنه يسبغ نعمته على الكافرين والجاهدين ؟
لقد أصبحت أومن إيماناً صادقاً بأن الكرم الحق هو أن تحسن
إلى من لا يحفظ الجميل .

ولنا فى الله - تباركت صفاته - أسوة حسنة .

— ١٧ —

ذهبت إلى فرنسا وأنا مسلم ورجعت منها وأنا مؤمن .
ولكن كيف ؟

ذلك هو السؤال !

لقيني أحد البغداديين فقال : هل هذا صحيح ؟
فقلت : ماذا ؟

فقال : إن الأستاذ علي الجارم بك ألقى خطبة في محطة الإذاعة
المصرية أكد فيها أن بغداد أدفاً من القاهرة في الشتاء .
فقلت : وأنا أجزم بأن بغداد في الشتاء أدفاً من مصر الجديدة
ومن حلوان .

فقال : أتم في سبيل المجاملة تقليبون الحقائق .
فقلت : هذا صحيح في بعض الأحيان ولكننا في هذه المرة نقرب
الحقائق لنصل إلى حقيقة أعظم وأروع .
فقال : وما هي ؟

فقلت : إن الصداقة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس واحد ،
هو أن تعتقد أن صديقك أفضل منك ، فإن اعتقدت بأنك أفضل
منه فليست بصديق .

وعلى هذا الأساس تكون بغداد أدفاً من القاهرة في الشتاء .
وقديما قيل : عين المحب عمياء .

أجمع كل من حادثوني على أن الفرق بعيد جداً بين زكي مبارك

المؤلف وزكى مبارك المحدث ، وأنا عند أكثرهم مؤلف عظيم
ومحدث سخيف

وقد بحثت عن السبب فعرفت أنه يرجع إلى أنى حين أولف
أكون مع نفسى وحين أتحدث أكون معهم هل فهمتم
يا بنى آدم ؟

لى فى بغداد أهل ، وربما كنت أول مصرى له فى بغداد أهل
وكان لى فى باريس أهل ، وربما كنت أول مصرى كان له فى
باريس أهل
فما سر هذا البخت المدهش ؟

يغلب على الظن أن السبب يرجع إلى الفطرة التى صيغت عليها
عيونى ، فما دخلت بيت صديق واستطاع بصرى أن يرى فيه شيئاً
غير جميل .

لامنى صديق فقال : ماقرأت لك كتاباً ولا مقالا ولا قصيدة
إلا رأيتك مشغولاً بالحب ، فما هذا الإسراف ؟
فقلت : لا تؤاخذنى يا مولاي فأنا أريد أن أملأ أقطار قلبى بالحب
حتى لا يوجد فيه مجال للبغض

— ٢٣٠ —

— ٢٢ —

ظهر كتاب «عبقريّة الشريف الرضى» فى جزأين ، ويقول
أهل العراق إننى أحييت الشريف ، وأشهد صادقاً أن الشريف هو
الذى أحيانى .

— ٢٣ —

كان لى فى القاهرة صديق مظلوم تساق إليه التهم الكواذب
بلا حساب ، وقد رأيت أن أكون نصيره فى بلواه ، فكنت أتردد
على منزله وكأنى أجهل مايفترى المفترون
ألا يمكن أن يكون ماظفرت به من التوفيق هو الجائزة الربانية
على وقوفى صابراً محسباً فى صفوف المظلومين ؟

— ٢٤ —

عين الرضا كليلة لا ترى العيوب ، وعين السخط حادة ترى ماخفى
من العيوب

كذلك كان الناس يفهمون

ألا يمكن أن نرفع الإنسانية قليلاً ؟

ألا يمكن أن تضعف أبصارنا عن رؤية العيوب فى أعدائنا ؟

إنك ياربى تعلم أننى أخلق المحاسن لأعدائى ، وأنا أرجو منك

حسن الجزاء

— ٢٥ —

لى مؤلفات كثيرة لم تنشر ، وقد أصبحت أرى من الواجب

أن أنفق عليها كما أنفق على أطفالي ، لتستطيع التنفس في جو
الحياة الأدبية

فيامؤلفاتي ويا أطفالي . .

رزقي وأرزاقكم على الله . .

وإن بقيت لكم فسترون بإذن الله كيف يكون كرم الآباء

لى منزل فى سنترىس تحيط به حديقة غناء

وفى ذات يوم نظرت فرأيت أبى رحمه الله يشير بإقامة (مصطبة)

بجانب سور الحديقة ، فسكت ولم أعترض

وبعد أشهر أو أعوام ضايقنى أن تكون تلك المصطبة هى المكان

المختار الذى يجلس فيه العاطلون من الفلاحين

فمضيت إلى أبى وقلت فى ترفق : أنا أقترح هدم هذه المصطبة ،

فقال : ولماذا ؟ فقلت : لأنى أراها أصبحت ملاذ العاطلين

فابتسم وقال : ولكن هذه المصطبة لها فضل على منزلك يا بنى

فدهشت وقلت : كيف ؟ كيف ؟ أوضح يا أبى

فقال : هذه المصطبة هى الوحيدة فى الحى كله ، ومن أجلها

يجلس الخفير على باب منزلك طول الليل

يرحمك الله يا أبى ، فقد كنت حكيما

— ٢٣٢ —

— ٢٧ —

وعلى مصطبة ذلك المنزل رأيت طفلاً يلعب وييده صقر جريح
وما كان صقراً وإنما كان فرخ صقر ، وبدالى أن أداعب ذلك
الفرخ فعضّ إصبعي عضّة إلّية جداً ، فتوهمته يقول : احترس من
الشجاع يوم ينهزم ، واحترس من البطل يوم يضام ، فلههزومين
من الشجعان والأبطال غضبات

— ٢٨ —

ثار تلاميذى بالأمس لأنى فرضت عليهم من الواجبات
ما لا يطيقون

معدرة يا تلاميذى فإن أستاذكم يفرض على نفسه ما لا يطيق

خطاب تهديد

من صديق ليلى الباريسية

إلى الدكتور زكى مبارك

... صاحب الصباح

أعرف أنك رجل تميل إلى إرضاء قرائك ، فتحب ما يحبون ،
وتكره ما يكرهون ، وأنا من قرائك القدماء ، لولا أن بينى وبينك
قضية ، خلاصتها أنك تحب ما لا أحب ، ومن لا أحب ، فكانك
تبخل علىّ وحدي بما تجود به على قرائك .

وقد تسألنى مثلاً لذلك ، فأقول لك - بكل اختصار - إنك تفرط
في حب رجل أنا من القلائل الذين لا يحبونه .

ثم قد تسألنى : ومن يكون هذا الرجل ؟ فأقول لك : هو
الدكتور زكى مبارك !

فإذا سألتنى عن سرّ ذلك ، قلت لك إنه يرجع إلى سنوات خلت
حينما قذفت بي الأقدار إلى باريس ، وكان الدكتور زكى مبارك
هناك آنئذ ، وكان حديث عهد بالملابس الإفريقية ، فكان
لا ينفك يقلب قبعته على مواضيع مختلفة من رأسه كما كان - في عهد
العمامة - بعمامته .

كنت طالب علم آنذاك - وإن كنت قد أخفقت فيما بعد -
و كنت لا أحب الاختلاط بإخواني من المصريين لا كبراً وإيم
الله وإنما خشية .. خشية على قلبي ، وكان هذا القاب يومئذ مفتوناً
بساحرة من بنات السين - وأنت تعرف ياسيدي مهارة بعض
الآبالسة في الإيقاع بالنساء .

خفت على ليلاى الباريسية من أن تمتد إليها أيديهم ، فأخذتها
بعيداً عنهم ، و كنت لا أتردد عليهم إلا غراراً . . ووحدي .
و كنت ذات مرة أسير معها على شاطئ السين ، وكان الغروب
يخامر السماء ، وكنا على وشك قبلة تبادل ؛ وإذا برجل لا أعرفه
ولا يعرفني ، يقترب مني ويسألني عن الساعة . والسؤال عن الساعة
هو أول درس يتعلمه المراهقون في عالم «البصبة» ، والحق أقول
إنني ظننت الرجل لأول وهلة من سكان جزيرة تقع بين الهند
وحضرموت والحبشة . فقلت لعله ساذج ، ولعله لا يقصد
«البصبة» ، فأجبتة إلى سؤاله ، بيد أنه لم ينصرف ، وسألني بنفس
اللغة : أنت شرقي أم .. فقلت له بل باريس . وأردت أن أمعن في
إبعاده ، فقلت له : وهذه زوجتي .

ولكنه بعد كل هذا ، وبعد غير هذا لم ينصرف ، بل نظر إليها
هي - لا أنا - في نهم عجيب وقال إن قسماها تشبه قسما فتاة يعرفها
في مصر - الجديدة أو القديمة - لا أذكر .

و كنت كلها حاولت اختصار الحديث أطاله ، حتى ضقت به
ذرعاً ، ولم يبق في جعبة الصبر سهم فانطلقت على سيجتي أودعه
ببعض المنتقى من قواميس بولاق وعشش الترجمان .

فقال وهو يتسم ابتسامة أوكتافوس إذ دخل مصر ظافراً :
— لقد كنت واثقاً من مصريتك ، فحملتك بسياسي على
الإقرار .. ألا تعرفني ؟ أنا زكي مبارك ، الذي لم تخف عليه خافية
في الوجود .

ووجه ناظريه الأخضرين إلى ليلاى ، وأخذ يتأمل عينيها تارة ،
وساقها أخرى .

فلم أجد بداً من تركه والمضى بفتاتي إلى حيث لم أره حتى الساعة !
ولما عدنا إلى البنسيون وكنا - أنا وهى - لا أنا وهو - نقيم في
نزل واحد ، سألتني : أكل المصريين زكيون مباركون ؟

فقلت : حاشا ، وإنما ليس في مصر غير زكي مبارك واحد ..
والحمد لله . فقالت : سى دوماج (أى يا خسارة) . وفسرت عبارتها
بقولها إن مصر لو انطوت على كثير من أمثال الدكتور زكي ، لما
بقي فيها الانجليز يوماً واحداً . فقلت لها : وهل تدرين أن جد
الدكتور زكي هو الذى أخرج نابليون - بنفس الطريقة -
من مصر ؟

والعجب العاجب - ياسيدي صاحب الصباح - أنتى لم أترك
كتاباً ولا مقالة لدوى زكى مبارك إلا وقرأته !

فكان المتنبي عنانى حين قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من « قراءته » بدّ

وهكذا قرأت له فى مقال أخير اتهامه لذوق ليلي المصرية .

لأنها فضلت عليه « الشاب الظريف » .

ياسبحان الله !

وفى مقال آخر ، يقول عن فنائنا الساحر عبد الوهاب « الصديق

السخيف » .

والله يادكتور ، لأنشرن على صفحات (الصباح) ما قاله فيك

عמוד يرم التونسي من مواويل ، وما نشر عنك من تواشيح ،

وما أذاع فيك من نكات عند أصدقائنا بباريس ، إلا أن تعتذر إلى

عبد الوهاب والشاب الظريف ، فأغفر لك .

(ب . ف)

الى صديق ليلي الباريسية

أخى وغريمى

كنت أحب أن أسأل من أنت ، فقد كان لى فى باريس كثير من
الغرماء ، ولكنى عرفتك فى لحن القول ، كما يعبر القرآن المجيد .
وكيف أنسى الصديق الذى خشى أن أسرق معشوقته فى باريس
فانتقل إلى ضاحية بعيدة لينجو بها منى ، وكان مع ذلك يدعونى
للعشاء من وقت إلى وقت ليزوق حلاوة العيش ، فقد كانت تلك
المعشوقة تبالغ فى التعطف عليه حين ترانى ، فتمسح جبينه وتسوى
شعره برفق وحنان ، والله يعلم ما كانت تصنع بعد أن أنصرف ،
فلعلها كانت تتجنى عليه لحسنها فى الصدود !

إن هذا الغريم يعرف أننا كنا قسمنا الحى اللاتينى إلى مناطق صيد
ويعرف أيضا أنى لم أكن من أهل الفجور وإنما كنت أنخذ الحب
مادة نفيسة أغذى بها الأدب والبيان .

وكتاب « ذكريات باريس » والطبعة الثانية من كتاب « البدائع »
يشهدان بصدق ما أقول ، ففي هذين الكتابين ثروة فلسفية وروحية
تصور كيف عطرت الأدب بأنفاس الحياة ، وأنت نفسك تشهد
— والله يحفظك ويرعاك — بأنى كنت فى أدبى من الصادقين .
ولكن هل تسمح بأن أذكرك بقول الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب؟
فلو لم تكن ممن ينسون - لأنك إنسان - لتذكرت أنه ما كان يجب
أن تداعبنى في هذه الأيام ، فهي عندي أيام حداد ، حداد أسود
مظلم فتاك : لأنى فقدت غريماً من غرمائى فى باريس ، فقدت غريماً
كان أرق من الزهر ، وأكثر إشراقاً من الصباح . وكان هذا الغريم
صديقاً عزيزاً ثم حملنى سوء الأدب وسوء الطالع على أن أسرق
معشوقته فى باريس ؛ فبلغ به الحقد كل مبلغ وذهب به الغضب كل
مذهب : فدبر مؤامرة لاغتيالى فى باريس . ولعل وجه العجب عند
ذلك الغريم أنه كان من النواذر فى عالم الشباب والجمال وأنه كان
يملك من الثروة ما يستطيع به شراء بلد جميل مثل سنتريس .
كان وجه العجب أن أسرق معشوقته وأنا فقير دميم ، وهو
غنى وسيم .

أما المؤامرة التى دبرها لاغتيالى فهي الشاهد على ما كان عنده من
ذكاء رائع .

كان هذا الغريم - أسكنه الله فراديس الجنان - ينوى قتلى فى
صبيحة اليوم الذى أودى فيه امتحان الدكتوراه بالسوربون .
ولكن (عمر الشقى بقى) كما يعبر المثل المصرى . فقد وصلت
أخبار المؤامرة إلى اثنين من أصدقائى هما الأستاذ محمد حلمى
والأستاذ محمد عبد الحميد مندور فطافا بأعضاء بعثة الجامعة المصرية

وتعدنا إليهم بما يجب من حراستي يوم الامتحان .

وفي صبيحة ذلك اليوم حضر عشرة من أصدقائي ومعهم نصيبهم ومسدساتهم ، حضروا إلى بيتي لأخرج في حمايتهم . وقد ساءني ذلك . وحاولت منعهم من صحبتي فلم أفجح . ثم علمت مع الأسف أن مدير البعثة المصرية في باريس وصلت إليه أخبار تلك المؤامرة فحشم نفسه حضور امتحاني ، وكان امتحاناً قاسياً دام ثلاث ساعات ولم يشأ ذلك المدير أن يخرج قبل أن يطمئن على نجاتي من شر الاغتيال .

وكان في باريس معرض دولي هائل ستفتح بعد أسبوع واحد فخرمت منه نفسي ، ولم أقم في باريس بعد امتحان الدكتوراه غير ليلة واحدة قضيتها في حماية الأماناء من أصدقائي وبعد عامين من ذلك التاريخ عاد غريمي إلى مصر ، عاد وهو يضم ما يضم من الحقد ، وهاله أن يعجز وهو في مصر عما كان يقدر عليه وهو في باريس . والأمن في القاهرة أضمن من الأمن في باريس

فهل يعرف ذلك الغريم وهو في قبره أنني سكبت عليه الدمع في بغداد ؟

لقد كان - رحمه الله - صورة من النسيم المطلول ، وكانت له أنغام عذبة يجود بها لسانه وهو يتحدث ، وكان له قوام رشيق هو الشاهد

على براءة مصر في صياغة الجمال ، لقد مات غريمي قبل أن أموت ،
لأن الأعمار بيد الله لا بيد الناس

مات غريمي وهو يظن أنني ألام من عرف ، ولعلّ روحه
رأت بكائي عليه فشهدت بأني أكرم من عرف

رحمك الله يا إبراهيم وطيب مثواك
رحمك الله يا إبراهيم فقد نبعت من أرومة هي مثال الذوق
والإحساس

رحمك الله يا إبراهيم وعزى أهلك ، فإن الذين أصيبوا بشكك
خليقون أن يسيكوا عليك طول الحياة

رحمك الله يا إبراهيم ورحم نصيبي من ودادك ، فلو لا ماجنيت
من سوء الأدب معك لكان لي في رعايتك أيام وليال أطيب من
العافية وأنضر من الشباب .

يا إبراهيم

لا تجزع لفراق الدنيا ، فأكثر من فيها لهم أخلاق مثل أخلاقي ،
أنا الصديق الذي أضعت حظي منك في سبيل فتاة لعلها عرفت بعدى
وبعدك مئات الشبان !

إبراهيم

أنا محزون عليك ، أنا حافظ للعهد ، أنا آسف على ضياع الفرصة التي
كانت تشفي صدرك باغتيال يوم أداء امتحان الدكتوراه بالسوربون
ولك فضل عليّ لأن أنساه : فقد حببتني في وطني لأن أولئك

الأصدقاء العشرة الذين حموني من شرك بعصيتهم ومسددساتهم
أقنعوني بأن الشهامة المصرية لم تضع ولن تضع .

ابراهيم

هل تغفر لي ذنبي وقد غفرت لك ذنبك ؟

لقد دامت عداوتنا سبع سنين ، فإن عشت بعد اليوم سبع سنين
فسأقضيها في حفظ عهدك ، إن لم أفضها في البكاء عليك .

ابراهيم

إن الموت الذى عصف بشبابك لظالم ، وإن الرجل الذى يبكى
عليك وأنت عدوه لرجل كريم . فهل تعرف أن ما وقع بيني وبينك
لم يكن إلا نزوة شباب يغفرها العقلاء

خطبة المؤلف

في تحية من كرموه بالنجف

أيها السادة

أبدأ كلمتي بالتحية الإسلامية التي يحرص عليها علماء النجف
فأقول: السلام عليكم .

ثم أعتذر عن نفسي ، فأنا أرتجل هذا الخطاب ، والارتجال غير
مأمون العواقب ، وقد أطل خطباؤكم وشعراؤكم في الشاء على ، وهنا
وجه الخطر ، فلا بد من كلمة تشعر هذا الجمهور بأني خطيب ، وأن
من كرهوني كانوا في حسن ظنهم صادقين ، على أني سأعرف كيف
أنقلكم إلى جو آخر يصرفكم عني ، ويشغلكم بأنفسكم ، وهذا
الجو هو محادثة الشبان بواجب طالب العلم في النجف ، فقد قرأت
في مجلة الحضارة كلمات يراد بها التشكيك في قيمة الأنظمة القديمة ،
وهو تشكيك أوحاه الروح السائد في العصر الحديث .

ويهمني أن أحارب هذا التشكيك في مدينة النجف ، فقد اتفق
لي أن أحارب المناهج الأزهرية زمناً غير قليل ، ولذلك شواهد
ترونها في كتاب البدائع ، ثم علمتني الأيام أني كنت من المخطئين .
علمتني الأيام أن طلبة الأزهر سرقوا كلية (المستقبل) من طلبة

المدارس وأخشى أن يقع هذا لطلبة العلم بالنجف .
علمتني الأيام أنه لا بد لنا من رجال يعيشون للعلم وحده فلا
يكون لهم مستقبل ولا معاش ، ولا يكون لهم مصير غير الفناء
في خدمة الحق .

وبفضل هؤلاء الزاهدين كان للنجف تاريخ ، وكان للأزهر تاريخ
ولو شئت لضربت المثل بنفسى ، فأخوكم الدكتور زكى مبارك
هو فى الأصل شيخ أزهرى كانت له عمامة أضخم من عمامة الشيخ
اليعقوبى ، ثم سما به الإخلاص حتى وجد من يقيم له حفلات
التكريم فى القاهرة والإسكندرية وباريس وبغداد والنجف ،
وحتى أنشئت فى الشاء عليه عشرات الخطب والرسائل والقصائد
وحتى نشرت عنه رسالة باللغة الهولندية وتحدث عنه العلماء فى
المشرق والمغرب .

وقد درست نفسى حق الدرس ، فرأيت ذلك كله نعمة إلهية هى
جزاء الإخلاص ، فقد كنت أياها السادة طالب علم يتوكل على الله ،
وكان يضايقنى أن أجد من يسألنى عن مستقبلى ، وأنا إلى اليوم
لا أعرف مستقبلى ، وإن كنت سمعت أنى رجل له فى مصر والعراق
مكان مرموق .

وحفلات التكريم التى ظفرت بها مرات كثيرة من رجال فى
مثل كرمكم وإخلاصكم لاتدسنى أعظم كرامة رأيتها فى حياتى ، وهى

كرامة وقعت في لحظة من لحظات البؤس يوم كنت طالباً في الأزهر الشريف ، فقد كنت في ذلك العهد أحفظ زادى في المحفظة ، محفظة الكتب ، وكان زادى في كل يوم رغيماً جافاً يابساً متجهماً الملامح ، واتفق مرة أن ضاق الوقت فدخلت عند أحد الفوالين لأغمس ذلك الرغيف في مرق الفول النبات ، فهرست الرغيف بين راحتيّ مسرعاً ، ثم نظرت فرأيت يديّ تفيضان بالدم القاني ، دم الشاب المسكين الذي يريد أن ينتهب الوقت ليحضر درس التوحيد بعد المغرب .

ولكن الله عز شأنه رفع ذلك الشاب المسكين فنقله من الأزهر إلى الجامعة المصرية ، ومن الجامعة المصرية إلى جامعة باريس ، وجعله من كبار المؤلفين ، وكتب له أن يكون في الطبقة الأولى بين كتاب اللغة العربية ، لغة القرآن .

فأستحلفكم بالله ألا تذكروا طلبة العلم بالنجف بحاضرهم ومستقبلهم فتكبدوا عليهم نعمة الفناء في خدمة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا دائماً أن الفقراء أحباب الله ، وأن الأنس بالكتاب الجيد أنضر وأشرف من الأنس بالقصر المنيف .

أرجو أن تأخذوا العبرة من موقع مدينة النجف ، فهي في الواقع مدينة صحراوية ، وكان لها مع ذلك شأن في حياة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا أن النعيم الحق هو نعيم النفس ، وأن الربيع الحق هو ربيع القلب ، أرجو أن تذكروا أن أسلافكم لم يكن لهم مستقبل إلا في الفردوس .

وما أوصيكم ياشبان النجف إلا بما أوصيت به نفسي ، وسأعيش ما أعيش ثم أوت وليس لي ذخيرة في غير عالم المعاني .

وانتقل إلى الكلام على كتاب (عبقرية الشريف الرضى) وقد عدّه خطباؤكم وشعراؤكم من حسناتى .

وأقول بصراحة إن هذه نعمة من نعم الإخلاص ، وإلا فمن هو الدكتور زكى مبارك حتى يكون من حظّه أن يقال إنه أعظم مؤرخ للشريف الرضى ، وتلك كلمة قالها رجل نبيل لا تنفرج شفتاه عن لفظة إلا بعد أن يديرها فى قلبه عدة أسابيع ، هى كلمة معالى الأستاذ الجليل محمد رضا الشيبى الذى أتذكر به حين أراه مقام الوزير العظيم أبى الفضل بن العميد .

من أنا وما شأنى حتى أكون أعظم مؤرخ للشريف الرضى ؟
هى نعمة أقدم شكرها لله بدمعى ودمى .

وقد تمت هذه النعمة على أجمل وجه ، فكتاب (عبقرية الشريف الرضى) هو أسلوب من البحث لم يسبق له مثال ، وسيكون باعثا على نهضة شعرية ستعرفون خطرها بعد حين .

ولكن لا بد من تذكيركم بقيمة الشريف الرضى ، وهذا التذكير قد يؤذيني ، لأنه سيدعو المئات والآلاف والملايين إلى منافستى . وأنا أرحب بذلك ، وأقول إن صحبتى للشريف الرضى كانت السبب فى أن يقوى روحى فأكتب نحو خمسة آلاف صفحة فى أشهر معدودات بحيث شغلت جرائد مصر ولبنان والعراق ، وأرجو أن يدوم هذا النشاط فيما بقى من حياتى .

كنت أشرع فى قراءة قصيدة من شعر الشريف فأحس نفسى تستفحل وتستأسد فأعود إلى موضوع آخر فأصوغه أجمل صوغ وكذلك نظمت خمسة مجلدات فى زمن قليل .

وبهذه المناسبة أذكر كتاب (نهج البلاغة) وهو كتاب حامت حوله شبهات ، وناضلت فى سبيله جماعة من المستشرقين يوم كنت فى باريس ، وتجدون شواهد ذلك فى كتاب (النثر الفنى) وكانت حجتي أن التشكيك فى نهج البلاغة نشأ فى بيئات أموية كان يسوؤها أن يشتم معاوية على لسان على بن أبى طالب ، ويسرها أن يكون ذلك الشتم مخترعاً ، فلما طالت صحبتى للشريف فى هذا العام تأكدت أن الشريف الرضى أعظم نفساً وروحاً وقلباً من أن يكذب ، ولو جاز الكذب على الشريف الرضى لجاز الكذب على جميع الناس وكان من واجبنا أن نعتقد أن التاريخ ضلال فى ضلال .

والذين اطلعوا على (عبقرية الشريف الرضى) يرون أن ذلك الرجل عاش فى دنياه بلا صديق ، ولو أنه كان اخترع كتاب نهج البلاغة لزلزلت الأرض تحت قدميه ولكان أخوه نفسه أول من يذيع عنه الأراجيف .

عاش الشريف فى بلية من غدر الأهل والأصدقاء ، ومن كان فى مثل تلك الحال لا يجد من يستتر عيبه حين يزور كتابا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ..

فأريحوا قلوبكم من التفكير فى هذه المسألة فهى ليست من المضلات .

إن كتاب نهج البلاغة أعظم ثروة فى اللغة العربية فإن كان الشريف اخترعه اختراعا فأهلا وسهلا ، وهو إذن شاهد جديد على تلك العبقرية .

ولكنى مع الأسف غير مستعد لتصديق ذلك الاتهام الظريف ، فقد صح عندى أن الشريف كان اتخذ الشعر أداة للتعبير عما فى نفسه من الصور والمعانى .

وستدور الدنيا ثم تدور ويعرف الناس أن الشريف كان أعظم مما يظنون . وقد عجب ناس من أن أهتم بالشريف الرضى ، فليعجبوا كيف شاءوا : فنحن لا نترك العناية بأسلافنا مراعاة للحوادث اليومية ، وقد شاء الله أن يقرن اسمى بالشريف الرضى ،

وسأحتدل في سبيل هذه الصحبة الشريفة جميع المصاعب والأرزاء .
واقتران اسمي باسم الشريف هو نعمة لا أستحقها ، ولكن الله
أراد ذلك ، فإليه أوجه أصدق آيات الشكر والثناء .

أيها السادة
تحدث خطباؤكم وشعراؤكم عن غرامى بالعيون السود .
وأعترف بأنى دفتون بالعيون السود والعيون الخضر والعيون
الزرق ، أنا أيها السادة تلميذ الشريف الرضى ، وهو رحمه الله تغزل
بالعيون السود وهو فى مكة ، فكيف يفوتنى التغزل بالعيون السود .
وأنا فى النجف ؟
إن لى قصيدة همزية هى أعظم ما نظمت وهى تقع فى أكثر من
مائة بيت وفيها هذان البيتان :

خذونى إليكم يارفاقى فإتنى
أحاذر فى بغداد حتنى وإصماتى
أخاف العيون السود فليرحم الهوى
فجيلة أهلى يوم أقضى وأبنائى
وقد أنشدت هذه القصيدة فى نادى القلم العراقى برياسة معالى
وزير المعارف ، فهل تظنون أنى أنهيب إعلان هيامى بالعيون
السود بعد أن صرحت بهذه اللوعة فى حضرة ذلك الوزير الجليل ؟
قولوا ما شئتم : فأنا من كبار المفتونين بالحق والخير والجمال .

أول الحرب كلام

أخى

أنت سمعت وقرأت أنى لأحب الاشتباك فى معارك قلبية
بالجرائد العراقية، وما كان ذلك خوفاً من وهج الحرب ، وإنما
كان ذلك لأن رؤسائى فى مصر تمنوا أن تكون أيامى فى العراق
سلاماً فى سلام ، وقد حفظت العهد حتى خشيت على نفسى مصير
المتنبى حين تعقب طبيبه فقال :

وما فى طبيه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام
ولعل أسأت بعض الإساءة فى حفظ ذلك العهد ، فى العراق
صحفيون نبلاء شاء لهم الكرم واللفظ أن يثنوا على أدبى ، فخبست
نفسى عن الرد عليهم مراعاة لذلك العهد .

واليوم أرانى مضطراً إلى الرد عليك ، لا دفاعاً عن نفسى ،
ولكن دفاعاً عن العراق

أما لا أدافع عن نفسى ، أيها الصديق ، لأن دعابتك لم يقع
فيها ما يؤذنى من وجهة شخصية ، وإنما وقع فيها ما يؤذنى من
وجهة قومية

وإليك البيان :

أنت أردت أن تفهم قراءك أن الفطنة تنقصنى ، والفطنة هى

العنصر الأول من عناصر القوة في الأدب .

وكانت الفطنة تعوزني لأنني اقترحت عدة مقترحات منها :

١ — إنشاء جائزة النحو بالبصرة

٢ — إنشاء جائزة الصحافة للورّاقين

٣ — إنشاء الجامعة العراقية

تلك مقترحاتي ، وهي جنائتي عندك ، أيها الصديق .

فهل لي أن أسألك ما الذي كنت تنتظر من الدكتور زكي مبارك حين يتشرف بخدمة العراق ؟ أكنت تنتظر أن أكون مدرساً لا يعرف غير إلقاء الدروس وتصحيح الكراريس ؟ إن كان ذلك ما كنت تنتظر فاسمح لي أن أنشدك قول ابن الفارض :

إن كان منزلي في الحب عندكم ماقد رأيت فقد ضيعت أيامي

فأنا يا صديقي رجل يحملني الفتون على الظن بأن لي من حياتي غاية غير الغرض الضيق الذي يحبسني بين التلاميذ والكراريس ، وقد حملني هذا الفتون على الظن بأن الحكومة العراقية لم تدعني لأكل بفضلها العيش ، وإنما دعيت لما تعرف من عواطف النيلة نحو العراق ، والعراق لا يخدمه رجل في مثل كسلك ويأسك ، وإنما يخدمه رجل في مثل نشاطي وإيماني ، وسأخدم العراق بعد فراق العراق ، سأخدمه وأنا بعيد ، وأخشى أن تخذله وأنت قريب

ولا تؤاخذنى فى هذه الحدة ، فأنا أريد أن أكسبك
للعراق ، فعندك وعند أمثالك عواطف غافيات أحب أن أوقفها
لخدمة العراق .

فإن كان يسيئك أن أتعصب للعراق هذا التعصب ، فأنا أدعوك
إلى أن تتعصب لمصر مثل هذا التعصب ، فالأمة العربية - ولا أقول
الأمم العربية - لئلا يغضب سعادة الأستاذ ساطع الحصرى - الأمة
العربية فى شوق إلى أن يعطف بعض أعضائها على بعض
ما الذى يضرك أيها الصديق من إسرافى فى المقترحات
لخدمة العراق ؟

أحب أن أعرف ما الذى يضرك وأنا لا أجرح بمقترحاتى أحداً
من الناس ؟

* * *

إسمع أيها اليائس !
أنا اقترحت جائزة النحو فى البصرة
فمن أى الأحجار صيغ قلبك لتسخر جائزة النحو فى البصرة ؟
هل يصعب على الحكومة العراقية أن ترصد ثلاثين ديناراً فى
كل سنة للمتفوقين فى النحو من شبان البصرة ؟
من العجيب والله ألا يكون فى البصرة نحويون متفوقون ،
وباسم البصرة أكل النحويون الخبز فى مختلف الأقطار العربية .

من العجيب والله أن يكون أعظم شارح لكتاب الكامل للبرد
رجل مصرى هو أستاذى وصاحب الفضل على عقلى وأدبى ،
الأستاذ سيد بن على المرصفي

من العجيب والله أن يطبع كتاب الكامل فى أوروبا ولا يطبع
فى البصرة !

من العجيب والله أن تطبع مؤلفات الجاحظ فى مصر قبل أن
تطبع فى البصرة !

من العجيب والله أن يستغرب رجل مثلك أن تقام للنحو جائزة
فى البصرة !

اتق الله يا رجل واعترف بالحق .

* * *

اسمع أيها اليائس !

أنت تستكثر جائزة الصحافة للوراقين

فهل لك أن تدلنى ماهى مهمة الصحافة فى العراق ؟

أتكون مهمة الصحافة نشر الأخبار والقصائد والأقاصيص ؟

إن الذى وجهنى إلى هذا الاعتراض هو ما عانيت به مع تلاميذى ،

فقد كنت أفرض عليهم واجبات يعجزون عن أدائها ، لأن المصادر

غير موجودة فى مكتبات العراق .

هل تصدق أن تلاميذى لم يجدوا ديوان ابن خفاجة فى أسواق

بغداد ؟ .

هل تصدق أن أكثر المؤلفات الحديثة لا تعرفها مكتبات بغداد ؟
هل تصدق أن أعمالى مع تلاميذى تعطل فى أحيان كثيرة
بسبب قلة المراجع ؟

كان فى مقدورى أن أجعل « جائزة الوراقين » من عمل
الحكومة ، ثم رأيت أن أكلها إلى همتمكم ، لأن الحكومات لا تقوم
بجميع الواجبات إلا فى الأمم الضعيفة ، والشعب العراقى ليس
شعباً ضعيفاً وإن ضعفت أنت .

وجائزة الوراقين لن تكلفكم شيئاً ، أعنى أنها لا تكلفكم مالاً ،
ويكفى أن يكون فيكم خمسة أو سبعة يراقبون النشر والتوزيع
ثم يقيمون حفلة بسيطة يعلنون فيها اسم الفائز بجائزة الوراقين .

* * *

إسمع أيها اليأس !

هل يدهشك أن أقترح إنشاء جامعة عراقية ؟
هذا فيما يظهر أعظم ما اقترحت . وفى كلامك ما يشير إلى أنى
أخطأت ، والخطأ فى هذه المرة أقبح ، لأنه متصل بمشروع هائل
تنوء به الجبال .

أعترف بأنى أخطأت حين اقترحت إنشاء جامعة عراقية ،
ولكن يعزىنى أن هذا الخطأ الفظيع وجد من يشاطرنى
حمل أوزاره الثقالة .

فقد وجدت ناساً لا يقلون عنى رعونة وطيشاً ، أقسم لك إني
وجدت ناساً يستصوبون هذا الخطأ الشنيع ، فليذهبوا معي إلى
جهنم إن كنت من المخطئين .

أنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن جميع الجرائد العراقية
زكتني وأيدتني حين دعوت أول مرة إلى هذا المشروع الجليل .
وأنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن فريقاً من الأدباء
استحثني للمضي في الدعوة إلى هذه الفكرة ، وكان ذلك فيما أذكر
على صفحات البلاد والهدف والحاصد والزمان والاعتدال
والعقاب .

والذين تحلو لهم مداعبتني في بعض الجرائد والمجلات لم يقولوا
لني أخطأت حين دعوت إلى إنشاء جامعة عراقية .

فكيف كنت عندك وحدك رجلاً غيبياً ؟

أيها الرجل الفطن العاقل ، اسمع ثم اسمع

إن العراق يعتز بأن عنده قوة برية وقوة جوية .

وأنا أدعوه إلى أن يعتز إلى جانب هاتين القوتين بقوة عليية .

وهذه القوة تحتاج إلى ثكنات ، هي الكليات ، كليات الجامعة

العراقية التي أراها رأي العين ، وإن أنكرها خيالك الوثاب !

أيها الرجل الفطن العاقل

أنا أحب أن أكسبك وأكسب مليوناً من أمثالك لخدمة العراق .

فهل ترانى أفاح ؟

هل ترانى أفاح فى اجتذابك لإنشاء خمسين مقالة فى الدعوة
للجامعة العراقية ؟

هل ترانى أفاح فى دعوة الشعب العراقى إلى الصوم يوماً واحداً
لتكون أثمان طعامه فى يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس
الجامعة المصرية ؟

أنا أنتظر اليوم الذى يتحقق فيه التعاون العلمى بين مصر والعراق
أنا أنتظر اليوم الذى تصنعون فيه بدجلة والفرات ما صنعنا
بالنيل .

وهل أذاك حديث النيل ؟

إن النيل لا يصل إلى البحر إلا وهو أوشال بفضل ما أقمنا عليه من
القناطر والخزانات .

أما دجلة والفرات فيذهبان لمصاغة البحر بلا رقيب
ولا حسيب .

إسمع أيها الفطن العاقل :

لقد حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق ، وسمعت
الخطبة الفصيحة التى ألقاها أحد المتخرجين ، الخطبة التى قرر فيها
أن مصر حين تخدم العراق من الوجهة التشريعية إنما تؤدى ديناً
قديماً : هو الفقه الذى نقله الشافعى ، وكان رحل إليها بعد
التفقه بالعراق .

إن هذه الكلمة أثارت أشجاني ، فقد تذكرت أننا فرطنا في
ماضيها العلمي والأدبي ، وتناسينا ربط الحديث بالقديم .

ولك أن تذكر أن فقه الشافعي الذي تعرق ثم تمصر لا يجد من
رجال القانون عندنا أو عندكم من يعرف الفروق بين مذهبه
القديم ومذهبه الجديد .

وأغلب الظن أن كتاب «الأم» الذي ألفه البويطي في فقه
الشافعي لا يوجد بمكتبة الحقوق في بغداد ؛ وإن كانت تلك
المكتبة تعرف طوائف من المؤلفات في الفقه الروماني .

أيها الصديق

احذر أن تنخدع بالظواهر فتظن أن التعاون العلمي قائم حقيقة
بين مصر والعراق .

قد نكون صنعنا شيئا ، ولكن هذا الشيء لا يزيد عن
حفر الأساس

إنما يتم التعاون العلمي بين مصر والعراق يوم نعرف تبادل
الأساتذة وتبادل الطلاب ، كما يفعل الفرنسيين والإنجليز
والألمان .

ويومئذ تتأصل المودة الحقيقية التي لاتزعزعها كلمة وشاية أو
كلمة بهتان .

وهذه الآمال قد يعجز عن تحقيقها مصري مثلي ، أو عراقي مثلك

فهذه آمال لا ينهض بتحقيقها غير رجال لهم صبر الأنبياء .
أما بعد فأنا ومن بأن الأمم العربية ، أو الأمة العربية ، شجعت
من النضال السياسى وهو فى أغلب أحواله نضال أئيم ؛ فلم يبق إلا
النضال الأشرف ، وهو النضال العلمى والأدبى .

أنت تعرف أيها الأخ أننا لم نعرف البطولة فى غير الميادين
السياسية ؛ وهى بطولة محترمة ، فمن حق من أودى فى سبيل الوطن
أن يقول إنه من رجال التضحية وأن يطلب من المناصب ما يشاء .
ولكن يبدو لى أن الوقت حان للبطولة العلمية والأدبية .

حان الوقت الذى نحرر فيه بلادنا من السيطرة الأوربية فى
العلوم والآداب والفنون ، وما أدعو إلى غض أبصارنا عما
فى أوربا من آثار العقول . فهذا كلام لا يقوله رجل متخرج
فى السوربون .

وإنما يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لهم أدباً وعلماً
وفناً . يجب أن نروض أبناءنا على الشعور بأن لنا عقولاً
وأذواقاً وأحاسيس

يجب أن يفهم أبناءنا أننا صالحون لبناء مجدىنا الأدبى
والعلمى بأيدينا .

يجب أن يكون منمهوراً أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية
نحو ثلاثة قرون .

يجب أن يكون مفهومنا أن اتخاذ اللغات الأجنبية لغات تدريس
في المعاهد والكليات هو اعتراف بخطر بأن لغتنا فقيرة وأننا فقراء ،
وقد حاربت هذه النزعة في مصر وأنا اليوم أحاربها في العراق .

أيها الصديق

تلك كلمتي إليك ، وما يهمني أن أنتصر عليك .
وإنما يهمني أن تفكر في الموضوعات التي طفت بها طوافاً في
هذا المقال ، وأن تحاول بقلبك أن تتخلق لها أنصاراً من أهل
الأدب والبيان .

لقد لقيتك وفي يدي سيف وأنا أعرف أنك ستلقاني وفي يدك
غصن من الزيتون .

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

عبقرية الشريف الرضى^(١)

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة العذراء » ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ولا تسع سنين كما سأقول بإذن الله يوم أخرج كتاب « التصوف الإسلامى » فما شغلت نفسى بكتابتى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى فى بغداد لهُو ولا فتون ، فكانت الليلة فى بغداد كلية القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق .

وكتابتى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقضى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد

(١) هو كتاب فى جزأين أصدره المؤلف فى بغداد ، ومقدمته هذه تشرح

كيف استجاب المؤلف لروحى بغداد

محاضراتي عن « المدائح النبوية » وهي المحاضرات التي ألقيتها باسم
الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر
لموسم ثالث في القاهرة أو في بغداد ؟

* * *

لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت
معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق
ورجعت الحياة الأدبية في بغداد رجاً عفيفاً ، فذلك كان أقل
ما يجب أن أصنع في مقابل الثقة التي شرفتنى بها حكومة العراق ؛
وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة
المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز وأحمد
حسين الزيات والسنهوري وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمى ؛
وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في خدمة تلاميذى وتلميذاتى في
بغداد ، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائى وبناتى فكلفت نفسي
في خدمتهم فوق ما أطيق .

لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأنفقت من العافية ما أنفقت ، فقد
سألتني أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها في بغداد تاريخ ،
فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله وانتفعت
بعطف معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشيبى وأريحية
الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل الجمالى ، وعوّلت على

همة زميلي وصديقي الدكتور فؤاد عقراوى وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلّمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء .

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلى بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت .

وإنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتندي العطف على « دار المعلمين العالية » . ومن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية .

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى !
إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو

يذكر جيداً أتى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي : كان
الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشعار الشريف
الرضي .

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو
يذكر جيداً أتى نهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضي
كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث .

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة فقد طلب
في سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية .
فكانت محاضرتي عن الشريف الرضي .

ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعد ، فقد رأيتني فجأة بين
دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر
الذي تعصبت له منذ أعوام طوال .

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أتى لم أفكر في إنصاف
الشريف الرضي إلا يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة
من كتاب الأستاذ المقدسي عن أمراء الشعر في العصر العباسي ،
فأزعجني أن يهتم بأبي العتاهية وينسى الشريف الرضي . مع أن ديوان
أبي العتاهية لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف .

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف الرضي
فليثق الله في نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كان أنفق
نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه

بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي
والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا في طليعة
أولئك الشهداء

* * *

سيرى قراء هذا الكتاب أنني جعلت الشريف أفل شاعر عرفته
اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد :
أيكون الشريف أشعر من المتنبي ؟
وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في
أى كتاب . ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف
عنه كتاباً مثل هذا الكتاب .

والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابيه أشعر من
الشريف ، والشريف في بابيه أشعر من المتنبي ، وكل عبقرى هو في
ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف
بهذا المعنى أفل الشعراء لأنه جرى في ميدان سيظل فارسها السباق
على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبي حين أقدم عليه الشريف ؟
هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي ؟
إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأننى كنت أول
من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي ، ولّى على

ذلك شهود منهم الشيخ السكندري والأستاذ عباس محمود
والدكتور منصور فهمي

وما الذي يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف
العراقيون موضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف
العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضي؟
إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص!
إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى
عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أنني كنت كذلك طول حياتي
فوضعت بالنقد قوما ورفعت آخرين، وفقاً للحق لا طوعاً ولا هواء
وأنا والله راض بأن يغضب عليّ أهل بغداد، فقد غضبوا عليّ
أبي طالب المكي فمنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكى عزيمتي، ومن أجل هذا أنظر
نظر الجزع إلى مصير خصوماتي في بغداد، فلن يكون لي في بغداد
خصوم بعد ظهور هذا الكتاب، وإنه لقادر على أن يفجر العطف
في القلوب المنحوتة من الجلاميد. سيذكر أدباء بغداد أنني أحييت
شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أنني
وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من
عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، تلك
القواعد التى أذعتها فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) وهو من
أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية ، وسيكون له تأثير شديد
فى توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من
عقول الباحثين

وبيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ
من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق
من الصديق ، والتشابه بينى وبين الشريف الرضى عظيم جداً ، ولو
خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى فى حياته
معانيت فى حياتى : كافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ،
وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلى قومي وزمانى

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو
وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سائرت
الشاعر الذى أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هى المزية
التي أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربى .

سائرت الشريف مسaire الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ،
وإن كفر كفر . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت .
إن عقل الشريف عقلت ، وإن جنّ جننت ، إن قال الشريف إن
غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن

الحياة هي الحب، قلت : والحب الحياة !

ولكنني مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، وفي بني آدم أذكىاء . نهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد عليّ لأن الصديق الذي في مثل حالي تغفر له جميع الذنوب . والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جداً وذلك هو أسلوبى فى البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون .

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفت فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى ، وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبى ، وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة فى بغداد سيدكرها أصحاب المطابع

* * *

بغداد !

هذا كتابى ، أقدمه يمينى فى تهيب واستحياء ، فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء
تجحد الجميل

بغداد !

اصنعى فى ودادى من التسكر والتقلب ماشاء لك الدلال . أما
أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما عجزت عنه القاهرة وباريس !
أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ، والظلم يجمع
بين القلوب

نصرک الله ونصرنى ، ررعاك ورعاني ، إنه سميع مجيب .
وعليك منى السلام .

بين مصر ولبنان^(١)

أخي الأستاذ رئيس تحرير البلاد

إنك تذكر ولا ريب أنني صحفي قديم ، وتذكر أنني ابتدأت بالصحافة السياسية ، ثم انتهيت إلى الصحافة الأدبية ، فراراً مما يصحب السياسة من المخرجات التي يضيق بها الوجدان في بعض الأحوال .

وتذكر أيضاً أنني غامرت في أكثر من ألف معركة أدبية ، ثم انتصرت فيها جميعاً ، فليس في مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول في السر أو في العلانية إنه انتصر على الدكتور زكي مبارك . كل ذلك تعرفه ياسيد رافائيل ، ولكن غابت عنك أشياء ، فهل تصدق أنني سأنهزم أمام مجلة المكشوف التي تصدر في بيروت ؟ إني والله ! سأنهزم وسأعود إلى أهلي وأنا جريح الفؤاد .

لا تعجب أيها الأخ من هزيمة أخيك الشجاع زكي مبارك ، فإن جريدة المكشوف تدخل معي في مضائق أجبن عنها كل الجبن ، لأنها تحاول أن توقد نار العداوة بين أدباء مصر وأدباء لبنان ، وأنا رجل صممت على أن أعيش دهرى كله من دعاة الأخوة بين

(١) قدمت هذه الكلمة إلى جريدة البلاد ولكنها لم تنشر في الوقت المناسب .

لأسباب كثيرة منها تعطيل الجريدة !

الاقطار العربية فلا أستبيح لنفسى أن أشارك في مناقشة يقال فيها
لبنان أفضل من مصر ، أو مصر أعظم من لبنان .
أضف إلى ذلك أن لى أصدقاء من اللبنانيين يسوءهم أن أعرض
لبلادهم بكلمة ملام ، فهل رأيت أخرج من هذا الموقف أيها
الصديق ؟ .

أنا لا أرى لبنان فى وجوه أولئك السادة الذين يحاربونى فى
جريدة المكشوف ، وإنما أرى لبنان فى وجوه الأصدقاء الأجداد
الذين عرقهم فى بيروت وفى القاهرة وفى باريس .
قد يسأل قراؤك : وما أصل الخصومة ؟

وأجيب بأن جريدة المكشوف تقول إن الأدباء اللبنانيين أعمق
من الأدباء المصريين !!

وما يسوءنى أن يكون الأمر كذلك ، فنحن جميعاً إخوان ،
ولكن الواقع يشهد بغير ذلك ، الواقع يشهد أن أدباء مصر هم اليوم
حماة اللغة العربية ، وأقطاب الأدب والبيان ، وتفوق الأدباء
المصريين ليس مغنماً لمصر وحدها وإنما هو مغنم لجميع الأمم العربية
فإن استطاع لبنان أن يقدم للعروبة أدباء أعمق من أدباء مصر
فسأكون أول المرحبين ، ولكن مصر بحيويتها العلمية والأدبية
والفنية ستظل مرفوعة العلم شاحخة البنیان .
وأؤكد لك يا صديقى أن مصر تعرف جيداً ما هى مقبلة عليه ،

هى تفهم أن المجد الأدبى يقدم له وقود هائل من الجهد والمال ،
وهى من أجل ذلك تحض أبناءها على الجهاد الموصول فى سبيل
الحياة العلمية والأدبية والفنية ، وهى تعمل ما تعمل فى سكون ،
وتترك الأقارب والأرأاف لمن لا يعرفون قيمة الأخوة العربية .

هل تصدق أيها الأخ أن وقى فى العراق يضيع منه جزء ثمين
فى دفع المفتريات التى تصوب إلى مصر بلا حساب ؟

أحب أن أعرف ما هو الموجب للتحامل على الأدباء المصريين وهم
يقذفون أبصارهم تحت المصاييح فى خدمة اللغة العربية .

أحب أن أعرف ما هو الموجب للحقد على مصر فى بلد مثل لبنان
وقد كانت مصر هى الملاذ للمضطهدين من أحرار الفكر فى لبنان
أما بعد فإن بعض أصحاب الأهواء يسوءهم ثم يسوءهم أن يقال
إن مصر لها الزعامة الأدبية ، وأنا أقول بصوت جهورى يسمعه
من فى القبور : إن الأمم العربية لم تتصدق على مصر بالزعامة
الأدبية ، وإنما هى مجد غنمه المصريون بفضل ما قدموا من الجهود
فى نصرة اللغة العربية ، ونحن على أتم استعداد لأن نقدم الراية
لمن ينفقون من أعمارهم بعض ما تنفق فى سبيل لغة الضاد

فلتسمع هذا الكلام مجلة المكشوف ، ولتفهم جيداً أن أدبى
لا يسمح بمماراتها فى ميدان الهجاء ، لأن لى فى لبنان إخواناً كراماً

يؤذيم أن تعثر قدمي في هذا الميدان . وأنا لا أنظر إلى الساعة
الحاضرة ، وإنما أتمثل المستقبل المشرق الذي ترفرف فيه راية
العروبة الغالية ، وذلك أمل أراه برعاية الله سهل المنال
أكتب هذا إليك وأنا أرجو أن لاتعاق عليه بما يؤذى إخواني
في لبنان ، ولمجلة المكشوف أن تعاق بما تشاء ، فليست أول مجلة
آذنتي ، ولن تكون آخر مجلة تؤذيني بالظلم المبين
وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

بعض ما رأيت في العراق^(١)

أيها السادة

تفضلت الإذاعة اللاسلكية فدعني لإلقاء محاضرتين عن
العراق ، فرأيت أن أقسم الموضوع إلى قسمين : الأول أصور به
بعض ما رأيت في العراق ، والثاني أصور به الحياة الأدبية في العراق
وأبدأ فأذكر أن هجرتي إلى العراق لم تكن تخطر بالبال ، فقد
كانت لي في مصر شواغل تصرفني عن التفكير في ذلك ، ثم فوجئت
بالدعوة إلى خدمة العلم في العراق في مطلع شهر أكتوبر من السنة
الماضية ، فترددت في قبول الدعوة ، ثم قلت في نفسي إن من العقل
أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب ؛
وصح عندي أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب في
العصر العباسي ، وليس من المقبول أن يصح لمثلي أن يصنف بباريس
عن علم ويصف بغداد عن جهل !

وما هي إلا أيام حتى كنت في طريق إلى العراق ، ولعلني كنت
المصري الوحيد الذي لم يطل بينه وبين المفوضية العراقية أخذ ولا
رد في شروط العمل بالعراق .

ولكن كيف أصل إلى العراق ؟

(١) محاضرة ألقيت في الإذاعة المصرية

كانت هناك مسالك للوصول : الأول الوصول بالطيارة ، وهو أسهل الطرق ، لأنه يمكن المسافر من الفطور بالقاهرة والعشاء في بغداد ، ولكنني تذكرت أنني أعطيت جماعة من تلاميذي موضوعاً للانشاء منذ عشر سنين عن (خطر انعدام المسافة في العصر الحديث) . وكنت أرى أنّ الطيران قضى على جانب مهم من الأدب الوصفي . فلن يكون في الدنيا بعد اليوم رجل مثل ابن بطوطة ولا رجل مثل چان چاك روسو ، وأنا أرى الشرق العربي أول مرة ، فليس من المفيد أن أسافر في طيارة فأحجب عما فيه من أنهار ومدائن وسهول .

الطريق الثاني هو طريق البحر من الاسكندرية إلى بيروت وهو يعطي الفرصة لرؤية لبنان وسورية ، ولكنه يحرمني رؤية فلسطين ويحبسني في البحر يوماً وبعض يوم ، وأنا ركبت البحر إلى أوروبا أكثر من عشر مرات وشبعت منه وشبع مني .

الطريق الثالث هو السفر من القاهرة إلى القنطرة لاختراق فلسطين بالقطار حتى أصل إلى حيفا ومنها إلى بيروت ثم إلى الشام ثم إلى بغداد .

ولكن طريق فلسطين كان في ذلك الوقت محفوفاً بالمكاره ، فقد كانت البرقيات تحتنا أن الثوار ينسفون القطارات ، فلم يصرفني ذلك عن المرور بفلسطين ، لأنني كنت أحب أن أرى البلاد

التي يقتتل حول خيراتها العرب واليهود ، وقد نهاني بعض الزملاء
المسافرين إلى العراق فلم أنته ، وتفردت بتلك المغامرة لأحل جفنى
برؤية فلسطين .

وصلت إلى القنطرة في ليلة قمرء توحى غرائب الشعر والخيال ،
فعلمت أن القطار سيتأخر قيامه من هناك ثلاث ساعات حتى
لا يدخل فلسطين إلا مع ضوء الصباح ، تجنباً لمخاطر التعرض
لنصفه بالليل . وكذلك عرفت أن من نهوى عن المرور بفلسطين لم
يكونوا مخطئين .

قضيت ساعات في مناجاة قناة السويس والتأمل فيما صنعت
مصر لخدمة الإنسانية ، الإنسانية الجاحدة التي جهلت ما قدمت
مصر من جميل .

وقفت أنظر كيف خدنا بني آدم وكيف أتعبنا أجسادنا وأفقرنا
جيوبنا لنسهل وسائل النفع ولنصل بين المشرقين والمغربين ، ثم
لا نجد من يتفضل بكلمة ثناء .

وسار القطار قبيل الصبح فبخرت على عيني بالهجود لأرى
أطراف مصر من ناحية المشرق ولأنظر بساتين فلسطين .

ولم يكفنى ما رأيت من فلسطين في الذهاب فقررت المرور عليها
في الإياب لأتمتع باختراقها مرتين ولأقتنع بأنها بلاد جميلة جذابة
تستحق ما ثار حولها من النضال .

ولم أبت في فلسطين إلا ليلة واحدة عند الرجوع ، وكانت ليلة
متعبة ، فقد كان محترماً على أهل حيفا أن يتجولوا بالليل ، وكان من
الحزم أن أقضى سهرتي في رحاب الفندق وإن حرمني ذلك شهود
المجتمع الفاسطيني في تلك المدينة البيضاء

وأعود فأقول إنني امتطيت سيارة في ذهابي من حيفا إلى بيروت
وفي بيروت قضيت ليلة واحدة كانت أبقى أثراً من الليالي الطوال
مضيت أتنقل في بيروت من مكان إلى مكان بعد أن ألقيت
أمتعتي في الفندق ، ثم اتفق أن عرفني بعض الأدباء هناك فسائقني
ذلك إلى زيارة أكثر الجرائد واندفعت فجاذبت أهل بيروت أطراف
الأحاديث وعرفت ألواناً من عتابهم على مصر والمصريين ، وقد
تعقبوني بعد أن وصلت إلى العراق فكان بيني وبينهم مناقشات
ستعرفون أخبارها حين أنشر كتاب (وحي بغداد)

ومن بيروت رحلت إلى دمشق مخترقاً جبال لبنان فرأيت من
جمالها الأعاجيب ، ولا أزال مفتوناً بما شهدت في الموضع
المعروف بسهل البقاع

وفي دمشق رأيت الأستاذ محمد كرد علي والأستاذ عبد القادر
المغربى وزرت بعض الزعماء وقضيت لحظات في مناجاة نهر بردى
الذى خلده حسان

ثم أسلمت نفسي إلى سيارة «نيرن» لأقطع الصحراء بين الشام

والعراق ولارى بنفسى كيف شقى أسلافنا بمخاطر البيداء
كنت أعرف أنى سأقضى أكثر من خمس وعشرين ساعة فى
ذلك السجن المتحرك ، وكان ذلك يغرق نفسى فى بحر من
الانقباض ، ولكن كان يعزىنى ما عرفت من أننا سنستريح فى كل
مدينة تصادفنا فى الطريق ، ولم يكن فى الطريق مدائن وإنما هناك
محطتان هما الرطبة والرمادى

وبعد ساعات من عبور الصحراء نظرت فرأيتنا مقبلين على
مدينة فيحاء ، مدينة تقع على نهر واسع تجرى فيه سفائن بخارية
وشراعية ، فانشرح صدرى وقلت سنستريح لحظات ، ثم عجبت
من جهلى بالجانب الجغرافى من ذلك الطريق ، فما كنت أعرف أن
هناك مدينة تقع على نهر عجاج ، وترحم على أستاذى اسماعيل بك
رأفت الذى أسقطنى فى امتحانات الجامعة المصرية مرتين لقلة
ما كنت أعرف من دقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب .

ولكن لم تمض غير دقائق حتى اختفت تلك المدينة مرة واحدة
فعرفت أنها كانت أضلولة من أضاليل السراب .

وبعد نصف ساعة لاحت مدينة جديدة ، فتأملت مرة ومرتين
ومرات فتأكدت أنها مدينة حقيقية ، وكنت كلما اقتربت منها
زدت يميناً بأننا سنستريح بعد لحظات ، وتمتاز تلك المدينة بما يكثر
فيها من منارات المساجد وأبراج الكنائس ، وبما يحيط بها

من حدائق وبساتين ، وقد نظرت فرأيت حولها فرقة من الجيش تسير نحو الشرق ، وفوق ذلك الجيش يحلق سرب من الطيارات . ما اسم تلك المدينة ؟ ولما ذلك الجيش ؟ ولأى غرض يتجه نحو الشرق ؟ آه من جهلى بدقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب ! كنت أستطيع أن أسأل بعض المسافرين عن تلك المدينة ، ولكنى خجلت من السؤال . فقد كان فيهم من يعرف أنى ذاهب لخدمة العلم فى العراق ، ومن كان فى مثل حالى لا يليق به أن يجهل هذه البسائط الجغرافية .

وماهى إلا دقائق حتى اختفت هذه المدينة وعرفت أنها كذلك : أضلولة من أضاليل السراب .

ولكن خداع السراب لن يستمر طويلا ، فقد أقبلنا على واحة كثيرة النخيل ، قد انتشرت فيها منازل صغيرة أكثرها أكواخ ، وفيها ألوان من الحيوان أكثرها الابل والشاء ، وفيها عدد قليل من الأعراب .

لم أطرب كثيرا لظهور هذه الواحة ، فقد كنت أستبعد أن نقف عندها لحظة أو لحظتين ، فما فيها - فيما أظن - مطاعم ولا مشارب حتى يستريح بها المسافرون .

ولكنها على كل حال فرصة للنزول ، وسأقترح الوقوف عندها بضع دقائق .

آه، ثم آه !

هذه أيضا أضلولة من أضاليل السراب .

ولكن هذه الأضاليل ستقفني بعد أشهر موقفاً سخيفاً جداً ،
ستكون حفلة الافتتاح للمؤتمر الطبي العربي في بغداد ، وسيكون
فيها الوزراء والنواب والأعيان وكبار الأطباء ، وسيلقى الأستاذ
علي الجارم بك قصيدته في تحية المؤتمر فيقول في وصف البيداء .

طالت بنا الصحراء حتى خلتها أبد الأييد

يتخلص المرمى البعيد بها إلى مرمى بعيد

كتخلص الحسنة من وعد طوته إلى وعود

فأصرخ : أعد يا أستاذ ، أعد الكلام عن وعود الحسان !

وعندئذ يتلفت الحاضرون فيرون الدكتور زكي مبارك هو

الذي يستعيد ، فيقول بعضهم لبعض : هذا مجنون ليلي ، ولا حرج

على المجانين !

وعذرهم في اللوم مقبول فما عرفوا من أضاليل السراب مثل

الذي عرفت .

* * *

ثم وصلت إلى الرطبة تعبان فلم أذق معنى للراحة هناك .

وبعد نصف الليل قضينا مدة في الرمادي فذقت أول مرة طعام

العراق .

وبعد الفجر رأيت أفواج الفلاحين وهم يسرون بمواشيهم إلى
حقولهم على الأسلوب الذي يجرى عليه الفلاحون المصريون .
وبعد تفتيش الأمتعة أخذت سيارة لأدخل بغداد بعد أن بقيت
في ذلك السجن المتحرك مدة طويلة رأيت فيها الشروق والغروب
ثم الشروق .

* * *

الله أكبر والله الحمد !

هذه بغداد التي قرأت عنها ما قرأت ، وسمعت في وصفها ما سمعت .
وهذا هو الجسر الذي قال في مثله ابن الجهم .
عيون المها بين الرصافة والجسر
جانب الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمرأ إلى جمر
بذلك خيال باب الرصافة الذي تشوق إليه ابن نباتة السعدي فقال :

سقياً لتغليسي إلى باب الرصافة وابتكاري
أيام أخطر في الصبا نشوان مسحوب الأزار
حجى إلى حبر الصراة وفي حدائقها اعتماري
ومواطن اللذات أوطأني ودار اللهو دارى
وما كدت أضع أمتعي في الفندق حتى أخذت عربة ومضيت

فسلمت على وزير المعارف ، فراعنى أن أرى شيخاً معهما أسمر الوجه .
فصيح الحديث ، وقد سألتى عن الصحراء ، فأظهرت تألمى لما
كأدت وعانيت ، فقال : اشكر ربك ، فقد قطعتم قبلك فى مدة دامت
خمس وعشرين يوماً قبل أن تعرفها السيارات ، وكان حديثاً ممتعاً .
عرفت به من خصائص الصحراء ما لم أكن أعرف .

ومضيت فقيدت اسمى فى ديوان حضرة صاحب الجلالة ملك
العراق ، وانتقلت فسلمت على نخامة رئيس الوزراء ، وأسرعت
فألقيت الدرس الأول فى دار المعلمين العالية وأنا بغبار الطريق !
سلام الله وسلام الحب على أيامى فى العراق .

كنت فى البداية أظن أنى ما حضرت إلا لتدريس الأدب
العربى ، فخبست نفسى بين المدرسة والمكاتب زمناً غير قليل .

ثم رأيت أن هذا المسلك غير مقبول لأنه سيحببني عن
الخصائص الذاتية للشعب العراقى ، وخصائص هذا الشعب تفسر
كثيراً من دقائق الأدب فى العصر العباسى ، فانقطعت انقطاعاً يكاد
يكون تاماً عن المصريين المقيمين فى بغداد ، وأقبلت على البغداديين
أصحابهم وأصدقهم وأقضى معهم ما تسمح به أعمالى من لحظات
الفراغ .

وكانت حجتى أن الشعوب لا تموت ، فبغداد التى غيرتها الأزمان
من أحوال إلى أحوال لابد أن تحفظ كثيراً من شمائلها الأصيلة .

لعهودها الذهبية، ولا بد من الوصول إلى بعض الأسرار التي قضت بأن ينبغ فيها كبار الكتاب والشعراء.

وما هي إلا أشهر قلائل حتى كنت على صلات بمختلف الطبقات في بغداد، وحتى صححت لنفسي أخطاء كثيرة في فهم الأدب والتاريخ.

وبغداد تنقسم في وضعها الحاضر إلى قسمين: بغداد القديمة التي كان يعيش فيها الناس قبل التمدن الحديث، وهي مدينة جافية لمن يراها أول مرة، ولكنها جذابة جداً لمن يعرف روحها الشفاف، هي مدينة تجذب من يعرف أهلها، وهم في أكثر أحوالهم على جانب عظيم من الأدب والذوق ولطف الأحاسيس وكرم النفوس ولن أنسى طول حياتي مالمقيت في تلك الدور الجافية من عنوبة الأرواح وصفاء القلوب.

كنت أدخل المقاهي في تلك المدينة القديمة فيؤذني حرمانها من النظافة والتنسيق، ولمكن قلبي كان يتفجر بالعطف حين أتذكر أن هؤلاء الناس قارموا الحوادث والخطوب حتى حفظوا أصول اللغة العربية وقواعد الإسلام، وحتى استطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم وجوداً خاصاً بالرغم من تصارييف الزمان.

في تلك الدور الجافية نشأ ناس تغلبوا على مصاعب أخفها الأوبئة والطواعين.

فى تلك الدور الجافية خلقت عواطف وأحاسيس وأهواء .
فى تلك الدور الجافية نبغ شعراء وصفوا الحب والليل .
فى تلك الدور الجافية ألفت أحزاب ودبرت مؤامرات غيرت
وضع العراق من حال إلى حال .
وكانت لتلك الدور الجافية تقاليد ، أهمها الباب المفتوح
للجائعين والملهوفين .

إليك أيتها الدور الجافية وإلى ما يعلوك من رواشن وما يحيط
بك من مضايق ، إليك فى خشونتك التى أراها أنعم من حدود
الملاح أقدم تحيتى وثنائى .
أما بغداد الجديدة فتصورها الضواحي التى أنشئت على النظام
الحديث .

وهذه الضواحي تمتد إلى آفاق بعيدة على شواطئ دجلة ، وفيها
يعيش المياسير من أهل بغداد ، هى ضواح لا تقاس إلى الجزيرة أو
مصر الجديدة أو المعادى أو حدائق القبة ، ولكنها بالنسبة إلى
بغداد القديمة تعدّ انتقالاً سريعاً إلى أجواء الرفاهية واللين .

وفى الأحياء الجديدة ميل شديد إلى الأناقة والتنسيق ، ولن
تمضى غير سنين قلائل حتى تخلق بغداد كلها خلقاً جديداً ، بفضل
أبنائها الذين يزورون مصر وغير مصر فينقلون إلى وطنهم بذور
الحضارة والعمران .

* * *

ليس في بغداد مواصلات سريعة على نحو ما في القاهرة أو الاسكندرية ، فليس فيها ترام ولا مترو ، وسيارات التاكسي قليلة جداً ، وإنما يعتمد أهل بغداد على عربات تجرها الخيل ، وهناك سيارات عمومية تسمى «باسات» ، وهي قدرة وضيقة ولا يركبها في الغالب إلا الطبقة الشعبية .

والنساء في بغداد يؤثرن الحجاب ، وهو الزى الغالب على النساء المسلمات ، والسفور لا يشيع إلا بين نساء النصارى واليهود ، على أن تلميذات المدارس من المسلمات ينتقلن رويداً رويداً إلى السفور . ومن المنتظر أن يصرن بعد نحو عشرين عاماً إلى ما صار إليه الفتيات القاهريات ، إن لم تقع موجة اجتماعية تردهن جميعاً إلى مأثور الحجاب .

وأهل بغداد لا يشربون الخمر على قارعة الطريق كما يقع في بعض الحواضر المصرية ، وإنما يشربونها في فنادق مغلقة الأبواب ، وذلك أدب مقبول .

وقد أذيعت منذ أشهر أوامر توجب أن لا تقدم الخمر في الفنادق والملاهي بعد الحادية عشرة مساءً . حفظاً لصحة الشعب وآدابه من التبديد .

وفي العراق مدن لا يباح فيها بيع الخمر علانية ، وأشهر المدن في

هذا المعنى مدينة النجف ، وهى مدينة كبيرة ، ولكنها مع ذلك خالية من الملاهى والملاعب والمراقص ، ولم يدخل فيها الراديو إلا بعد جدال طال أمده بين العلماء .

ولما زرت النجف جلست على قهوة ، فلامنى إخوانى هناك ، وقالوا : سيكتب فى التاريخ أن الدكتور زكى مبارك حين زار النجف جلس على قهوة ١١

وسمعت أن أحد الموظفين بالكوفة كان يشرب الخمر سراً ، فلما علم الأهالى بخبره طاردوه إلى أن نقلته الحكومة من هناك . ويمكن القول بأن أهل العراق فى جملتهم ينكرون شرب الخمر ، تشهد بذلك الحفلة التى أقامها نخامة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبى فلم يكن فيها شراب غير الماء القراح ، ومعنى هذا أن آداب الإسلام لا تزال مرعية فى تلك البلاد .

وهناك شارع مشهور يسمى شارع أبى نواس وكنتم أظنه يشبه شارع وجه البركة فى القاهرة ، فلما رأيته عجبت ، لأنه شارع نظيف جداً يساير دجلة بحيث يمكن أن نسميه كورنيش بغداد ، وفيه قهوات لا يباح فيها شرب الخمر على الإطلاق .

وإنما نصصت على هذا الجانب من حياة أهل العراق لأنه يدخل فى صميم المجتمع ، ويمثل أذواق الناس أصدق تمثيل .

وقد لوحظ أخيراً أن الفنادق التى تباع الخمر تكثر فيها

المشاجرات فاهتمت الحكومة بالأمر وبثت حولها الأرصاد والعيون .

ويتصل بهذا ما شهدته حين دخلت بغداد فقد عرفت أن هناك أوامر تعاقب من يفطرون علنا في رمضان ، وكذلك ينقضى شهر الصوم وليس فيه مطعم مفتوح أثناء النهار ، وليس معنى هذا أن أهل بغداد يصومون جميعاً ، ولكن معناه أنهم يراعون آداب الصيام .

وملاهي بغداد تنقسم إلى قسمين : ملاه شرقية وملاه غربية . أما الملاهي الشرقية فتقوم على الغناء والرقص على نحو ما كنا نشهد في القاهرة منذ سنين . وقد عرفت أن البغداديين لا يصفقون حين يطربون للغناء ، وهذا فيما علمت كان من أسباب الوحشة التي أحسها الأستاذ محمد عبد الوهاب حين غنى هناك .

أما الملاهي الغربية فتقوم على الرقص الإفرنجى ، وهى ملاه قليلة جداً ، لأن الذهاب إليها يعدّ من العيوب ، وهى مع ذلك تزدهم بالرواد فى أكثر الليالى .

ومن هذا تفهمون أن المجتمع العراقى يعانى صعوبة الانتقال من وضع إلى وضع .

وما نقول به فى الحكم على مدينة بغداد نقول به فى الحكم على مدينة البصرة ، ففيها رأيت مرقصاً إفرنجياً لو شاهده الجاحظ لكتب

في وصفه رسالة أو رسالتين ١١

وقد أقمت في مدينة الموصل خمسة أيام فرأيتها أكثر احتشاماً
من البصرة وبغداد ، والسّر في ذلك أن الموصل يكثر فيها النصارى .
فيحرص المسلمون على آدابهم أشد الحرص ليقيموا التوازن بين
المذاهب ويذهبوا قالة السوء عن العقيدة الإسلامية .

ويسوقنا هذا الوصف إلى الحديث عن تدين أهل العراق ، فهم
في رأي من أشد الأمم تمسكاً بالإسلام ، وربما كان العراق هو الأمة
الوحيدة التي لا تزال تختلف وتأتلف حول المذاهب الإسلامية ،
والاختلاف حول تلك المذاهب يوحى إلى الجمهور حب التعمق
في درس الآراء والنظريات . وكذلك يعرف أهل العراق من
تاريخ الخلفاء والأئمة ما لا يعرف جمهور المسلمين في غير العراق .
وفي العراق عدة جمعيات تهتم بنشر المعارف الدينية ، منها جمعية
الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية ، والجمعية الإسلامية ، والأخيرة
جمعية يديرها جماعة من فضلاء الهند .

وعلماء الدين في العراق يحترمون أئمة الإسلام احتراماً شديداً
وقد يصلون في ذلك إلى حد التعصب الممقوت ، وأذكر أن جماعة
منهم قاطعوا محاضراتي في بغداد بسبب كتاب (الأخلاق عند
الغزالي)

ومحطة الإذاعة العراقية تصنع مثل الذى تصنع محطة الإذاعة
المصرية من الاهتمام بتلاوة القرآن وإذاعة الأحاديث الدينية، وهم
ينظرون إلى من يذكرهم بالدين والأخلاق نظر الاحترام والإعجاب
وهم يتوجعون لما قد يقع بالمسلمين من سوء، تشهد لذلك مواساتهم
التي لا تنقطع لأهل فلسطين

وبهذه المناسبة أذكر أن يهود العراق يكادون ينفصلون عن
الدعوة الصهيونية بفضل اهتمام أهل العراق بقضية فلسطين، وإني
لأذكر أن أول إعانة قدمتها هناك لمنكوبي فلسطين كانت ونحن
مجتمعون في بيت رجل من بنى إسرائيل

وجملة القول في هذا الباب أن العواطف الدينية في العراق
عواطف سليمة جداً؛ والمصاحح الموفق يستطيع أن يقود العراقيين
باسم الدين إلى أشرف الغايات
وهم مع تدينهم أهل مرح وطرب وانسراح؛ وأكثرهم مجيد
الغناء

بقيت كلمة عن خيرات العراق
وأقول إنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن ينتفعوا تمام الانتفاع بما في
بلادهم من خيرات، فعندهم نهران عظيمان هما دجلة والفرات،
ولكن مياه هذين النهرين يذهب معظمها إلى البحر بلا رقيب ولا
حسيب .

ويوم يستطيع العراق حبس مياه هذين النهرين ستقلب سهوله إلى رياض وحقول تعود على الناس بالخير العميم ؛ ولعل ذلك قريب . وجو العراق عفيف جداً في الصيف ، ولكن ينتظر أن يلطف حين تخزن مياه الأنهار وتكثر المزارع والبساتين .

وأنهار العراق مسمكة جداً فهم يأكلون السمك في جميع الأوقات وليست أنهارهم كنهر النيل الذي يضمن بالسمك فلا يراه الفلاح في العام غير مرات معدودات ، وكثرة السمك في أنهار العراق هي السبب في رخص اللحوم هناك .

وفي العراق يختلف الشمال عن الجنوب .

فالزاهب إلى البصرة تروعه النخلات التي تعذب الملايين ، والزاهب إلى الموصل تبهره حقول الحنطة ، وهي حقول ممدودة على مسافات طوال .

وفي العراق خيرات النفط الذي نسميه البترول ، ولها سوق قائمة في كركوك ، ويرى المسافر جذوات اللهب من مكان بعيد .

وسكان العراق هم اليوم نحو أربعة ملايين ، ولو استطاعوا تدبير الخيرات في بلادهم لوصل السكان إلى أربعين مليوناً .

وأخلاق أهل العراق تدور بين الشدة واللين ، فهم يسرفون في الحب ، ويسرفون في البغض ، وهم في هذا يتبعون جو بلادهم الذي يرق فيكون نسيماً ، ويقسو فيكون جحيماً .

ذلك أيها السادة بعض ما رأيت في العراق سقته إليكم بلا تزيين
ولا تجميل ، وهو يصور أهم ما يجب أن تعرفوه عن المجتمع العراقي
وفي المحاضرة المقبلة أحدثكم عن الحياة الأدبية في تلك البلاد
لنرى كيف صارت اللغة وصار الأدب في الأمة التي رفعت لواء
النهضة العلمية في عصر بني العباس .
ويسرني وأنا في مصر أن أقدم التحية إلى سائر أهل العراق
راجيا لهم من الخيرات والبركات ما أرجوه لنفسى ولأهلى ولوطنى .
حيا الله العروبة ، وحيا الله الإسلام .

الحياة الادبية في العراق

أيها السادة

حدثتكم من قبل عن بعض ما رأيت في العراق ، والدلة أحدثكم
عن الحياة الأدبية في تلك البلاد .

ولكن هل في العراق حياة أدبية ؟
العراقيون أنفسهم يرتابون في ذلك .

وهذا الارتياب يرجع إلى شعورهم بضعف الصلات بين حاضريهم
وماضيهم ، فهم يرون أنهم كانوا في العصر العباسي أئمة الناس في
العلم والأدب والبيان ، وينظرون فيرون بلادهم كانت خضعت
أحقاباً لسيطرة اللغة الفارسية واللغة التركية ، ثم يتأملون فيرون
القاهرة تصنع في العقول العربية ما كانت تصنع ببغداد في عصر
بني العباس .

وهذا الشعور يغرق أهل العراق في بحار من التأملات ، فهم
يجاهدون جهاداً قوياً لينتصفوا لأنفسهم ولأدبهم من سفاهة
الزمان .

والحق أن العراق من أصلح البلاد للشعر والخيال ، وترجع
هذه الصلاحية إلى جو العراق ، فهو شديد الحرارة في الصيف .

وشديد البرودة في الشتاء، ومن طبع الجو العنيف أن يوقظ
العواطف والأحاسيس .

والذي عاش في العراق يعرف صحة ما أقول ، فربما كان العراق
هو القطر الوحيد الذي لا تنقطع فيه الحماهم عن البكاء والنحيب ،
ويكون ذلك حين تهجم طلائع الصيف ، وترق العواطف
وتضعف الأعصاب .

وفي العراق أقاليم تنقل الخواطر من حال إلى أحوال ، فهناك
البصرة وهي المدينة التي تجري من تحتها الأنهار ، والبصرة تدخل على
القلوب ألوانا من الأحزان والأفراح ، بفضل ما تعرف أنهارها
من المد والجزر ، وما يعرف نخيلها من الشدة واللين ، وما يعرف
أهلها من القبض والبسط تبعاً لتقلب الفصول .

وهناك الموصل ، الموصل المزهري الذي يسمونه أم الربيعين ،
فللموصل قدرة عجيبة على تلوين الحزون والسهول ، وهو يستقبل
الربيع بمواكب تتموج من الأعشاب والأزهار والرياحين ، ثم
تجف أعشابه فجأة فتسبغ على النفوس أثواب الاكتئاب ، وبين
الأفراح والأشجان تنبغ عواطف الشعراء .

وهناك الطغيان ، طغيان دجلة والفرات ، وهذا الطغيان يغزو
القلوب بالروع والفرع فيجعلها صالحة أشد الصلاحية للشعر
والخيال .

وهناك الظباء الوحشية ذوات العيون والأجساد ، وقد رأيته
مرات ، رأيت أسرابها في طريقى إلى البصرة وفي طريقى إلى بغداد ،
وسمعت بأخبارها في سامراء .

وهناك الليل ، ليل بغداد الذى يطول على حلفاء الألم والأنين .
ومن اسم الليل جاء اسم ليلي التى صحت فى كل أرض ولم تمرض
إلا فى العراق .

وهناك الصحراء ، الصحراء الشامية التى تطوق العراق ،
والصحراء التى تقع بين النجف و كربلاء .

وكان لى مع صحراء النجف تاريخ ، فقد ثارت عواصفها ذات
يوم وأنا فى سيارة مع ثلاثة من الأصدقاء ، هم الأساتذة رزوق
غنام وصادق الوكيل وتقى آل الشيخ راضى ، فكانت حبات الرمل
تضرب وجوهنا بقوة وعنف حتى كادت تدميها ، ثم انغرزت
السيارة فى الرمل فظللنا هائمين لا ندرى أين تتوجه نحو ساعتين .

وذلك الجو العنيف الذى يهيج الأعصاب والأحاسيس هو الذى
جعل أهل العراق مضرب الأمثال فى صدق اللوعة ورقة الحنين ،
وقضى بأن يكونوا أكثر الناس شكاية من قسوة الأيام والليالى .
وما قال قائل (ياليل) فى مشرق أو فى مغرب إلا كان نواحه
منقولا عن أهل العراق .

والعراقى حين ينتشى يضع راحته على خده ويغنى غناءً شجياً

تلين له الجلاميد ، وربما كان السر في ذلك أن العراق قضى
الدهور في كرب وأشجان ، فهو طول عمره في حرب مع الطبيعة
ومع الناس .

ومن أجل هذا كان أهل العراق أجراً أهل الأرض على إعلان
ما يضمرون ، وهل رأت اللغة العربية شاعراً مثل الشريف الرضى
يتغزل في دوسم الحج وهو أمير الحج ونقيب الأشراف ؟
وهل رأى الناس رجلاً مثل الحبوبي ، وكان إمام المجتهدين
بالنجف ، هل رأى الناس مثله وهو في منصبه الديني يستبيح أن
يقول :

اسقني كأساً وخذ كأساً إليك
فلذيذ العيس أن نشتركا
وإذا جدت بها من شفتيك
فاسقنيها وخذ الأولى لك
أو فحسي خمرة من ناظريك
أصبحت نسكا وأضحت ونسكا
وانهب العمر ودع ماسلفا
واغتم صفوك قبل الرنق
إن صفا العيش فما كان صفا
أو تلاقينا فقد لا نلتقى

وفي العراق ينبغ الشعراء نبوغاً بلا سابقة عهد بالثقافة الأدبية ،
ينبغون في الشعر بلا تثقيف كما تنبغ الحمام في السجع بلا تثقيف .
فمن شعراء اليوم في بغداد شاعر مجيد هو صديقنا العزيز السيد
عبد الرحمن البناء ، وهو بناء حساً ومعنى ، ولكن عبقريته نقلته من
هندسة المباني إلى هندسة القوافي ، فله عدة دواوين شعرية ، وله
مطبوعة ، وله جريدة تسمى بغداد .

جلست أسمر مرة مع هذا الشاعر في ليلة قراء كأنها الصبح
المشرق في مصر الجديدة ، جلسنا في بهو الفندق ، فندق العالم العربي
على شط دجلة ، فنظر إلى وقال :
(أنا الذي بنيت هذه المسننة)

فوقعت هذه العبارة من نفسى موقع الشعر الجميل .
وقد عجب الأستاذ محمد بهجة الأثرى إذ رآه يوماً واقفاً في
الشارع العام يدير أمر الفعلة فيأمر هذا ويصرخ بذاك وفي يده
قلم وصحيفة ليدون ما يجيش ب صدره من المعاني .
ولكن لا عجب : فذلك بناء نشأ في العراق .
أيها السادة

قد رأيتم أنه ما كان يمكن أن تعيش مثل تلك البلاد بلا أدب
وبلا خيال .

فكيف حالها اليوم ؟

كيف حال البلاد إلى رفعت راية العلم والمدنية بعد أن هجم
الفرس والروم؟

عرفت في بغداد ثلاثة من الأندية الأدبية : نادى القلم العراقى ،
ونادى المعارف ، ونادى المشنى .

أما نادى القلم العراقى فهو شعبة من نادى القلم الدولى ، وهو تحت
رياسة معالى الأستاذ محمد رضا الشيبى ، أحد الأفاضل بين شعراء
العراق ، وسكرتير هذا النادى هو الدكتور محمد فاضل الجمالى
مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية .

وصلت بهذا النادى قوية ، فقد تشرفت بعضويته ، وكانت حجة
من رشخونى للعضوية بذلك النادى أنى عراقى الروح وإن كنت
مصرى النشأة ، وقد أنسى كل شىء ولا أنسى أيامى بذلك النادى
الجميل .

وكيف أنسى سهرات ذلك النادى وفيها صخب وضجيج
يذكرنى بمكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ؟
كنا نجتمع فى كل شهر نحو ثلاث مرات ، وما كان لنا مكان معين
وإنما كنا نجتمع كل مرة فى منزل أحد الأعضاء ، وكان على العضو
الذى نجتمع فى بيته أن يراعى مقتضيات الأحوال ، فإن كنا فى المدينة
قدم إلينا الشاى والحلواء ، وإن كان منزله فى الضواحي قدم إلينا
العشاء الخفيف ، والعشاء الخفيف هو طعام تبقى ذكراه فى الذهن نحو

ثلاثة أسابيع ، كالذى كان يقع فى الرستمية والزوية ، ومن الزملاء
من تلفت أمعاؤه من ذلك العشاء الخفيف !!

وفى كل اجتماع يلقى أحد الأعضاء محاضرة ، ولا تسألوا كيف
كنا نستمع تلك المحاضرات فمعالى الأستاذ الشبيبي هو الذى كان
يستمع ، وهو من أصبر الناس على المكاره والخطوب ، أما الأعضاء
فكانوا يقضون الوقت فى مضايقة الخطيب ، وأشهد أنى كنت من
أوفر الناس أدبا فى تلك الاجتماعات ، فما كنت أعترض على
الخطيب أكثر من سبعين مرة فى المجلس الواحد ، وقد رأى معالى
الرئيس أن يريحنى من المشاغبات فكان يقفل باب المناقشة بعد كل
اجتماع ، وهو فضل لن ينساه من كان ينقذهم تدخل الرئيس .

وفى نادى القلم العراقى عنزان ينتطحان : هما الأستاذ عباس
العزاوى والأستاذ عبد المسيح وزير ، وكنت بدأت أناطح الأستاذ
عبد المسيح ، ولكن الدورة انتهت قبل أن أشفى غليلي ، فان رجعت
إلى العراق فسوف ألقاه بما يشتهى حساده وعاذلوه !!

ويهتم نادى القلم العراقى بطبع ما ألقى أعضاؤه من جيد
المحاضرات ، وستكون مجموعة قيمة تمثل جوانب من أدب العراق
فى العصر الحديث .

أما نادى المعارف فهو نادى المعلمين ، وهو اليوم تحت رئاسة
الأستاذ رشيد العبيدى ، أحمد المتخرجين فى دار العلوم بالقاهرة ،

وهو ناد خفيف الروح كنت ألقى فيه أصدقائي في مساء الخميس من كل أسبوع ، حيث أسمر مع الصديقين عبدالستار وحسين ، وحيث أقرأ ما لا أستطيع الوصول اليه من جرائد ومجلات ، وحيث أسمع إذاعة مصر والعراق وفلسطين .

وفي ذلك النادى كنت أشرف بمقابلة سعادة الأستاذ طه الراوى من حين إلى حين ، وقد أخذت منه كلمة بالسعى لدى ولاية الأمور لينحوا النادى قطعة أرض بالضواحي ليشرع أعضاؤه بأنهم أصبحوا من أصحاب الأملاك المعنوية في بغداد .

أما نادى المثني فهو نادى العروبة ، وله صلات مع أكثر الزعماء بالأقطار العربية ، وله نشرات دورية تصور ما يدعوا إليه من مبادئ وآراء .

ومن أعضاء ذلك النادى عرفت السيد مهدي كبة والسيد عبد المجيد محمود .

ورئيس هذا النادى رجل شهم ، ولكنني نسيت اسمه مع الأسف وعرفت أيضا جمعية الشبان المسلمين ، ودارها بالكرخ الذي كان فيه قمر ابن زريق .

ولجمعية الشبان المسلمين هناك حيوية جذابة ، فهي ملتقى السامرين من أهل الفضل في بغداد .

وهناك جمعية الهداية الإسلامية ، وما أعرف أين تقيم ، ولكن

لها مجلة قوية اسمها : الكفاح ، ولها صلات بأكثر الباحثين في الأقطار الإسلامية ، وهي تصدر في كل سنة عدداً خاصاً بالمولد النبوي تلتقي فيه أقلام المتعمقين في التاريخ الإسلامي .
أيها السادة .

قد تسألون عن الصحافة في العراق ، وهي من أهم مظاهر الحياة الأدبية .

وأجيب بأن الصحافة هناك تجاهد لتؤدي واجبها في تثقيف الجمهور المتعطش إلى الآداب والفنون ، ولولا ضعف الطباعة وغلاء الورق لكان للصحافة في العراق مكان مرموق .

ومركز الصحافة هو بغداد ، لأنها العاصمة ، ففيها تصدر عدة جرائد يومية وعدة مجلات أسبوعية وشهرية مثل الأخبار والعالم العربي والزمان والرأي العام والعقاب والكرخ والاستقلال وبالك وحبزبوز والكفاح والمناهل والهدف والعراق وبغداد وفتاة العراق والمعلم الجديد .

وفي البصرة تصدر جريدة الناس وجريدة الثغر ، وفي الحلة تصدر جريدة حمورابي ، ورأيت في الموصل جريدتين .
وفي النجف تصدر الاعتدال والحضارة والهاتف .

وهناك جرائد ومجلات غاب اسمها عن الذاكرة ، وهي جميعاً تكافح الأمية وتدعو إلى الفضيلة ، وتعاون على التثقيف .

ولا تظهر قيمة الجهاد الصحفي في العراق إلا إذا تذكرنا ما يعترض
الصحافة من عوائق لا يتسع لشرحها هذا الحديث .
ويجب النص على أن جماهير أهل العراق لا يكتفون بما يصدر
في بلادهم من جرائد ومجلات ، فهم يقبلون إقبالا شديداً على
المجلات المصرية ، من أمثال المقتطف والهلل والرسالة والدنيا
والاثنين والمصور وروز اليوسف والرواية وآخر ساعة واللطائف
والصباح ، وهم في الأغلب يفضلون المجلات الجديدة على المجلات
الفكاهية .

وكذلك يمكن الحكم بأن الشباب العراقي يتصل بأصول الثقافة
الحديثة على نحو ما يتصل بها الشباب المصري ، وربما جاز أن نحكم
بأن الشباب العراقيين قد يعرفون من مؤلفات مصر ما لا يعرف
الشباب المصريون .

وهذا يبشر بمستقبل مزهر للحياة الأدبية في العراق
أيها السادة .

قد تسألون عن الشعر والنثر في العراق .

وأجيب بأن العراق هو في ذاته جذوة شعرية ، ففيه من الشعراء
مئات أو ألوف ، ومن فاته نظم الشعر لم تفته رواية الشعر ، وأسماهم
تقوم في الأغلب على رواية الأشعار ، وطباعهم الشعرية في غاية
من السباحة والنبيل ، وفيهم أريحية تذكر بأسلافهم في عصر

بنى العباس ؛ ولو صرحت بما فى نفسى لقلت إن شمائل أهل العراق
تعدّ نماذج من الشعر الرائع

ومع هذا لم يظفر منهم بشهرة عالمية غير شاعرين اثنين :
الزهاوى والرصافى .

أما الزهاوى فكان أهل مصر يرونه ناظماً لاشاعراً ، وأكثر
أشعاره يؤيد هذا الرأى .

ولكنى سمعت من أخباره فى بغداد ما أكد لى أنه كان يحيا حياة
شعرية ، وأنه كان فى ذوقه وإحساسه من الأقطاب بين أهل الفنون ،
وهو الذى يقول فى دفع من يتحاملون عليه :

على تهافتوا فرفعت كفى أصد به عن الأدب الذبابا
وأما الرصافى فهو أهل للشهرة التى ظفربها بين قراء اللغة العربية
وله ديوان فخم سيحفظ مكانه بين دواوين الفحول .

وللرصافى أشعار كثيرة لم تنشر ، وهى على ألسنة الناس ،
وأكثرها فى الهجاء . وما وصل إلى سمعى من تلك الأشعار يشهد بأن
العراق لم يضيع مذهبه الماثور فى السخرية من سخييف الأخلاق
والتقاليد .

والعراق مغبون من الوجهة العالمية ، ففى بغداد والنجف شعراء
لا يعرفهم غير أهل العراق ، ولو اعتدل الميزان لسارت أسماء
أولئك الشعراء .

أما النشر فلاحظ له في العراق لهذا العهد ، وما أذكر أنى قرأت
في العراق رسالة أو مقالة تضع كاتبها في الطبقة الأولى بين طبقات
الكتاب المبدعين .

وكذلك حالهم في النقد الأدبي ، فليس فيهم اليوم ناقد حصيف
يدرك الفروق بين دقائق المعانى .

وحظهم من التأليف الجيد قليل ، والصلة بين حاضرم وماضيهم
من هذه الناحية تكاد تكون منقطعة تمام الانقطاع .

وتخلف العراقيين في الانشاء والنقد والتأليف له أسباب ، فهذه
الفنون لا تزدهر إلا حين تقوى الثقافة الأدبية وتستفحل ،
والعراقيون لم يوجهوا همهم إلى الثقافة الأدبية إلا منذ زمن قليل ،
أى منذ تنسموا هواء الاستقلال .

ولانى لأرجو أن يصل اليهم هذا الصوت ، فما أحب أن يكونوا
في النقد والانشاء والتأليف من المتخلفين ، وكان أسلافهم من
من السابقين الأولين في هذه الميادين .

وهناك بوارق لهذه الفنون في الجرائد والمجلات ، ولكنها
كالبوارق التى تسبق الفجر الصادق .

ولنما نصصت على هذه الجوانب لأن أهل العراق يحبون من يدلهم
على مواطن التخلف ، ولو كنت أعرف أن النص على هذه الجوانب
يؤذيهم لراعيت ما بينى وبينهم من الحب والوداد .

أيها السادة

في العراق حياة أدبية بلا ريب ، ولكن يعوزها أشياء ، وهم يعرفون ما أعنى .

في العراق حياة أدبية يرى المتطلع شواهدا في كل مكان ، ولكني أحب أن أسمع أن العراق أصبح يسيطر على الحياة الأدبية في مختلف الأقطار العربية ، كما تصنع مصر في هذا الزمان .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذي تثور فيه المنافسة بين القاهرة وبغداد .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذي تروج فيه المؤلفات العراقية في مصر ، كما تزوج المؤلفات المصرية في العراق .

إن أدباء العراق يرون زيارة مصر من الفروض ، وأنا أنتظر اليوم الذي يرى فيه أدباء مصر أن زيارة العراق من الفروض .
فيا إخواني في العراق ، أنا أذكركم بواجبكم ، وأدعوكم إلى مضاعفة الجهد والنشاط لتصلوا بعون الله إلى ما يرجوه لكم محبوبكم من خير وسداد وتوفيق .

وإلى اللقاء ، يا أدباء العراق ، في ميادين النضال بين القاهرة وبغداد إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأقطار العربية أمة واحدة متجانسة تجانسا تاما في العواطف والمقاصد والأغراض .

إلى اللقاء القريب يوم ترفع الحواجز التي خلقتها الأوضاع

السياسية فلا يحتاج الرجل إلى جواز سفر حين ينتقل من العراق إلى مصر أو من مصر إلى العراق .

إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأخوة العربية أقوى وأمنع من أن تكدرها وشايات الواشين ونمائم النمامين .

إلى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربي جسماً واحداً إذا تألم منه عضو توجع له سائر الأعضاء .

إلى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليمية والاجتماعية والاقتصادية ، يوم لا تكون الفوارق الجغرافية إلا نعمة ندرك بها كيف شاء الله أن ينقع الخيرات والبركات .

وهذا حلم قد لا يتحقق ونحن أحياء ، ولكن يشرفنا أن نكون من أوائل الهاتفين بهذا الحلم الجميل .

أبو العلاء في الميزان

أكتب هذا المقال في لحظات حزينة اكتوى بنارها أبو العلاء ؛
أكتب هذا المقال وأنا أحزم أمتعتي للرحيل عن بغداد ، وهو ،
رحمه الله قد بكى يوم فارق بغداد ، ولعله لم يعرف موجعات الحزن
إلا يوم قهره الوجد على أن يقول :

أودّعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضنٍ لم يستقلّ وإنما تحامل من بعد العثار على ظلع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربي
ألا زودوني شربة ولو أتى

قدرت إذا أفنيت دجلة بالكرع

أما بعد فإني أرى أن أبا العلاء لم يكره الدنيا أبداً ، ولم يكن يوم
اعتزل دنياه إلا حيواناً مفترساً نزع الدهر ما كان يملك من أظافر
وأنياب . ولو كان أبو العلاء كره دنياه لا كتفى منها بأيسر العيش ،
ولكنه عاش عمراً طويلاً جداً ، وطول العمر يشهد بقوة الأواصر
بين المحب والمحبوب ، فالقتال بين أبي العلاء وبين دنياه كان قتالاً
بين عاشقين يظهران البغض والحقد ، ويضمران العطف والحنان .

والناس متفقون على أن أبا العلاء كان طلق دنياه فلم يظفر بما
في حواشيها من نعيم ومتاع ، ولكنى بعد التأمل عرفت أنه زهد في
جميع الأشياء إلا المجد ، والمجد هو أشهى الأطايب في دنيا الرجال .
فإن لم يكن هذا صحيحا فكيف نفسر خضوعه لما شاع في زمانه
من التقاليد الأدبية ، والخضوع للتقاليد الأدبية دليل الحرص على
انتهاج ما يملك الناس . وأحب أن أشرح هذه النظرية فأقول :

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين : أولهما يمثل في سقط الزند ،
وثانيهما يمثل في اللزوميات . أما سقط الزند فمجموعة شعرية تشهد
بأن الرجل كان يعجبه ويرضيه أن يكون من أقطاب اللغويين ، وهو
قد أفصح عن ذلك حين خاطب الشريف الرضى والشريف المرتضى
في القصيدة التي رثى بها أبا أحمد الموسوى فقال :

يامالكى سرح القريض أتتكما منى حمولة مسنتين عجاف
لا تعرف الورق اللجين وإن تسل تخبر عن القلام والخدراف
وهى شهادة صريحة بأنه كان يحب أن يملك قلوب البغداديين ،
وكان البغداديون ألفوا حب البادية ، وهو مرض فظيع ترك في
اللغة العربية أسقاما وعقاييل . وأما اللزوميات فمجموعة شعرية
تشهد بأن الرجل خضع لأمراض زمانه أبشع الخضوع ، فقد كان
الأدباء في صدر القرن الخامس قد ابتلاهم الجهل بيلية سخيقة هي
الهيام بالزخرف ، والفناء في التزويق والتحويل .

والفرق بين مجموعة سقط الزند ومجموعة اللزوميات فرق عظيم جداً عند من لا يعرف . أما أنا — وأنا باحث يزعم أنه يعرف — فأحكم بأن المعرى انتقل من بلاء إلى بلاء ، وأراه في سقط الزند مولعا بالإغراب ، أغنى تصيد الغريب من الأخيلة والألفاظ والتعابير ، وأراه في اللزوميات مريضاً بعلتين : الإغراب والبديعيات .

هل كان المعرى يجهل أنه يحنى على اللغة العربية بما صنع ؟ هل كان يجهل أنه في أغاب أحواله يخاطب أهل العراق وأهل الشام بما لا يفهمون ؟ هل كان يجهل أن في سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران شطرات وفقرات لا يفهمها المتفهم إلا بعد التأمل العميق ؟ هل كان يجهل أن البيان الحق هو الذى يروءك لأول نظرة كما يروءك الجمال الفصيح ؟

ما كان أبو العلاء يجهل ذلك أو بعض ذلك ، وإنما كان رجلاً لبقاً يعرف مواضع الضعف فيمنع عاصروه فغزاهم بلارحمة ولا إشفاق . قد يقول القارئ : وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذه النزعة هي الشاهد على أنه لم يكن في دنياه من الزاهدين ، ولو أنه كان زاهداً لا أنصرف عن حيازة ما يملك معاصروه من زخرف وبريق ، وهو قد اتهم ثروتهم فانتزبها واستطال . كان المعرى سياسياً في حياته الأدبية ، والسياسى لا يكون صحيحاً

ساليا إلا إن استراح إلى أوهام الناس فتعاق أهواءهم بلا تهييب
ولا استحياء ، وكذلك صنع المعري فتكاف الغريب من الأخيلة
والألفاظ والتعابير ، لأن الغريب كان في ذلك العهد رائج السوق
في مصر والشام والعراق .

ولو كان الرجل زاهداً في المجد الأدبي لظهرت الحكمة على لسانه
سمحة سهلة لا يشويها تكاف ولا افتعال . ولكن القارئ لن يسكت ،
فقد يكون الأم مني ، فيسأل : وأين أنت من الزاهد الذي حرم على
نفسه لحم الحيوان ؟

إن قال ذلك فإني سأقنعه بأيسر جهد ، فقد اتفق لي أن أعيش
نباتياً في باريس زمناً غير قليل ، وما كنت مخلصاً كل الإخلاص في
إيثار الحياة النباتية ، وإنما أردت أن أعرف سر المذهب النباتي
لأكتب عنه بحثاً أو بحثين ، وحالي في هذا أقرب إلى النزاهة من
حال أبي العلاء ، فقد حرم على نفسه لحم الحيوان ليوهم الغافلين أنه
تفرد بالرحمة والشفقة والعطف ، وما كان في حقيقة أمره إلا آكل
لحوم ، وستعرفون صدق هذا الحكم بعد لحظة أو لحظتين .

هل يذكر القارئ ما وقع لأبي العلاء يوم مرض ؟

مرض أبو العلاء — عفا الله عنه وعني — فنصح به الطبيب بالحمية
وحين اطمأن الطبيب إلى نجاته من المرض وصف له فتروجاً ، والفروج
فرخ الدجاج ، ودارت يد أبي العلاء حول جسم الفروج في ترفق

مصطنع ، ثم هتف : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟

الله أكبر ! ذلك هو منطق شيخنا أبي العلاء .

فهل كان يظن هذا الشيخ أن الطبيب يستطيع أن يصف له شبل الأسد ؟ إن نثيرة واحدة من شبل الأسد كانت تكفي لنقل أبي العلاء إلى حظيرة الأموات ، ولكن الرجل استطاب الضحك على المغفلين من أبناء ذلك الزمان .

هل زهد أبو العلاء في أكل اللحم ؟ هذا تمويه وتضليل . كان الرجل يتخرج من لحم الطير والحيوان ، ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم ، لحم الانسان ، فما ترك فئة ولا جماعة إلا انتاش لحما بأنياب حداد .

لقد انسحب المعري من المجتمع ، وما كان ذلك بابا من الزهد ، وإنما كان فرار المناضل الذي تعب من النضال . وماذا صنع المعري حين انسحب من المجتمع ؟ أترونة نظر اليه نظر الرفق والعطف ، وذلك واجب الفيلسوف ؟

ما صنع شيئا من ذلك ، وإنما قضى دهره في أكل لحوم المجتمع ، ولو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع قد يفسد من حيث لا يريد ، لو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع غير مسئول عما يعاني من أهام وأضاليل ، فتلك موارد القرون الطوال ، لو كان

المعري على شيء من الصفاء لأدرك أن المجرم قد يجرم وهو غير
مستول .

ولو كنت أستبيح لحم المعري كما استباح لحوم الناس لقلت إن
ثورته على المجتمع كانت ضرباً من الانتقام الأثيم ، فالرجل كان
يعرف أن أهل زمانه يهتمونه بالمروق من الدين ، فشاء له هواه أن
يسجل مخازيهم وما آثمهم وأن يفضحهم في العالمين .

قد يقول القارئ مرة ثانية : وما محصول هذا الكلام ؟
وأجيب بأن هذا النزق هو دليل الحيوية ، فالمعري كان يناضل
نضال الأحياء .

وما أعيب عليه غير التناقض في فهم الرحمة : فهو كان يعطف
على جميع المخلوقات إلا الانسان ، ولو أنه دخل في معركة مع الطير
أو الحيوان لنظم في ثلها مجموعة أعنف من اللزوميات

كانت نظرات أبي العلاء إلى المجتمع نظرات عوام لا خواص ،
وأما أرتاب كل الارتباب في أن يكون هذا الرجل حاول التوفيق
بين سيطرة المقادير وضعف الناس ، وأكاد أجزم بأنه لم يدرك
خطر العسف ، عسف الحاكم الذي يبيع فتح الحانات ثم يعاقب
الناس على الشراب .

أما آراؤه في الزهد والزهاد فهي أضاحيك ، وهي تشهد بأنه لم
يعرف الزهد ، لأنه كان في سريرة نفسه يؤمن بأن الناس لا يزهدون

إلا مخادعين أو مرأئين ، ولعله لم يزهد إلا خداعاً ، أو رياء . بل
لعله جهل كيف لطف الله به حين حجب بصره عن أسباب الشهوات
فلو أن الله كان حفظ عليه نور العيون لعرف أن الفضائل لا تشق
ولا تصعب إلا على من يقارعون فتن الوجود . لو أن أبا العلاء
كان مبصراً لرحم الناس . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف صدق الحكمة
التي تقول : القابض على دينه كالقابض على الجمر ، . لو أن أبا العلاء
كان مبصراً لعرف أن الرجل لا يستطيع البعد عن مواطن
الشبهات إلا حين تكون عزيمة أرزن من الجبال :
لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف أن الناس لا ينخدعون
لمظاهر الفتون لاهين أو لاعبين .

من أنت والإنسانية يا أبا العلاء ؟ من أنت والإنسانية حتى تفضحها
بذلك الكتاب الذي اسمه اللزوميات ؟
أيها الرجل العظيم ! إنى أرثى لك وأعطف عليك ، فقد حرمتك
الأقدار من نعمة الجهاد في سبيل الفضيلة ، حرمتك الأقدار من
أسباب الشهوات فلم تكتب لك صفحة واحدة في كتاب الجهاد .
وكيف يحتاج إلى جهاد النفس من يحبس نفسه في بيته ولا يأكل
غير البقول ؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من يقضى الدهر ولا تقع عينه
على وجه جميل ؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من لا تذوق روحه صهبا
الوجود؟

أغلقت أبواب الجهاد الأكبر — جهاد النفس — في وجه أبي
العلاء منذ أصبح رهين المحبسين ومنذ اكتفى بالطعام الذي لا يوقظ
شهوات الحواس . ولكن بقي أمامه باب واحد من أبواب الجهاد :
هو نزاهة الأذن ونزاهة اللسان ، فماذا صنع ؟

لقد أصبح أبو العلاء في ذمة التاريخ ، وما يضره أن تتجنى عليه ،
ولو كنت أعتقد أنه يتأذى لحبست عنه قلبي ، وفي حدود هذا
التحفظ أقول إن الرجل أقام أذنيه مقام عينيه فعرف من صور
المجتمع كل شيء ، وكان له فيما افترض أصحاب ينقلون إليه سوءات
الناس فيمضي في ثلبهم وذمهم وتجرىحهم بلا ترفق ، وكذلك حرم
من روح التصوف فلم يعرف معنى العطف على مصائب الناس .

* * *

قلت إن أبا العلاء كان ينتقم من المجتمع . وأقول مرة ثانية إن
ذلك دليل الحيوية . فمن الذي يحرم على هذا الرجل أن ينتقم من
أهل عصره وقد آذوه أشنع إيذاء ؟

ومن الذي يملك من الصبر ما يكف به لسانه عن عورات الناس
في بعض الأحيان ؟

إن أبا العلاء هجم على المنافقين ، والقرآن استباح الهجوم على

المنافقين ، وما يمكن أن نعيب على أبي العلاء ما استباحه القرآن .
إن أبا العلاء هجم على رجال الدين ، ولا غرابة في ذلك ، فرجال الدين
أنفسهم يهجم بعضهم على بعض . إن أبا العلاء أعلن يأسه من
الإنسانية ، فهل استطاعت الإنسانية أن تحمى أهل الصدق والوفاء ؟
إن أبا العلاء سخر من تعدد الديانات والمذاهب ، فهل استطاع
المصلحون أن يمحوا أسباب الخلاف بين الديانات والمذاهب ؟
إن أبا العلاء جزم بأن بنى آدم :

ما فيهم برّ ولا صالح * إلا إلى نفع له يجلبُ

فهل استطاع بنو آدم أن يقيموا الدليل على خطأ هذا
الظن الآثيم ؟

إن أبا العلاء حكم بأن المرأة إذا شربت الكأس فقد تعرت ، فهل
اكتسى من بعده النساء ؟ إن أبا العلاء حدثنا بأن ناسا ينهون عن
الخمر في الصباح ويشربونها في المساء ، فهل انقرض هذا النوع من
النفاق البغيض ؟

أسرف أبو العلاء في تجريح الإنسانية ، وقد أنصف ، فهذه
الإنسانية الباغية تحتاج إلى من يفضح بغيها من حين إلى حين .
ومن هم بنو آدم حتى يعطف عليهم أبو العلاء ؟

هل عاش فيهم مصالح إلا بغصة أليمة لا يزحزحها في حلقه غير
الموت ؟

وهل كانت تواريخ الأنبياء إلا سلسلة من الرزايا والنكبات ؟
وما الذى كان يصنع أبو العلاء والدنيا من حوله تضج بالظلم
والعسف والزور والبهتان ؟

إن أشعار أبي العلاء سجل صحيح لأوهام الإنسانية ، فلتكذبه
الإنسانية الباغية إن استطاعت .

لم يعرف الناس أن أبا العلاء رجل ضير ، وأن من كان فى مثل
حاله خلى بالشفقة والعطف ، وهم تعقبوه بقالة السوء من أرض
إلى أرض ، فلتكن قائله فيهم وصمة باقية على الزمان .

ولكن ماهذا الذى صنعت بالناس يا أبا العلاء ؟ إن عمالك
أخف من عماهم ، هم جميعاً مساكين صحت فيهم كلمة من يقول :
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبطل بالماء
أنت عبت النفاق على رجال الدين ، فكيف غاب عنك أن
رجال الدين لم يعيش بينهم رجل صريح ؟ أنت عبت الظلم على
الحكام ، فكيف غاب عنك أن الحاكم العادل جزاؤه الخسران ؟
أنت أنكرت تعدد الديانات والمذاهب ، فكيف غاب عنك أن
لله حكمة فى هذا التعدد ؟

أنت رجوت أن يكون الناس حكماء ؛ وما استطعت أن
تكون حكماً

أنت رجوت أن يضبط الناس ألسنتهم ثم عجزت عن
ضبط لسانك .

أنت عشت في قرية صغيرة ولم يسلم عقلك من الفتون ؛ فكيف رجوت
السلامة لمن عاشوا في كبريات المدائن ؛ وصار عوا فواتك الأهواء ؟

أما بعد فأنا أشهد أن المعري كان رجلاً عظيماً ، بدليل أنه عاش
نحو ألف سنة على السنة الناس في المشرق والمغرب ، ولو كان
حقيراً لمات يوم مات !

والمعري له أخطاء لا تحتملها الملائكة ولا الشياطين . وله عندى
عذر مقبول . فقد كان على عظمته شخصاً من بنى آدم ، آدم
المسكين الذى أغوته امرأة حمقاء فنزل إلى الأرض بعد أن كان
يسكن فراديس الجنان .

عفا الله عنك يا أبا العلاء وعفا عني !

في ضيافة القرآن^(١)

سيداتي ، سادتي

أرجو أن تلقوني بقلوبكم قبل أسماعكم ، إن كان فيكم من يندم على ذنوبه كما أندم على ذنوبي ، أرجو أن نقضى لحظات في ضيافة القرآن فهذه الأيام هي أصلح الأوقات للتشرف بضيافة القرآن ، وإنما كانت كذلك لأن الخطايا أثقلت كواهلنا ، والمريض هو أعرف الناس بفضل الطبيب ، وقد آن أن نرجع إلى القرآن كلها دهمتنا ظلمات الذنوب ، فهو يهدينا برفق وعطف ، ويوجهنا إلى الخير بلطف وحنان .

وأنا أرجع إلى القرآن من حين إلى حين ، أرجع إليه حين تعجز المذاهب الفلسفية عن هداية قلبي ، أرجع إليه حين لا ينجيني الغرور السخيف الذي يوهمني بأنني وصلت إلى أصول الحقائق حين طوّفت بالمذاهب الفلسفية عند القدماء والمحدثين ، أرجع إليه حين أكون كالمريض العاقل الذي لا يخفى علته على الطبيب .

واسمحوا لي أن أنهم نفسي علانية فأنا أتهيب إعلان صداقتي للقرآن المجيد لئلا يشك الناس في علمي ، فمن أوهام هذا العصر

(١) محاضرة أقيمت في محطة الإذاعة العراقية في ليلة المولد النبوي .

أن يكون العلم عند الملحدين لا عند المؤمنين ، ولن أجرؤ على إعلان إيماني إلا يوم يصح عندي أن منافع الدنيا وإن جلت وعظمت لا تساوي التشرف بالخضوع لأحكام القرآن .

أنا أيها السادة صريع العصر الحديث ، ويعزيني في بلوأي أن لي زملاء يعتدون بالملئات أو بالآلوف ، فأكثر من تعلوا في أوروبا يؤذيهم أن يقال إنهم مؤمنون ، لأن أوروبا طافت بها موجة عنيفة أشاعت في الناس اليقين بأن العلم والدين لا يلتقيان .
وقد اكتبنا في مصر بهذه البلية ، وما أعرف بالضبط كيف حالكم في العراق .

* * *

ولكن أفى الحق أن القرآن يملك هدايتنا إلى أصول الخير في العصر الحديث ؟
أفى الحق أن الكتاب الذي مضت عليه أجيال وأجيال يعطينا من الهداية ما تهجز عنه الفلسفة العميقة التي تدرس في الجامعات الفرنسية والألمانية ؟
ألا يكون كلامي هذا تعصبا ، صطنعا أجتلب به العطف من جماهير المسلمين ؟

ألا يمكن أن أكون مرائيا يخادع الناس ؟
أنا لا أكذب عليكم ، أيها السادة ، فعصركم لا يشقى فيه غير

الصادقين ، وإنما قضت المقادير أن تشرقى محطة الإذاعة بالدعوة
لإلقاء كلمة في الليلة التاريخية التي ولد في مثلها الرسول ، وقد قبلت
بعد تردد وتهيب ، لأن الكلام في هذه الليلة يوجب الصدق ،
والصدق صعب على نفسى ، لأنى أعيش — وأأسفاه — فى عصر
الأكاذيب .

أيها السادة

نحن فى ضيافة القرآن ، فما الذى نجده على مائدة القرآن ؟
نجد الأعاجيب من أطايب العقل والوجدان .
والأفكيف اتفق أن يثنى القرآن على جميع الأنبياء والمرسلين ،
ولكن أى ثناء ؟

إن النصارى لم يمجّدوا المسيح بمثل ما مجّده القرآن .
واليهود لم يثنوا على موسى بمثل الذى أثنى عليه القرآن .
والشرائع القديمة لم تحفظ ذكرياتها الطيبات إلا بفضل
القرآن .

فكيف صح للرجل الذى اسمه محمد أن يزكى منافسيه من الأنبياء
والمرسلين ؟

كيف صح لهذا الرجل أن ينسى أول حقيقة فى حياة
المجتمع ، وهى السخرية من جميع المبادئ ليتم له التفرد بالعظمة
النبوية ؟

هنا تظهر بارقة من النور تشهد بأن هذا الرجل لم يكن طالب صيد، وإنما كان نبيا .

ارجعوا إلى القرآن أيها السادة تجدوه لا يفرق بين أحد من الأنبياء، وعندئذ تؤمنون بأن محمداً لم يبن مجده على أنقاض الشرائع، ولو كان كاذباً لادعى لنفسه كل شيء، وزيف ما جاء به الأنبياء والمرسلون .

ارجعوا إلى التاريخ، أيها السادة، وانظروا كيف صنع من سموا أنفسهم مصلحين .

اقرأوا تواريخ المسيطرين وانظروا كيف كانوا يحون آثار من سبقوهم بلا ترفق .

استنطقوا الآثار في الشرق والغرب، وانظروا كيف كان الملوك يتسكرون فضل آبائهم .

ارجعوا إلى ماضيكم القريب مع إخوانكم وأصدقائكم تجدوهم سلقوكم بالسنة حداد .

انظروا كيف ينسى الأخ فضل أخيه وكيف يعق الابن أباه .

انظروا وتأملوا ثم تذكروا كيف صح للرجل الذي اسمه محمد أن يقيم كتابه على تمجيد من سبقوه إلى الإيمان .

كم كنت أحب أن أسخر من القرآن ليتحدث الناس باسمي في كل مكان !

لقد ضاعت الفرصة الطنانة الرنانة ، فرصة الزندقة والإلحاد ،
لأتى مع الأسف المومجع لم أستطع النجاة من سحر القرآن .
كنت أحب أن أتمرد على القرآن ولكنى عجزت ، ومن واجبي
نحو نفسي أن أبين كيف عجزت . فاسمعوا واعجبوا :

هناك آية لا يصدق أحد أنها في القرآن ، هناك آية أخشى أن
ترفض من أجلها هذه المحاضرة ، وسأذهب إلى محطة الإذاعة وفي
يدي المصحف ، حتى لا يظن المشرفون على الإذاعة أنني كذبت
أو اقتريت .

هناك آية غريبة ، وما أكثر ما في القرآن من غرائب .
هناك آية عجيبة ، وما أكثر ما في القرآن من عجائب .
هناك آية تقول : «ماندخ من آية أوندسها نات بخير منها أو مثلها»
أتذكرون هذه الآية ؟ لقد رأيتموها في المصحف ، وما تخوتني عيناى .
فما معنى هذا الكلام ؟

تذكروا أن الرسول يروى عن ربه تباركت أسماؤه ، وهنا وجه
الغرابة والعجب ، وهل رأيتم أغرب وأعجب من أن يشهد الله على
نفسه بأنه يراعى أحوال المجتمع فينقله في التشريع من وضع إلى وضع ؟
هل تصدقون بأن الله وهو مالك الملك يضع نفسه من الناس
• وضع الأستاذ من التلاميذ ؟

هل تصدقون بأن الله يشهد على نفسه بأنه يتدرج في هداية

المخلوقات ؟

عز شأن الله ، فهو بكل شيء عليم ، ولو شاء لخلق للناس شريعة
أبدية لا ينالها تغيير ولا تعديل ، ولكنه أراد أن يروضنا على أدب
النفس ، أراد أن يعلمنا التواضع ، فهل تعلمنا التواضع ؟

إن الله ينسخ آياته أو ينسبها رفقا بالمجتمع .
أما نحن فنحرص على آرائنا وأفكارنا ونقضى العمر في الدفاع
عما نملك من أباطيل .

أين الحاكم أو الفيلسوف الذى يستطيع أن يعلن أنه كان فى بعض
آرائه من المخطئين ؟

إن الرسول يخبرنا أن ربه كان يراعى أحوال المجتمع .
فمن هو المصلح الذى يترفق بالمجتمع ؟ عز شأن الله ، فما أراد
إلا أن تتأدب ، فهل تأدبنا ؟

إن الإنسانية ترتطم كل لحظة فى أضاليل الفلاسفة والمفكرين ،
لأن أكثرهم يموت وهو مصرّ على الضلال .

* * *

نحن على مائدة القرآن ، فماذا نجد ؟
نجده يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى
ربكم ترجعون » .

فنفهم قيمة اليقظة فى السيرة الإنسانية .

ونجده يقول: «إني الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون
كما تأكل الأنعام، والنار مشوى لهم»

فنفهم أن نعيم الحواس متاع خسيس، وأن النعيم الأعظم هو
النعيم في عالم المعاني.

ونجده يقول «هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم
من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم
الفقراء».

فندرك أن الانفاق في سبيل الخير من أشرف وسائل الجهاد.
ونجده يقول «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن
تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»

فتتذكر المأساة الموجهة التي نعاني مكارهها في كل صباح وفي
كل مساء، فحياتنا مكثرة مرقة بسبب الاستماع للوشايات والنائم،
لأننا نسمع في أصحابنا ومعارفنا وأصدقائنا كل قيل، ونرتب
المقدمات والنتائج على ما نسمع، وقلما نتذكر أن من واجبنا ألا نصدق
ما نسمع إلا بعد درس وتثبت وتبين وتحقيق، قلما نتذكر أن الحكم
على الغائب لا يخلو من اعتساف. وسكرتنا عن مراجعة الواشين
والنامين، وتفریطنا في تقديمهم إلى ساحة الجراء، كل ذلك غرس
فيهم الطمأنينة إلى السلامة من عواقب ما يصنعون. فالنمام يضع

بذور الفتنة بين الناس وهو مطمئن لأنه يعرف أننا في الأغلب
نصدق كل ما نسمع ، ولا نفكر في معاقبة المفترين .
هذه الآية عجيبة ، ولكن تاريخها أعجب فقد نزلت في أعقاب
غاطة كاد يقع فيها الرسول ، ثم نجاه الله وحماه .

* * *

ومن عجائب القرآن أنه يجعل النبي صلى الله عليه وسلم إنسانا
يخطئ ويصيب ، وهو يوصي النبي بتأكيد هذا المعنى في أنفس
الناس فيقول :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد ،
فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة
ربه أحدا »

وفي أي عصر يقع هذا الكلام ؟ في عصر كان أهله في كل أرض
يروون النبوة ضربا من الألوهية ، ويستبعدون أن يكون الرسل
ناسا كسائر الناس ، فلو كان محمد من الكاذبين لأوهم الجاهل أن فيه
نفحة ربانية .

ولكن هذا مستحيل على من يروى عن ربه هذا الحوار
الطريف :

« وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم : أنت قلت للناس اتخذوني
وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول

ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم
ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به
أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما
توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد : إن
تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ،
وهذا الحوار غريب أيضاً ، فهو ينطق عيسى عليه السلام بما
يليق بالأنبياء ، ثم يصوره بصورة المشفق على أتباعه من عواقب
الزيغ فيسترحم لهم ويستعطف ، وذلك ترفق نبيل .

والعدوثة فى مثل هذا الحوار تشهد بأن أسلافنا كانوا على حق
حين جعلوا جميع العلوم وسائل لفهم القرآن فأنا أكاد أجزم بأن
القرآن لا يفهم حق الفهم إلا بعد التعمق فى العلوم الأدبية والعقلية
وأكاد أجزم بأن النظر فى المصحف يعصم المرء من عواصف
الشهوات ويهديه سواء السبيل . ومن كان فى ريب من ذلك فليجرب
مرة أو مرتين فقد ينقله المصحف من حال إلى حال ، وقد يكون له
من الخير نصيب فينقل من سجل الأتقياء إلى سجل السعداء .

أيها السادة

هل فيكم من تشرف بالنظر فى سورة الحجرات فرأى فيها
هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلبسوا أنفسكم ، ولا تناهزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

هل فيكم من فطن إلى أن هذه الآية تنطبق على أحوال هذا العصر كل الانطباق ؟ فنحن اليوم في الاقطار الإسلامية منقسمون إلى أحزاب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل جماعة تظن أن الخير وقف عليها ، وأن من خرج على حدودها فهو من الضالين . وهذا الظن السيء هو الذي عاد على قلوبنا بالخراب ، فقلوبنا أيها السادة أصبحت كأوكار الحيات والثعابين ، أصبحت قلوبنا موبوءة وكأنها البقعة الخربة التي تعيش فيها الهوام والجراثيم ، ولو كنا نعقل لتأدبنا بأدب القرآن وعرفنا أن قلوبنا في حاجة إلى مصاييح من حسن الظن بالله وحسن الظن بالناس .

واسمحوا لي مرة ثانية أو ثالثة أو رابعة بأن أتهم نفسي فأنا الشقي وأتتم السعداء ، اسمحوا لي أن أعترف بأني ضيعت على نفسي خيراً كثيراً حين فاتني أن أتأدب بأدب القرآن ، فقد حملني الغرور على الظن بأن الخير لم يعرف قلباً غير قلبي ، ثم تبينت بعد فوات الوقت أن الله لم يخلق العالم عبثاً ، وأنه لم يمنح النور والهواء والحياة إلا لمن يراهم أهلاً لكل أولئك الطيبات .

وأبشركم بأنى بدأت أهتدى ، وأصبحت أنظر إلى من يسيئون
الظن بالناس نظر العطف ، فهؤلاء يعانون من أمراض القلوب بعض
ما كنت أعانى ، هؤلاء أطفال فى عالم الأخلاق ، فلننظرهم قليلا
فسوف تنضجهم الأيام والليالى ، هؤلاء مساكين يتوهمون أن
الدنيا يقوم بأعبائها رجل واحد ، أو حزب واحد ، فلننظرهم قليلا
فسوف تعلمهم الحوادث أن العالم لا يعيش إلا إذا اجتمع فيه
الفاضل والمفضول ، والراجح والمرجوح ، والرئيس والمرعوس .
وهذا الكلام الذى أقول به هو فى جوهره أصغر من الحكمة
القرآنية ، فالقرآن يوصينا بالحنذر المطلق ، وهو لا يسمح لفرد
ولا قوم أن يظنوا بأنهم أفضل الناس على الإطلاق ، ويقول « يا أيها
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ،
ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهم »

وقد علمتني الحوادث بأن الثقة لا تتم بين رجلين إلا إذا اعتقد
كل واحد منهما بأنه أقل من أخيه فى أدب النفس ، وعلمتني
الحوادث وعلمت غيرى أن الرجل يصبح أجهل الناس إذا اطمأن
إلى أنه صار من العلماء ، والقرآن يوصينا بأن نحترس فلا نزع
التفرد بالكمال ، فإن هذا الزعم باب إلى الخراب ، خراب العقول
والقلوب .

وأحب أن أذكر نفسي وأذكركم إن شئتم بهذه الوصية :
« ولا تلبزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالآلقاب »
واللمز هو تجريح الناس والغض من أقدارهم ، وهو من أخلاق
من لا يتقون الله ، والتناز بالآلقاب هو أن يخاطب الناس بعضهم
بعضاً بما لا يحبون .

فأين من هداه الله إلى مراعاة هذه الآداب ؟
أين من يحدثه القلب بأن الاهتمام بإظهار محاسن الناس أفضل
من الهيام بكشف مساوئهم ؟

أين من يحدثه القلب بأن التلطف في الخطاب أدب جميل .
ولكم أن تعجبوا أيها السادة حين ترون القرآن يعقب فيقول :
« بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »
فهو يرى التفريط في هذه الآداب خروجاً على الإيمان ، وهذا
حق ، فما كان الإيمان كلمة تلوكها الألسنة وتمضغها بلا إحساس ،
وإنما الإيمان عقيدة وأعمال .

جعلنا الله بفضله من المؤمنين .

* * *

أيها السادة

إن مائدة القرآن متعددة الألوان ، وفيها أطايب تنفع جميع
الأمعاء ، فللأفجر حديث ، وللرئاس حديث ، وللمؤمن حديث ،

واللجاجة حديث ، ولكل إنسان مكان على مائدة القرآن .
ولكن يبدو لي أن إيماننا لا خوف عليه ، فأنا مطمئن إلى أن
المسلمين هم في الأغلب مؤمنون .
غير أنني وقد اختبرت نفسي أشعر بأننا في حاجة شديدة إلى النظر
في الآية الآتية :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن
إثم . ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، يحب أحدكم أن
 يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب
رحيم » .

فهذه آية يجب أن ترقم على كل مكان لأراها ويراها أمثالي
من المساكين ، فكل إنسان في هذه الأرض يجب أن يكون له في
الناس رأى ، ويزعجني أن أقر بأنه يؤذينا أن تحسن آراؤنا في الناس ،
وقد جربت ذلك ، ولكم أن تجربوه ، فما ذكرت إنساناً بالخير
في حديث أو مقال أو كتاب إلا كان ذلك كافياً لقيام ثورة عنيفة
لتصحيح ما أخطأت فيه ، ولا ذكرت إنساناً بالشر في حديث
أو مقال أو كتاب إلا رأيت من يثنى على أدبي ويصفني بالجرأة
والشجاعة والعبقرية !

فما سر ذلك ؟ لذلك تأويل ، ولكنه يفضح بني آدم ، وتأويل
ذلك أن الناس يتوهمون أن حسن السيرة والسمعة إذا تم لرجل

كان فرصة لا تهاب الخير من أيديهم ، وهم مخطئون أبشع الخطأ ،
فالله عز شأنه خلق من الخيرات والثرات أضعاف ما خلق من
الإنسان والطير والحوان ، ولا تزال فى الأرض والأشجار والأنهار
والبحار خيرات منسية تنتظر من يكشف عنها الغطاء .

والشجرة لا تثمر مرة واحدة ، وإنما تؤتى أكلها فى كل حين .
والأنهار لا تفيض مرة واحدة ، وإنما تحفظ أدها مع بارئها
تفيض بمواعيد على مر السنين والأجيال .

والأرض لا تجذب إلا إن غفلنا عنها أوزهدنا فيها .
والفسكر لا ينضب إلا إن أغفلناه .

فما الذى يوجب هذا التطاحن البغيض يا بنى آدم ؟
ما الذى يسوؤكم فى أن تحسن سمعة رفيق لكم فيجاهد فى دنياه
وهو محمود الخصال ؟

وقد علمتني التجارب وستعلمكم أن الإنسان أضعف من أن يقطع
رزق أخيه الإنسان ، فهناك قوة ربانية تتيح الجهاد فى سبيل الرزق
الحلال ، وهذه القوة لا تنتظر آراءكم فى التجريح والاعتياب ،
فانطحوا الصخر إن شئتم ، فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل
ولا قال ، وإنما الأمر كله لله .

أيها السادة

كنت أحب أن أطيل الطواف حول الألوان الشبيهة التي تزخر
بها مائدة القرآن، ولكن الوقت الذي حددته محطة الإذاعة يضيق
عن ذلك، فاسمحوا لي أن أشير إلى هذه الآية فهي تنفعني وتنفع
من يحمل على ظهره أوزاراً مثل أوزاري، وهذه الآية تقول:

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين»

فإن رأيتم خيراً من إنسان فتقوهوا به وتحدثوا عنه في السر
والعلانية، واعدوا أن هذا يرضى الله، وتذكروا دائماً أنكم لستم
أغبر من الله، تذكروا أن أخطر حية في الأرض هي الحية التي
تسمى الكوبرا وهي حية شريرة جداً، وقد هربت إحدى هذه
الحيات مرة من متحف قصر العيني بالقاهرة، وشاع ذلك، فباتت
محلة المنيرة بالقاهرة في جزع وارتياح.

فهل تعرفون كيف كشف العلم عن حقيقة هذه الحية الشريرة

الليثيمة؟

لقد ثبت علمياً أن سم هذه الحية هو الدواء الشافي لمرض السرطان
وقد يأتي زمان نربي فيه هذه الحية الشريرة كما نربي كراثم الخيل.

أيها السادة

تذكروا، ثم تذكروا، تذكروا دائماً أنكم لستم أغبر من الله،
تذكروا أنكم لم تروا من أنهار الحقائق غير أو شال، تذكروا أن

القرآن لم يكن أبطولة من الأباطيل ، وإنما كانت آياته من غرائب الحقائق ، وتذكروا أن القرآن هو الذى أعز العرب فجعل لهم إخوانا فى المشرقين والمغربين ، ولولا القرآن لظل العرب فى عبودية كما كانوا فى أكثر عهود التاريخ .

أيها السادة

فى مثل هذه الليلة ، أو فى قريب من مثل هذه الليلة ، ولد الرسول . فلنجعل هذه الليلة من ليالى الصدق ، عساها تكون كفارة عما عانينا فى طول العام من أكاذيب .

والصدق يوجب أن نذكر أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم وإنما هو دين الإنسانية جمعاء ، فإلى سائر المسلمين فى بقاع الأرض وإلى من انتفعوا بهدى الإسلام من قرب أو من بعد ، وإلى كل إنسان سمع باسم القرآن ، إلى جميع من خلق الله نوجه التحية الخالصة راجين أن تتعرف إليهم أو يتعرفوا إلينا ، فى ظلال الراية الرحيمة ، راية الرسول الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

كيف رأيت الرصافي

كانت شواغلي في دنياى أضاعت على كثير من الفرص النوادر ،
فأنا لم أر إسماعيل صبرى شاعر الحب والوجدان ، وكنت أستطيع
أن أراه ولكنني ضيعت الفرصة ، وأنا لم أر الموسيقار سيد درويش
وكنت أستطيع أن أراه ولكنني ضيعت الفرصة ، والشاعر جميل
الزهاوى زار مصر ، وكنت أستطيع أن أراه ولكنني ضيعت
الفرصة ، وأنا لم أر الكاتب الشاعر محمد السباعي مع شوقه الشديد
إلى أن يراني ، ولما كثر سؤاله عنى ذهبت إلى جريدة البلاغ لأخذ
عنوانه فنعوه إلى ذلك اليوم ، وكانت فجعة طار لها صوابي .

ولما قدمت بغداد كنت أنتظر أن يبدأ الرصافي بزيارتي ،
ولكنه لم يفعل ، ثم علمت أنه لا يقيم في بغداد ، وإنما يقيم في
الفلوجة ، وهي قرية على شاطئ الفرات .

وتحدث المتحدثون بأنه عليل فرأيت من الذوق أن أبدأ أنا
بالسؤال عنه ، وتفضل الصديق الكريم السيد ثابت عبد النور
فصحبنى إلى الفلوجة مع رفيقين كريمين ، ورأينا أن تكون الزيارة
فجائية حتى لا يتكلف الرصافي نحر الذباح على الطريقة العربية .
دخلنا على الشاعر وهو شيخ جليل يقارب الخامسة والستين ،

وكان في أعقاب علة أقام من أجلها شهرا يستشفى في لبنان ،
فالتفت إلى السيد ثابت عبد النور وقال : كيف جئتم على غير ميعاد؟
أما تعرف أنه كان يجب أن تحتفل بقدوم الدكتور زكي مبارك إلى
الفلوجة ؟ فقال السيد ثابت : نحن ماجئنا لزيارتك ، وإنما جئنا
لمشاهدة مطار «سن الذبان» ورأينا الفرصة سانحة للتسليم عليك .

وكانت حيلة طريقة هربنا بها من كرم الرصافي .

وبدأ الشاعر فتحدث عن المازني ، المازني العظيم ، فأنشدنا أبياتا
قالها فيه وهو يشبه أدبه بشراب التوت ، وما أدري ما شراب
التوت ، ولكن هكذا قال .

ثم أمر الشاعر فتاه بأن يحضر كتابه عن النبي محمد عليه الصلاة
والسلام وألح الشاعر في أن ألقى نظرة على ذلك الكتاب ، وهو
مخطوط في عشرة كراريس ، وكنت قضيت ساعة في هدوء ، فلما
وقع بصري على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة ، وانطلقت
أجاده بلاترفق ولا تلطف .

وقابل الشاعر ثورتني بأدب رائع دلني على أنه من أقطاب العقل .

ثم قال : انتظر فسنتقي بعد عشرة أيام في بغداد

وكان معنى ذلك أنه سيفارق الفلوجة يوم ينتخب عضواً في

مجلس النواب .

وبعد أيام أقام لي أفاضل الأدباء في بغداد حفلة تكريم ، وفي طريقى إلى مكان الحفلة اشتريت جريدة الاستقلال فرأيت في صدرها قصيدة رائعة أراد بها الرصافى أن يسبق أهل بغداد إلى تكريمى ، وكذلك يكون الذوق فى إكرام الضيف .

ولم يقف الرجل عند هذا الحد ، بل تجشم الانتقال إلى كلية الحقوق ليسمع إحدى محاضراتى ، ثم جاء للسؤال عنى فى منزلى مرتين ، وعرض علىّ أن أقرأ كتابه عن الرسول وأدّون ماأشاء من الملاحظات ، فاعتذرت بضيق الوقت ، وبالع فى اللطف فدعانى إلى التشرف بزيارته كلها شئت ، ولكن شواغلى حرمتنى من لطفه فلم أزره فى منزله غير ثلاث مرات ، ثم يئس من وفائى فلم يعد يسأل عنى .

فمن هو الرصافى ؟

هو مجموعة طريفة من العقل والأدب والذوق والذكاء .

هو صورة صادقة للروح البغدادى ، الروح المرح الطروب .

هو عنوان الرجولة الصريحة التى تمتعت الكذب والرياء .

هو بالتأكيد من أثمن ذخائر العراق .

والعراقيون يعزّون شاعرهم كل الاعزاز ، ولما قدم لسماع

محاضرتى بكلية الحقوق قابله الجمهور بتصفيق الإعجاب ، ويكفى أن

يكون سعادة الأستاذ طه الراوى من رواة شعر الرصافي ، وطه
الراوى إمام من أئمة اللغة العربية ، أعزه الله ورعاه .
وللرصافي ديوان يقع في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع
الكبير ، ولكن أى ديوان ؟ هو جذوات من الفكر والمنطق
والوجدان ، وسيعيش هذا الديوان على التاريخ .

* * *

والرصافي متبرم بالعراق ، وهذا كل ما عنده من ضلال ، وقد
أملاني هذين البيتين :

قد كان لي وطن أبكى لنكبته
واليوم لا وطن عندي ولا سكن
ولا أرى في بلاد كنت أسكنها
إلا حشاة ناس قاءها الزمن
وقد اتفق له أن يقول منذ أعوام طوال :

عتبت على بغداد عتب مودّع أمضته فيها الحادثات قراعا
أضاعتني الأيام فيها ولو درت لعز عليها أن أكون مضاعا
لقد أرضعتني كل خسف وإتني لأشكرها أن لم تتم رضاها
وما أنا بالجاني عليها وإنما نهضت خصاما دونها ودفاعا
وأعملت أقلامى بها عريية فلم تبد إصغاء لها وسماعا
وأن يقول :

ويل لبغداد مما سوف تذكره غنى وعنها الليالى فى الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقينى
أفى المروءة أن يعتز جاهلها وأن أكون بها فى قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم
وأن أسام بعيشى جدع عرينى *

وأن يقول:

إلى كم أسستغيث فلا مغيث وأدعو من أراه فلا يجيب
أقمت ببلدة ملئت حقوداً على فكل ما فيها مريب
أمر فتتظر الأبصار شزراً إلى كأنما قد مر ذيب
وكم من أوجه تبدى ابتساما وفى طى ابتسامتها قطوب
سكنت الخان فى بلدى كآنى أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأنى اليوم فى وطنى غريب
والرصافى شاعر يسخر من أوهام الناس وهو الذى يقول:

لقد خامرتنى فى الزمان وأهله شكوكك عليها يعذر المنزندق
أرى الدهر فى أمرين يعمل دائماً

صناع اليدين فيهما يتأنق

يجدد للموتى مناقب لم تكن لديهم وللأحياء يبلى ويخلق
فكم من قبور عظم الناس أهلها بما لم يكن عند النهى يتحقق

* العرين - بكسر العين - هو الأنف

ورب امرئ قد عاش يستقطر الشنا
فلما قضى سال الشنا يتدفق
فما كُتِبَ التاريخ في كل ماروت
لقرائها إلا حديث ملفق
نظرنا لأمر الحاضرين فراينا
فكيف بأمر الغابرين نصدق
وما صدقتنا في الحقائق أعين
فكيف إذن فيهن يصدق مهرق *

وديوان الرصافي على عظمته ليس كل شعر الرصافي ، فله شاعرية
لم يحوها الديوان ، هي ذلك الروح الطروب الذي يهزأ من
أحداث الزمان .

والرصافي مؤلفاً غير معروف ، ولكن كتابه عن النبي محمد كتاب
هائل جداً ، وترجع أهميته إلى ما فيه من نقد الأخبار والأحاديث
وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الكتاب ، وهذا هو الشاهد على
أن أسلافنا كانوا أوسع صدراً وأعلى مقاما .

أما بعد فما كتبت هذه الكلمة لأني الرصافي حقه من الثناء ،
فذلك يحتاج إلى مؤلف ضخم تحدد به نواحي هذه العبقريّة .

ما هذا بحثا مفصلا عن الرصافي ، وإنما هي كلمة موجزة أردت
أن أشرف بها نفسي فأقول إني زرت بغداد ورأيت الرصافي ،
ولعلها تكون كفارة عن تقصيري في مودة هذا الشيخ الجليل ،
وأقسم ما انصرفت عن مودته طائعا ، وإنما صرفني عن مودته ما ألقاه
القدر على كاهلي من أعباء وتكاليف .

إصلاح الخط العربي

إلى الصديقين الكريمين محرري مجلة التربية الحديثة .

أقدم إليكما أصدق التحيات . ثم أشرف بتقديم ماسألتوني من
الرأى فى إصلاح الخط العربى ، ولكن على شرط أن تحتملوا
الاطناب . لأن لى فى هذه المسألة آراء عرضتها فى مواقف رسمية ،
أحدها فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس يوم حاججت الأساتذة
العظام مرسىيه وكولان وديمومبين ، وثانيها يوم قدمت رسالة
« اللغة والدين والتقاليد » إلى لجنة رسمية مؤلفة من حضرات أصحاب
المعالى والعزة أحمد لطفى السيد باشا وجعفر ولى باشا وبهى الدين
بركات باشا وطه حسين بك ومصطفى عبد الرازق بك . وهناك
موقف أخطر وهو الذى دعوت فيه صراحة إلى كتابة المصحف
بالرسم الحديث ، وتصريحى بأن سيدنا عثمان كان مبتدئاً فى الخط
وأنه لو عاش فى هذا العصر لكان من المستحيل أن نكل إليه تعاليم
الخط فى مدرسة أولية ، ثم تصريحى بأن مشايخ الأزهر يصعدون
عن كتاب الله حين يوجبون أن يرسم بخط تصعب قراءته على
أكثر الناس .

أما موقفى فى مدافعة المستشرقين فيتأخص فى أن الخط العربى هو
أصلح الخطوط للغة العربية ، وأن الحروف اللاتينية لاتنفعنا أبداً ،

لأنها تعجز عن تأدية النطق العربى تأدية صحيحة .
قالوا : ومع ذلك يعجز الخط العربى عن تأدية النطق العربى تأدية
صحيحة !

قلت : لأننا نهمّل الشكل وهو عنصر أساسى فى الخط العربى .
وهنا أذكر أن أهل بغداد كانوا السبب فى حرمان الخط العربى
من أهم عناصره وهو الشكل : لأنهم كانوا يرون الشكل إهانة
للمخاطب واتهاأ له بالجهل .

وهذا الذوق البغدادى كان يقبل فى القرن الثالث يوم كانت
الثقافة الأدبية مقصورة على الخواص الذين يؤذيهم أن ترشد هم إلى
صواب النطق بشكل الكلمات .

وقد تغير الحال فى هذا الزمان وصرنا مضطرين إلى مخاطبة
الجمهور كله وفيه أطفال ونساء وجاهلون ، فما كان يعتبر إهانة عند
أهل بغداد فى القرن الثالث أصبح فى زماننا من الواجبات .
وخلاصة هذه الفكرة أن التشبث بالخط العربى ليس نزعة
قومية ، كما يتوهم أكثر الناس ، وإنما التشبث بالخط العربى أمر يوجب
العقل والمنطق لأنه أصلح الخطوط لتأدية النطق الصحيح فى
اللغة العربية .

وكلمة « كتب » معناها فى الأصل « قيد » وكذلك « الشكل »
معناه « القيد » لأنه مأخوذ من الشكال ، أى القيد . فالذى يشكل

الكلمة يقيد بها : أعنى أنه يحصرها في وضع واحد ، وكانت قبل الشكل تنطق بأوضاع مختلفات .

وأقول ثم أقول ، وأقرر ثم أقرر ، أن الخط العربي لا يعوزه غير الشكل ، فإذا شكلناه أصبح قادراً كل القدرة على تأدية النطق وتحديد المعاني على نحو ما تصنع الحروف اللاتينية في اللغات الأوربية .

ولو ظهرت الجرائد والمجلات مشكولة عامين اثنين لرأيت كيف يصلح النطق وكيف يشيع الإفصاح .

* * *

وهنا ندخل في شعاب المعضلة الحقيقية فنقول :

إن لحرف القاف مثلاً أربع صور هي : ق ، ق ، ق ، ق —
ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتي عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق ، وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، كما يعبر أهل مصر ، أو المرتبين ، كما يعبر أهل العراق .

وأنا بكل صراحة أدعو إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له رسم واحد في أول الكلمة وفي الوسط وفي الطرف ، ثم يصب من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مؤقتاً عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يذهب بشيء من جمال الخط العربي ، ولكن جمال الخط لا يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد فى الخط المقترح .

الشكل هو الإصلاح الوحيد للخط العربى ، ولكن شكل الحروف بوضوعها الحاضر يوجب تعقيد الصناديق . وتوحيد أشكال الحروف يمنع هذا التعقيد .

فى الصندوق العتيد أربع صور لحرف الفاء هى : ف ، فـ ، فـ ، فـ .

وفى الصندوق الذى أقترحه أربع صور هى : فـ ، فـ ، فـ ، فـ ، والصورة الأخيرة عارية عن الشكل فلتكن صورة السكون أو الوقف .

وما أقترحه خاص بحروف الطباعة ، أما الكتابة العادية فخط الرقعة يكفى فيها كل الكفاية ، ويحسن أن يكون عندنا خطان اثنان فقط : خط للطباعة وخط للتحريك .

وأنا — بعد الذى أسلفت — أقرر بصراحة أن صعوبة النطق التى أوجبها سوء الخط كانت السبب فى اهتمام العرب بالتمكن من لغتهم ، كما أن صعوبة النحو العربى كانت السبب فى نبوغ أكثر الأدباء .

والتعليم في الأزهر كان نافعا جداً يوم كان يجرى على نظام غير مرتب . فلما وصلت إليه طرائق التربية الحديثة أصبح ضعيفاً . أقول هذا وأنا أعرف أن سيغضب الدكتور بقطر والدكتور جولد .

ولكنني قضيت عشرين سنة في درس علم النفس ، وأصبح من المقرر عندي أن الاهتمام هو أصل كل تفوق ، وصعوبة الخط والنحو والصرف توجب الاهتمام ، وهذا الاهتمام هو الذي جعل الأزهرين القدماء من أعرف الناس باللغة العربية .

ولكن لا مفر من إصلاح الخط العربي لنصل به إلى الجمهور الأعظم الذي يعدّ بالملايين ، ولنعرض على الدسياسة الخطرة التي تزين الحروف اللاتينية ، ولنسهل الوصول إلى فهم لغتنا لمن يهمهم ذلك من كرام الأجانب ، فقد اشتغلت بالتدريس في اللبسيه فرانسيه نحو عشر سنين وكان يؤذيني أن يعتقد الأجانب من التلاميذ أن لغتنا أصعب اللغات .

وحين يتضح الخط العربي ويتكلم لغتنا ألوف من الأوربيين والأمريكيين تدخل في لغتنا حيويات جديدة قد تعود على أدبنا بأعظم النفع .

إن إصلاح الخط العربي أمل جميل ، ولكن على شرط أن يكون تطوراً في الخط ، ولا يكون تبديلاً للخط ، فإني أخشى أن نبالغ في الحذقة فلا تسايرنا الأقطار العربية ، والسلام .

زكي مبارك

بغداد

(المجلة) نتفق مع صديقنا الدكتور زكى مبارك في أشياء ونختلف معه في أشياء.

(١) نتفق معه في أن اللغة العربية ليست أصعب اللغات (٢) ونتفق معه في أن صعوبة الخط مسألة سطحية وصعوبة الشكل كذلك ويوجد في اللغات الأوربية الحية من الصعوبات على المبتدئ والمتعلم من غير أهلها ما يفوق مثلها في العربية.

بمراحله (٣) أن صعوبة العربية في رأيها تنحصر في وجود لغتين العامية والفصحى ، ولكل منهما تيار فكري يعطل أحدهما الآخر فيقتل التفكير والانتاج . وهذا هو الرأي الذى أدلى به سر وليم ولكوكس ولدى ما يعزز قوله بما لا يتسع له المقام الآن (٤) أما قول الدكتور زكى مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحر هي التي مكنت العرب من لغتهم وحدثت إلى نبوغ أكبر الأدباء فلا يقره عليه عاقل ولا مجنون ؛ وهذا المنطق يذكرني بما يقوله بعض الإنكليز دفاعاً عن نظامهم العقيم في الموازين والمقاييس والنقود ، بجانب النظام العشري الجميل في النقود والموازين والمقاييس والمكاييل في فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوربا . يقول السفسطاثيون من الإنجليز إن هذا النظام المعقد يدرّب العقل ويهذبه بعكس النظام العشري . وعلى هذا المبدأ ينبغي تعقيد كل شيء في الحياة توصلاً للغرض عينه (٥) أما قول صديقنا الدكتور إن الأزهر ضعف طلبة منذ إدخال التريّة الحديثة فهذا يحتاج إلى أدلة يتعذر إقامتها بغير تجارب علمية وأرقام إحصائية . غير أنني أسر في أذن الدكتور أن التريّة الحديثة لا تزال بعيدة عن الأزهر وعن معظم معاهد التعليم في بلادنا بعد الأرض عن السماء أو العكس على الأصح ، اللهم إلا إذا كنت تفهم بالتريّة الحديثة الجغرافيا والحساب

(٦) بقيت عبارة واحدة اسمح لي أيضاً أن أسرها في أذنك . تقول إنك

درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس هذا لم يكن منذ
عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم من علم الفلك ، فشمروا عن ساعدك
واعكف على دراسته من جديد . (٧) وأخيراً دعني أشكرك من صميم الفؤاد
لإخلاصك للعلم وتلميتك لدعوتنا فقد طلبنا إلى أكثر من ثلاثين من رجال التربية
في جميع البلدان العربية أن يدلوا بأرائهم فلم يحرك منهم ساكناً إلا من زينا
صفحات المجلة بأسمائهم . فعليك من قراء مجلة التربية الحديثة وعلي جميع من ساهموا
في هذا العدد ، ومنى ، السلام ورحمة الله ؟

المخلص
أمير بقطر

مذاهب التربية

الى الدكتور أمير بقطر

أيها الصديق العزيز

أقدم اليك أطيب التحيات . وأذكر أن هذا الخطاب كان يجب أن يوجه الى مجلة التربية الحديثة ، ولكنى رأيت أن العدد الاخير هو ختام هذه السنة . وفي تعليقك على مقالى كلمات لا أحب أن أتركها بلا تعقيب الى العام المقبل .

١ — تفضلت يا صديقى فقلت :

« أما قول الدكتور زكى مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحو هي التي مكنت العرب من لغتهم وحدثت الى نبوغ أكثر الأدباء فلا يقره عليه عاقل ولا مجنون. وهذا المنطق يذكرني بما يقوله بعض الانجليز دفاعا عن نظامهم العقيم فى الموازين والنقود. بجانب النظام العشرى الجميل فى النقود والموازين والمقاييس والمكاييل فى فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوروبا . يقول السوفسطائون من الانجليز إن هذا النظام المعقد يدرّب العقل ويهذب بعكس النظام العشرى . وعلى هذا المبدأ ينبغى تعقيد كل شئ فى الحياة توصلا للغرض عينه »

ذلك كلامك أيها الزميل ، وقد استغربت واستغرب فريق من
أصدقائك بالعراق أن يصدر عنك ، فعبارة « لا يقره عاقل ولا
مجنون » عبارة غير مقبولة ، ومن المؤكد أنك ندمت عليها ولو قليلا ،
فعهدى بك وزن الألفاظ وتنقيها من العيب ، ولو وقعت هذه العبارة
في معركة أدبية لكان لها موضع فان المعارك لعنفها قد تبسح ما لا
يباح ، وما كنت أخاصمك حين استجبت لدعوتك الكريمة الى
كتابة مقال لمجلة التربية الحديثة حتى يجرى قلبك بذلك التعبير
« المقبول » ١١

ومن حقى أن أمسك بخناقك حتى تعترف بالحق
فمن أين عرفت أن الصعوبة تنافى مذاهب التربية ؟
يظهر أن التربية فى ذهنك لها مدلول خاص ، هو أن يقال فى
أمريكا وفى كتاب طبع سنة ١٩٣٨
وفاتك أيها الزميل العزيز أن التربية كانت موجودة قبل أن تظهر
« الطريقة الامريكانية » وأن الصعوبة كانت مما يقصد اليه المربون
لتمرين الازهان والعقول

ويظهر أيضا أنك تفهم علم النفس على « الطريقة الامريكانية »
وإخوانك الامريكان قوم لطاف ظراف . ولكن دعواهم التفرد
بالعلم أمر « لا يقره عاقل ولا مجنون »

وأخوك زكى مبارك وهو دكتور فى الفلسفة مرة أو مرتين أو

مرات يفهم غير ماتفهمون ، أخوك زكى مبارك يقول إن الاهتمام هو أصل كل تعمق ، وعنده شواهد يعرفها العقلاء والمجانين ، والصعوبة توجب الاهتمام ، وهى السر فى إقبال الناس على درس العضلات

والصعوبة أو التصعيب من المذاهب التعليمية التى عاش عليها الناس قبل أن يخلق كريستوف كولمب ، وهى طريقة نافعة جداً ، وستأخذها عنى يا شيطان ، ستأخذها عن الفيلسوف الذى تطاولت عليه بلا حق ، مع أنه زميلك وأخوك . وهذه الطريقة ، طريقة التصعيب ، تشبه فى عالم الافكار طريقة أهل اسبرطة فى عالم الابدان فالاسبرطيون كانوا يرمون مواليدهم فى البحر ، ثلاثة أيام ليعرفوا صلاحيتهم للحياة الجثمانية ، وطريقة التصعيب هى من هذا الباب ، هى تعريض الأذهان للامتحان الصعب لتظهر صلاحيتها للحياة العقلية .

ولو أن الحظ كان أغاثك فمرت بالأزهر أو الجامعة المصرية أو السوربون أو مدرسة اللغات الشرقية كما اتفق لأخيك أن يمر وهو خائف يترقب ، لو أن الحظ كان أغاثك بهذه المصاعب لعرفت كيف يكون صيال العقول ، ولكنك عرفت الأمريكان الظرفاء الذين يدرسون العلم على الاساليب السينمائية

أساليب سينمائية ؟ ؟

ما هذا الكلام ؟ يظهر أنى بدأت أتطاول عليك !
لا ، لا ، فما أقبل أن أتطاول على أخى وزميلي ، ولكنك أيها
الاخ المحبوب نسيت أن تربط أجزاء اعتراضك بعضها ببعض ، فجاز
لى أن أفهم أنك تدرس ما تدرس على الاساليب السينمائية
وبيان ذلك أيها الاخ أنك حين حكمت بأن كلامى فى طريقة
التصعب لا يقول به عاقل ولا مجنون مضيت فقررت أن كلامى
يشبه ما يقول به بعض الانجليز فى الدفاع عن نظامهم فى النقود
والموازن

ومن كلامك عرفت أن الطريقة الانجليزية هى أيضا طريقة
أزهرية !

وأنا والله راض بأن أحشر مع علماء الانجليز ، ولو فى الجحيم !
طريقة التصعب ابها الاخ هى التى « تغربل » العقول ، وبفضلها
استطاع أخوك زكى مبارك أن يصاول العلماء فى الامتحانات العلنية
مرارا كثيرة ، منها مرتان فى باريس ، وسأضع عقلك فى « الغربال »
بعد حين ، لأعرف نصيبك من العمق ، أرانى الله وجهك بخير وعافية

* * *

٢ — تفضلت يا صديقى فقلت :

« بقيت عبارة واحدة اسمح لى أيضا أن أسرها فى أذنك ، تقول .
إنك درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس

هذا لم يكن منذ عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم
من علم الفلك ، فشمروا عن ساعديكم واعكفوا على دراسته من
جديد .

سمعت وأطعت يادكتور بقطر !

سمعت وأطعت لأنى قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وقد
أوصانى أساتذتى رضى الله عنهم بأن أفتح قلبى لكل نصيحة ،
ولو صدرت من الدكتور أمير بقطر !

المثلث يقال هذا الكلام ؟ المثلث يوجه هذا النصح ؟

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى
كنت أحسب أنتى أنصفت نفسى حين أضعت شبابى فى دراسة
الآداب والفلسفة ، وكنت أحسب أن جهادى فى سبيل الآداب
والفلسفة سيعصمنى من سماع هذا النصح المرير ، وكنت
أظن أن زملائى يعرفون فضلى وأنى لن أحتاج إلى اكتساب ثقتهم
فى سر أو علانية ، ثم قضى الدهر الغادر بأن أرجع إلى حياة التلمذة
وأن يطالب منى الرجوع إلى دراسة علم النفس من جديد .

ومعاذ الآداب أن أنكر قيمة هذه النصيحة الغالية : فقد رضت

النفس على أكون طالب علم من المهدي إلى اللحد .

ولكن يؤذنى شىء واحد : وهو ؟

ما هو ذلك الشىء ؟

إني لأحتاج إلى شجاعة عظيمة لأفصح عما أريد .
وأتشجع فأقول : لن أستاذف دراسة علم النفس إلا يوم يستأنف
الدكتور أمير بقطر دراسة الأبجدية !

هذه وقاحة !

لا ، والله ؛ وإنما هي كلمة حق

ومن أين عرف الدكتور أمير بقطر أنني درست علم النفس منذ
عشرين عاما حتى ينصحنى بالعكوف على دراسته من جديد ؟
من أين عرف ذلك ؟

لقد قلت في مقالتي ما نصه بالحرف وكما نشرته مجلة التربية
الحديثة :

« ولكنني قضيت عشرين سنة في درس علم النفس ، وأصبح من
المقرر عندي أن الاهتمام هو أصل كل تفوق »

فأنا لم أقل إني درست علم النفس منذ عشرين سنة ، وإنما قلت
إني درست علم النفس عشرين سنة .

وللقارئ أن يحكم بين هذا الزميل وبينى .

والدكتور أمير بقطر أن يوجه إلى نفسه الملام إن شاء

أما بعد : فما كان يسرني أن أوجه إلى ذلك الصديق الكريم هذه

الملاحظات ، وما كان يسرني أن أنال مذاهب الأمريكان بنقد أو تجريح .

ولكني أحسب الوقت حان لتذكير الأمريكان بخاطر ما يقدمون عليه ، فهم - كما عرفتهم - ناس سطحيون ، وقد صحبتهم عامين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وما أذكر أبداً أني رأيت في تفكيرهم شيئاً من التعمق ، وإنما هم قوم يغاب عليهم اللطف والإيناس وحفظ الجليل .

وصديقنا الدكتور أمير بقطر هو نموذج من التربية الأمريكية فهو يمر على ما يقرأ مرور الطيف ، ثم ينقد ويعتسف بلا بينة ولا برهان .

ومن واجبي أن أذكره بأن (الطريقة الأمريكية) لا تنفع في مصر ، لأن مصر ورثت تقاليد التعقل والتدبر منذ أجيال طوال ، ثم ماذا ؟

ثم أرجو أن ينقل الدكتور أمير بقطر هذه الملاحظات إلى أول عدد يصدر من مجلة التربية الحديثة وأن يعاق عليه بما يشاء ، عساه يتيح الفرصة لأن أدخل بقلبي فأتف الأمريكان عند حدهم فلا يدعون التفرد بالاستاذية في العصر الحديث .

الى الدكتور أمير بقطر

أخى وصديق :

لعلك قرأت كلتى الماضيه ، وهى عتب عليك ، عتب قاس
عنيف ندمت عليه أشد الندم لأنه اتصل بأيامى فى الجامعة الأمريكية
المعهد الذى صحبتك فيه وصحبت الأستاذ حبيب اسكندر وهو من
أكرم من صحبت ، فقد وصفت الأمريكان بأنهم قوم سطحيون ،
وكان الأدب يوجب ألا أقول ذلك بعد أن صحبتهم سنتين : وبعد أن
عرفت المستر جولت وزوجته الغالية .

وكان للمستر جولت قصة نبيلة ، فقد كتب إلى خطابا بالفرنسية
يقول فيه :

ولقد قهرتنا الأزيمة على الاستغناء عن بعض المدرسين ، فكان
الدكتور زكى مبارك أول من فكرنا فى الاستغناء عنه ، لأنه رجل
صالح للحياة ، ومواهبه كفييلة بأن تمكنه من طيبات الأرزاق»

وأنا أعتقد أن هذه الشهادة هى أعظم مازفرت به من الألقاب
وقد اقترحت فى ذلك العهد أن أدرس فى الجامعة الأمريكية
مجانا ، ثم صرفتنى الشواغل عما أريد ، وليتنى استطعت لأقيم الدليل
على أتى من أصحاب المعانى ، فالجامعة الأمريكية تقوم فى نفس البناء
الذى كانت تقوم فيه الجامعة المصرية ، وفى ذلك المكان نفسه

استطاع أستاذنا الشيخ محمد المهدي بك أن يقوم بتدريس الأدب العربي مجانا حين تقصت موارد الجامعة المصرية بسبب الحرب العالمية .

ولكن ندمي على ما آذيت به الأمريكان بدأ يخف ، لأنني أخذت أفهم أنني لا أحارب الطريقة الأمريكية لأسباب شخصية ، وإنما أحاربها في سبيل المبدأ ، وأنا يا صديقي رجل يتوهم أنه من أصحاب المبادئ ، وقد تجد فيمن صحبناهم من الأمريكان من يشهد بصدق ما أقول .

وأنا أعتقد حقا أنكم قوم سطحيون ، وأعتقد أن نبوغ أمريكا في الفن السينمائي له دخل في ذلك ، فهم قوم تبهرهم الألوان قبل أن تبهرهم الحقائق ، فالدنيا عندهم صور وزخارف وتهاويل ، والبيت لا يكون عندهم بيتا إلا إن ناطح السحاب ، مع أن أرض الله أوسع مما تظن ويظنون .

وليس عند الأمريكان غير فضيلة واحدة هي الابتسام ، وقد ورثت عنهم شيئا من هذه النمزية العالية ، وأشهر صادقا أنني ابتسمت حين قرأت كلمتك في الرد على أخيك .

فهل آمل أن تبسم أيضا حين أقول إنكم قوم سطحيون ؟

اسمع يا صديقي :

أنت قلت إن علم النفس منذ عشرين سنة لا يقاس إلى علم النفس

في هذه الأيام إلا كما يقاس التنجيم إلى علم الفلك .

ذلك كلامك الذي سطرته بقلبك في مجلة التربية الحديثة .

فهل تعنى ماتقول ؟ وهل يصدقك رجل مثل سعادة الدكتور

منصور فهمي أو رجل مثل معالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟

وهل يوافقك على ذلك فريق من الذين تلقيت أنا عنهم الفلسفة

في السوربون ؟

من سوء حظي أيها الأخ أني دكتور في الفلسفة ، ومن سوء حظي

أن وجدت رجلا يعتذر عن نقد كتاب النثر الفنى بحجة أنه قام على

أصول فلسفية توجب النظر الدقيق . وهذا الرجل هو الأستاذ

إسماعيل مظهر وهو فيما سمعت وسمعت من المطلعين على المذاهب

الفلسفية .

ومن سوء حظي أيضا أني اطالعت اطلاعا لا يخطر ببالك على

الفلسفة اليونانية والعربية ، وصح عندي بعد البحث أن الفلسفة

الحديثة لها أصول عند القدماء .

هل تصدق أنني اكتشفت أن مذهب فرويد له أصل في كتب

الشعراني ؟ وهل تصدق أنني وجدت لذلك المذهب أصولا صحيحة

عند علماء الفقه الإسلامي ؟

ليتني أفرغ لك ولا مريكا لأفهمكم أن لا جديد تحت الشمس مع

استثناء اللاسلكي والبخار والكهرباء .

إن قوتكم في الإعلان تفوق كل قوة وقد أزغتم الأبصار

والعقول ، وأصبح من واجب كل مخلص أن يقفكم عند حدكم ، فقد
ملأتم الدنيا بالآوهام والأضاليل .

أفى الحق أن علم النفس كان منذ عشرين سنة خرافة من الخرافات؟
فما رأيكم فيمن يحدثكم أن علم النفس كان علما صحيحا منذ
ألف السنين؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الحقائق النفسية عرفها قدماء العرب
والفرس واليونان والمصريين والهنود؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الاستهانة بميراث الإنسانية هي الشاهد
على أنكم تمزحون فيما تقولون وماتكتبون؟

لقد اتفق لك يادكتور بقطر أن توهم قراءك مرات ومرات بأن
مناهج التعليم في مصر وفي فرنسا وفي إنجلترا وفي ألمانيا وفي الدنيا
كلها مناهج تقوم على غير أساس لأنها غير أمريكانية ، فاتق الله
والأدب والذوق في عقلك ، وتذكر أن الأمريكان ناس كسائر
الناس وإيسوا من الملائكة ولا الشياطين .

أما بعد فما أوجه الكلام إلى شخصك بالذات لأنك صديق عزيز ؛
وإنما أنقد مذهبا ضعيفا من مذاهب الفهم هو المذهب الأمريكاني .

وقد آن الأوان للتفكير في نقلك إلى وطنك حتى لا تضيع .

آن الأوان للتفكير في رياضتك على النظر إلى الحقائق .

آن الأوان لفهمك أن الفلاسفة كان لهم قبل عشرين سنة
مذاهب صحيحة في علم النفس .

آن الأوان لفهمك — وأنت صالح للفهم — أن علم النفس له
ماض وتاريخ .

أيها الصديق

لا تحسبني أسأت إليك ، فستذكرني بالخير بعد حين ، والسلام .

كيف نصادق أطفالنا (١)

سيداتى وسادتى

لاتظنوا أن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل ، لأن بيننا وبين
الأطفال فوارق كثيرة جداً ، وهذه الفوارق تباعد ما بيننا وبينهم ،
وتجعل عقد المودة معهم أمراً عسير المنال

وأسعد الآباء هو من يستطيع الوصول إلى قلوب أبنائه فى ترفق
وتلطف ، ليكونوا قرّة عينه ، وليكون قرّة أعينهم ، وليصبح البيت
موثلاً للانشراح والابتهاج

وأسارع فأقرر أن الأب لا يستطيع الظفر بصداقة أبنائه إلا
إن ضمن عطف زوجته عليه ، فالزوجة هى الرباط الأول بين الأب
وبين قلوب أبنائه ، وهى تستطيع أن تغير قلوبهم على أبيهم حين
تشاء ، لأنها تملك من أمورهم كل شيء ، ولها وسائل خفية تصل بها
إلى قلوب الأطفال

وبيان ذلك أن بعض الزوجات يستطعن إعلان التذمر من
الأزواج ، وهذا التذمر قد يسمعه الأطفال غير سخر فى أذهانهم أن
أباهم رجل بغيض ، وعندئذ يصعب على الأب أن يظفر بصداقة بنيه

(١) محاضرة أقيمت فى محطة الإذاعة العراقية

والزوجة الصالحة هي التي تشعر أبناءها في كل وقت بعظمة
أيهم وتروضهم على احترامه وحبه ، وتؤكد في أنفسهم الشعور بما
يملك من جميل المناقب والخصال .

الزوجة الصالحة تقول للطفل : « تمسك بهذا الخلق فإنه يرضى
أباك ، وتجنب ذلك الخلق فإنه يغضب أباك »

وعندئذ يشعر الطفل بأن عند أبيه ذخائر من الفضائل فيتشوف
إلى الاطلاع على ما في قلب أبيه من كرائم الطيبات . ويرى الطاعة
من صالحات الأعمال

فإن سمعتم أن طفلاً يحب أباه فاعرفوا أن لذلك الطفل أمّاً صالحة ،
وإن سمعتم أن طفلاً يبغض أباه فاعرفوا أن له أمّاً ذميمة الخلال
وإنما اهتممت بتأكيد هذا المعنى لأنبه الزوجات إلى حقيقة
غفل عنها أكثر المربين ، وهي أن الأطفال وديعة ثمينة في أيدي
الأمهات ، ومن الأمهات من ينسين الواجب فيفسدن ما بين الآباء
والأبناء ، ويحرمن الأطفال من — نعمة عظيمة هي الثقة بالوالد
المسكين الذي يضطرب في دنياه ليقدم إلى زوجته وأطفاله أسباب
الرخاء .

وما ابتكرت هذه الحقيقة ، وإنما هي درس تلقيته عن أهلي ،
فقد كان أبي رحمه الله رجلاً جافياً جداً ، وما أذكر أنه ابتسم في
وجهي غير مرات معدودات ، ولكن أمي رحمها الله كانت لا تذكره

أمامي بغير الخير ولا تصوره بغير الجميل .

وكنت في طفولتي أرى أبي لغزاً من الألغاز ، فهو فيما أرى
رجل عفيف ، وهو فيما تصور أمي رجل لطيف ، ولم أعرف وجه
الحق إلا يوم حرمتني المقادير من أبي وأصبحت في الدنيا بلا صديق

ولكن ما الموجب للحرص على صداقة الأطفال ؟

لقد سمعت أننا من بني آدم ، وسمعت أن آدم كان رجلاً له قلب
والأطفال يعيشون بيننا في غربة موحشة فليسوا من جيلنا
ولسنا من جيلهم ، فهم ومهم غير همومنا ، وهمومنا غير همومهم ،
ولن يمكن التوفيق بيننا وبينهم إلا إن صعدوا إلينا أو نزلنا إليهم ،
فمن كان له قلب فليعرف هذه الحال وليفكر في إيناس أولئك
الغرباء الذين يتشوفون إلى العواطف والقلوب .

وأول ما يجب التنبيه إليه هو اليقين بأن الأطفال يعيشون في عالم
المحسوس ويجهلون عالم المعقول .

وعالم المحسوس هو الأصل ، ولو شئت لقلت إن عالم المعقول
ليس إلا تصويراً لعالم المحسوس

ومن واجب الأب أن يدرك أن الأطفال يرون الدنيا بعيونهم
لا بآذانهم ، من واجب الأب أن يفهم أن مدركات الحواس هي
كل شيء عند الأطفال

فإن بدا لك أن تصادق الطفل فابحث عن مواقع هواه ، واعرف
أن فيه أكثر يقظة من عقله ، وأن صندوق الحلوى أفضل عنده من
الكتاب الجيد ، وأن الثوب المرقش أحب إليه من القول المزخرف
والآب الذكي اللبيب هو الذى لا يلقي طفله إلا وفي يده هدية أو تحفة
أو طرفة ، فإن فاتته ذلك فليقدم إلى طفله قطعة أو قطعين من النقود ،
وليذكر دائماً أن هذا هو ما يدرك الأطفال من معانى الوجود
وفى الدنيا أشياء هى عندنا أو هام ، وهى عند الأطفال حقائق
ولن نظفر بصداقتهم إلا إن رأينا الدنيا بعيونهم ، ولعلمهم
أعرف وأصدق ! كنت أدخل المنزل فيلقاني أطفالى باسمين متهملين
لأن الراديو قدم إليهم هدايا نفيسة ، فيها من كل فاكهة زوجان ،
فأفرح لفرحهم ، وأطلب نصيبى من هدايا الراديو ، فيقدمون إلى
مابقى من هداياه متفضلين

وكان هذا الراديو عجيباً ، ولعله أعجب راديو عرفه الناس ، كان
الأطفال يصبحون فيجدون حوله أطيب كثيرة من المأكولات
والمشروبات فيصفقون ويهلمون ، وتموج بهم الدنيا موج الفرح
والإغتياب .

وكنتم أنتفع بهذه الفرصة فأفرح لها كما يفرحون
وكان فى المنزل طفل كبير يرتاب فى هدايا الراديو ، ويظن
لسخفه أن تلك الهدايا قدمتها يد إنسان لا يد شيطان

و كنت بفضل عقلى أفهم أن هدايا الراديو هدايا رديوية ، وأن
لراديو هو الذى ينقل الهدايا كما ينقل الأصوات :
وكان أطفالى يحبون أباهم لأنه عاقل ، ويهتمون أخاهم الكبير
الجنون .

فليت شعرى ماذا صنع الراديو بعد رحيلى إلى العراق ؟
أكان يجرى على عادته السخية فيقدم الهدايا إلى أطفالى فى
الصباح والمساء ؟

أم ترونه حزن لفراقى فخرم الأطفال من تلك الهدايا الطيبات ؟
إن الراديو الذى فى منزلى بمصر الجديدة هو أغرب المبتكرات ،
ومن الواجب أن يكون له أمثال فى كل أرض ، هو راديو كريم
يقدم إلى الأطفال كل ما يشتهون ، وهو يعرف الفوارق بين هدايا
المواسم وهدايا الأعياد ، ولم يكن فيه إلا عيب واحد : هو أنه يضمن
بالهدايا حين أغيب ، ولا أعرف السبب فى ذلك !
فمتى أرجع إلى أطفالى ليرجع الراديو إلى بره المؤلف ؟

والطفل كثير الاعتماد بالنفس ، وهو لا يصادق من يعدون
عليه الذنوب . ونحن خليقون بالتغاضى عن هفوات أطفالنا . لأنها
فى الأغلب هفوات طبيعية ، ولأن هؤلاء الأطفال سيدخلون دنيا
الناس بعد حين ، وسيشربون الصاب والعلقم من أيدي الأصدقاء

المزيفين ، سينتقل هؤلاء الأطفال إلى دنيا خسيصة لئيمة لا كرم فيها ولا رفق . سينتقلون إلى صحبة ناس لا يسترون عيوبهم ، ولا يغفرون ذنوبهم ، فلتكن صحبتهم إيانا هي المرسوم الطيب الذى يرونه فى الحياة ولنتذكر أن الأطفال الصغار ليسوا أعتل من الأطفال الكبار فقد كان لى صديق أثق بعقله وكرمه ونبله ، ثم اتفق أن أداعبه فأذكر أنه دمىم الوجه ، والدماة لا تعيب الرجال ، فغضب وشتمنى أقبح الشتم فى إحدى الجرائد ، وعنه تلقيت درسا لن أنساه : وهو أن الأطفال الكبار أقل عملا من الأطفال الصغار فى بعض الأحيان ومزاحهم ثقيل ممجوج ١١

وأطفالنا سيلاقون هذه المكاره بعد حين ، فلنعطف عليهم ، ولندكر أننا نلقيهم إلى دنيا غادرة لا يحفظ فيها تاريخ إنسان إلا إن لطح يده بدماء الأبرياء .

الطفل يحب أن تكون له أخلاق الرجال وشمائل الرجال .

ولن نظفر بمودته إلا إن منحناه الثقة بمواهبه العالية .

فما الذى يمنع من النزول عند إرادته عساه يستفحل ويستأسد ؟

الطفل يحب أن تثق بأنه أجمل الناس وأذكى الناس .

فما الذى يمنع من أن نقول له صدقت أيها الذكى الجميل ١٢

إننا ننخدع كارهين للأطفال الكبار وهم الرجال ١ فما الذى يمنع

من أن ننخدع طائعين للأطفال الصغار وهم الأبناء ؟

سيدياتي وسادتي :

اسمحوا لي أن أعتب عليكم بعض العتب

لقد مضت أجيال وأجيال ونحن نفرق بين الذكور والإناث .

وقد شهدت بذلك آثار العرب واليهود والهنود .

فهل آن أن نعرف كيف نحب أطفالنا من البنات ؟

إن البنت مخلوق نفيس وهي مصنوعة من الروح والوجدان

إن البنت هي سر الوجود ، ولكن أين من يفهم المعاني ؟

إن البنت هي مصدر الرفق والعطف والحنان

إن البنت هي أصل ما نملك من الرزق لأنها ضعيفة ، والله يرزقنا

بفضل ما في بيوتنا من الضعفاء

إن البنت هي التي تعرف كيف تواسي أباهها أو أخاها أو زوجها

وهو على فراش الموت ، فاحترموا البنت وأعزوها واجعلوها من

كرام الأصدقاء

هل قرأتم سيرة المسيح ؟

لقد شاء الله أن يكون ذلك النبي ابنا لامرأة تنكر لها أهلها

ليريكم أن الأمر بيد الله لا بيد الناس

أراد الله أن يعلمكم أن تقاليدكم خداع في خداع ، وأنكم لم تروا

من بحار الحقائق غير أو شال .

وقد سمعت أن ناسا من الانجليز يتناولون على «العذراء» في

حديقة ، هايدبارك فليتطاولوا كيف شاءوا ، فستبقى العذراء عذراء
وإن نطحوا بقرونهم رواسى الجبال
سيداتى وسادتى :

صادقوا أطفالكم وأطفال من تعرفون بلا تحفظ ولا تهيب ،
فالطفل هو الزهرة السكرية التى تنبت فى الصحراء .
الطفل هو أطيب ما فى الوجود ، وهو الصديق الحق لو تعلمون .
الطفل هو الذى يقبل وجوهكم برفق وعطف ، وكل مودة غير
مودة الطفل هى رياء فى رياء .

الطفل هو المؤمن بالوداد ومن سواه كفار جاحدون .
قبلة الطفل صدق فى صدق ، وصداقة الطفل إيمان فى إيمان .
فإن فاتكم تلك القبلة وهذه الصداقة فستعيشون محرومين .
الطفل مخلوق لطيف لم يطلع على سفه الدنيا ولؤم الزمان
الطفل يثق ويوقن ، فأفهموه أنكم أهل للثقة واليقين ،
الطفل يشتهى أن يحب فأحبوه .
الطفل يطمئن إليكم ، فاطمئنوا إليه .
الطفل يتوكل عليكم ، فتوكلوا على الله واعطفوا عليه
الطفل يتوهم أنكم ناس ، فأفهموه أنكم ناس
الطفل هو نعمة الله فلا تجحدوا نعمة الله .

أما بعد فإن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل عند من يفهم أسرار

الغرائز والميول ، ولكنه صعب جداً على من ينتظر من الأطفال أن يفكروا بعقول الرجال .

فارجعوا إلى طفولتكم حين ترون أطفالكم لتذكروا معاني السعادة من جديد ، ولتنسوا في صحتهم متاعب الجد الرزين .

حديث المؤلف

مع جريدة الأخبار

قالت جريدة (الأخبار) العراقية الغراء :

كان لصدور كتاب (عبقرية الشريف الرضى) الذى أتمحف القراء به حضرة الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية رنة استحسان فى مجتمعنا الأدبى ودوى فى محافل الفكر .

وقد قصد مندوب جريدة (الأخبار) المؤلف الدكتور زكى وسأله أفانين من الأسئلة حول الموضوع ، وفيما يلي خلاصة حديث الأديب المبارك :

س - لماذا بدأتهم بالشريف الرضى ؟

ج - لذلك تاريخ قديم ، فقد كان الأدباء فى مصر يختلفون حول أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وكنت وحدى أقدم الشريف الرضى على هؤلاء الشعراء ، وأثر هذا التقديم واضح فى كتاب (مدامع العشاق) الذى طبع مرتين ، وهو يشهد بإعزازى للصديق العظيم محمد بن الحسين ، ولما قدمت بغداد رأيت الفرصة قد سنحت لإنصاف هذا الشاعر المظلوم الذى غفل عنه الناقدون .

س — هل تعتقد أن الشريف الرضى كان منسيا ؟

ج — إرجعوا إلى المؤلفات الحديثة التى دونت أخبار الشعراء
تروا أن الشريف الرضى لم ينل بعض حقوقه فى الحياة الأدبية ،
ويكفى أن تذكروا أن كتاب (الوسيط) لم يشر إليه ، وكتاب
الوسيط ألف لغاية واضحة هى تعريف الشبان المصريين بأهم
الشخصيات التى كان لها سلطان فى عالم الشعر والأدب والبيان .

س — ما هى أهم النواحي الذوقية فى حياة الشريف ؟

ج — كان القدماء يرون أنه أشعر الناس فى « الحجازيات »
وأرى أن أهم النواحي فى شعره هى « المعالى » وأعتقد أنه أعظم
شاعر وضع دستوراً لحياة الفتيان ، وأكاد أجزم بأنه أكبر شاعر
صوّر الضجر من حياة الخمول ، فالشريف الرضى شاعر ناثر يدعو
إلى تحطيم قيود الذل والاستعباد . ونواحي الرجولة قد اكتملت
فيه كل الاكتمال ، فهو رجل له صبرات وآمال ، هو عاشق
وفارس وهومن وزعيم ، هو رجل يجمع بين المرارة والحلاوة
والعنف والرفق ، هو شخصية عريقة تقسوفتكون أعنف من الجحيم
وترقفتكون أرفق من النسيم

س — ما هو الأسلوب الذى اخترته فى التأليف ؟

ج — لقد أقمت كتابى على غير مثال سبق ، وأنا أحرص كل
الحرص على أن تكون مؤلفاتى ألواناً مختلفات ، وأحب أن ألقى

قرأت في كل كتاب بأسلوب جديد . والتأليف عندي فن من الفنون
فلكل كتاب ضرب من التصميم ، ولون من التصوير . واختلاف
الموضوعات يوجب ذلك ، فلمؤلفات الأدبية لون ، وللمؤلفات
الفلسفية لون ، فلي في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) شخصية غير
شخصيتي في كتاب (النثر الفني) وكذلك كان كتاب (عبقرية
الشريف الرضي) صورة جديدة تخالف سائر الصور فيما نشرت
من مؤلفات .

س — قلت إنك سايرت الشريف الرضي مسaire الصديق
للصديق ، فما معنى ذلك ؟

ج — تلك خطي في التأليف ، فأنا أهتم بارتداد المجاهل من
حيوات الشعراء وأحرص على التعرف إلى ما عندهم من ميول
وأذواق وأهواء . وأنا بكل صراحة أعتقد أن لا بد للناقد من أن
ينسى شخصيته ويفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه بحيث يبصر
بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ، ليسبر أغوار نفسه ، ويرى مبلغ
شهوره بما وصف من الأشياء .

س — كيف كانت إحساساتكم عند تأليف ذلك الكتاب ؟

ج — كنت في حالة نفسية تشبه تمام الشبه أحوال الشريف في
دنياه ، وقد تفتح قلبي تفتحاً لم أعده من قبل ، فأنشأت في أشهر
قلائل الوفا من الصفحات ، وأصبح من المقرر عندي أن الشريف

شاعر يوحى ، والشاعر الذى يوحى هو الشاعر الحق ، وأنا أومن بأن كتابى عن الشريف سيخلق نهضة أدبية وذوقية وفنية ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه التأليف وجهة جديدة سترون شواهدا بعد قليل .

س — دعوت فى آخر كتابك للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف ، فماذا توصى به فى هذا الشأن الخطير ؟

ج — إن إحياء الذكريات لون من حياة المجتمع الإسلامى ، ولكنه كان مقصوداً على الشخصيات الدينية ، ونحن قد أخذنا عن أوربا الاحتفال بالشخصيات الأدبية والفلسفية ، ولعل ذلك التقليد وقع فى مصر أول مرة حين احتفلت الجامعة المصرية بإحياء ذكرى الأعضاء المؤسسين ، فقد كان معالى الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا يلقى علينا محاضرة فى كل سنة عن قاسم أمين ، ثم توسعت الجامعة المصرية فاحتفلت بذكرى رينان ومحمد عبده والجاحظ والمتنبى ، وشاعت هذه البدعة الجميلة فى سائر الأقطار العربية ، وكان للعراق نفسه نصيب من إحياء ذكرى المتنبى ، فمن الواجب أن ينتهز الفرصة التى ستسنىح بعد عام ونصف للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف الرضى ، وإنى لأرجو أن يكون احتفالاً عالمياً تشترك فيه سائر الأمم العربية ويكون فيه للفن نصيب مرموق : ففى ديوان الشريف قصائد كثيرة تصلح للغناء . ومن

الواضح أن أمثال هذه الاحتفالات تنفع في إحياء الدراسات الأدبية ، وتوجه الباحثين إلى أفانين من شائق البحوث .

س — كيف رأيتم استقبال الرأي العام لكتابكم الجديد ؟

ج — ضاق وقتي عن تذكير الرأي العام بكتابي فلم أهد إلى الصحفيين العراقيين غير نسخ معدودات ، وفي العراق جرائد ومجلات لم أهد إليها الكتاب ، مع أن فيمن تغافلت عنهم أصدقاء فضلاء ، واعلمهم يعتبرون ويلومون ولكنهم سينسون هذا التغافل حين يتذكرون أني كنت مشغولا بتلاميذي ؛ على أن هذا لم يمنع من أن يكون كتاب (عبقريّة الشريف الرضي) أول كتاب شعرت بوصوله إلى أفئدة القراء بسرعة بعد كتاب (النثر الفني) فقد وزعت مئات من النسخ في بضعة أسابيع ، وسيكون له مجال حين يصل إلى مصر ، فالصحافة المصرية تهتم بحياة التأليف أكثر مما تهتم الصحافة العراقية ، وكان أهل العراق يعرفون ذلك ، فهم يتساهلون بأخبار الكتب الجديدة قبل أن تحدثهم عنها الجرائد والمجلات

س — هل أستطيع أن أسأل كيف قضيت عامكم هذا في بغداد ؟

ج — أنا ما قضيت عاما في بغداد ، وإنما قضيت في بغداد لحظات ستكون ذخيرتي من الانس فيما بقي من حياتي ، وما عرفت معنى الحياة إلا في بغداد ، فقد قضيت جميع تلك اللحظات والقلم في يدي ، واستطعت أن أشغل طوائف من الجرائد والمجلات في مصر والعراق

ولبنان . وأستطيع أن أصرح بأننى أول موظف تلطفت معه حكومة العراق ، فلم يسألنى أحد عما أنشر من المذاهب والآراء ، وقد ظن بعض من لا يفهمون أن حكومة العراق سكنت عنى لمكاتى الأدبية ، والرأى الحق أن حكومة العراق سكنت عنى لأنها تعرف أنى من أصدق أصدقاء العراق .

س — من هو الشاعر الذى ستدرسونه فى العام المقبل ؟

ج — العام المقبل فى ضمان الله ، فقد اعتذرت عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل ، لأننى أريد أن أطبع كتاب «التصوف الإسلامى» الذى نلت به الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وهو لا يطبع فى غير القاهرة لأسباب فنية .

وبهذه المناسبة أوجه أصدق الثناء لمن عز عليهم أن أحرم من هواء بغداد فى العام المقبل ، ولا يعزى عن فراقهم إلا يقينى بأن بغداد ستكون فى أكرم المنازل من قلبى ، وسأذكر أنى احتملت مشاق السفر لأرى قبر أبى تمام بالموصل ولأهيه نفسى لتأليف كتاب عن عبقرية الشاعر الذى أعز دولة الشعر فى القرن الثالث ، فإن ترفقت شواغلى بمصر وسمح أطفالى بالرجوع إلى بغداد فسأقيم موسماً ثانياً للشاعر الجميل الذى اسمه حبيب . وإن كان هذا آخر العهد بتسليم هواء بغداد فإنى أؤكد لكم أننى سأقصر جهودى وأنا بمصر

على الاهتمام بالآثار الأدبية لأهل العراق ، وسيكون شعارى قول
جميل فى خطاب بثينة :

فإن كنت لمتا تعلب العلم فاسألى وبعض الرجال للرجال رموق
سلى هل قلانى من خليل صحبته وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيق
وهل يحتوى القوم الكرام صحابى إذا اغبر مخشى الفجاج عميق
والسلام عليكم وعلى العراق ورحمة الله

من العمامة إلى الطربوش ثم إلى القبعة فالسدارة

أخي الأستاذ طاهر الطناحي
لا أدري والله كيف خطرت ببالك ، وأنا الصديق الذي نسيه
الأهل والأحباب
حدثكم الأستاذ محمود عزمي أنني لبست السدارة فتذكرتوني ؟
وهو كذلك !

أما أنا فتذكرتك في طريقى إلى البصرة وطن العلم والشعر والخيال
فقد كانت مجلة « الدنيا المصورة » أنيسى فى ذلك الطريق الطويل ،
وكانت الشاهد على أن مصر تؤدى دينها إلى العراق ، العراق الذى
أحبكم ورعاكم ، إن كنتم تستحقون الرعاية والحب ، يا أشقياء !
وإنما غمزتكم هذه الغمزة لأذكركم بواجبكم نحو العراق ، فقد
أصبحت أغار عليه كما أغار على وطنى ، وأرى من حقه عليكم أن
تكونوا أسبق الناس إلى تسجيل أعماله الصالحات ، فليجلاتكم
بالعراق مكان مرموق ، وما يجوز لكم أن تقابلوا الجيل بغير الجيل .
وبعد فقد آن أن أدخل فى صميم الموضوع فأقول :
إننى تقلبت فى ملابسى من حال إلى حال ، فكنت أولاً البس

الطاقة والجلالية ، وذلك ما لم تسألوني عنه ، مع أنه لباس الفلاحين المصريين ، ولباس أهلى فى سنترىس ، ولعلكم ظننتم أنى أنكر للنشأة الأولى ، فرأيت من الذوق أن تسكتوا عن ذلك العهد ، وقد صقلتكم المدنية فخرصتم على الذوق وهو عندكم يوزن بميزان الذهب ، وغيركم يكيله بالمكيال ، حفظكم الله ورعاكم يا جيران قصر النيل ، ولكن لا بأس من أن تذكروا أنه لا يضايقنى أبداً أن أعترف بأنى فلاح لا يزال فى يده أثر الفأس والمحراث

كنت معمماً يوم كنت طالبا بالأزهر الشريف ، ولكن يظهر أنى كنت غريبا بين الأزهرين ، فقد كانت عمامتى أظرف عمامة ، وكان هندامى أجمل هندام ، وكنت وحدى أمثل فى الأزهر مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة إلا قال قبحهم الله !

وكان فى النية أن أظل أزهرى ، فقد انتقلت من مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة لا كون مفتى الديار المصرية ، ولكن أين أنا مما تصنع المقادير !

لقد شامت المقادير أن تخلقنى على طراز غير طراز القضاة والمفتين فنقلتنى إلى الجامعة المصرية لأصبح من تلاميذ منصور فهمى وطه حسين ، والله الحفيظ !

ومع ذلك ظلمت معمماً إلى أن ظفرت بإجازة الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية ، سنة ١٩٢١ ثم أخذت أستعد لامتحان

الدكتوراه ، فبدأ لي أن أصبح « أفندي » وكانت كارثة ، لأنني لم أكن أعرف تقاليد « الافندية » الظرفاء ، فقدمت ما عندي من « الجيب » إلى أحد الطرزية في شارع محمد علي فصنعوا منها بذلتين سخيفتين شهدتا بأنني كنت مهندما في الجبة والقفطان ثم أصبحت أضحكة في السترة والبنطلون !

وفي يوم امتحان الدكتوراه أوصاني الدكتور منصور فهمي بأن أحضر في البذلة السوداء ، فلم أفهم المراد من البذلة السوداء ، وحضرت ببذلة مكونة من لونين ، لونين سخيفين كل السخف ، ولولا فصاحتى وبلاغتى في ذلك اليوم لعدتني الحاضرون من السفهاء ، وكانت قوة حجتي في امتحان الدكتوراه هي الشاهد على صواب الكلمة المأثورة :

« إن العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها »
والرسالة التي قدمتها لامتحان الدكتوراه يومئذ هي كتاب « الأخلاق عند الغزالي » وقد جاء في ذلك الكتاب في فصل لأدرى ما هو لأنني نسيت أنه قد أخلع العمامة وألبس الطربوش ولكني لا ألبس القبعة !

ذلك ما سجلته في كتابي ، أيها الصديق .

ولكنني لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين حين هاجرت لطلب

العلم في باريس سنة ١٩٢٧ .

ومن الغريب أنى لم أصنع كما يصنع زملائي ، وعهدى بهم يذهبون
إلى البواخر بالطرايش ، وإنما لبست القبعة من منزلى فى مصر
الجديدة ، فلم يعرفنى المودعون ، وفيهم الشيخ إبراهيم القاياتى ، رحمه
الله ، وفيهم الشيخ على مبارك الذى زاغ بصره ليعرف أين عمه
الغالى ، وكان يجهل أنه أصبح من الخواجات فى محطة باب الحديد ؛
ذلك تاريخ معروف : والمهم هو تسجيل لبس السدارة فى بغداد
وهنا أدخل فى صميم الموضوع من الناحية الفلسفية فأقول :

إننى أعتقد أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس واحد : هو
الاندماج المطلق فى البلد الذى تعيش فيه ، وحبلى فى ذلك أن الحيوان
الصالح للحياة هو الذى يأخذ لونه من الأرض التى يعيش فيها ،
وأداة الغزال هى فى الأصل من لون الصحراء ، والربدة فى الأسود
والنور هى اللون الغالب على الأرض التى يعيش فيها النور
والأسود ، ولون الحوت هو من لون المحيط ، والحرباء تمثل السياسة
العالية فى عالم الحشرات ، لأنها تبيض وتسد وتخضر وتصفّر وفقاً
لما تخالط من مختلف الألوان ، فتسلم من عيون الأعداء .

وما أزعم أنى وصلت إلى هذا الحد من السياسة العالية ، فما
أقدر على الوصول إليه ، وإنما أقرر بكل صراحة أن الأخلاق
الصحيحة توجب أن تندمج كل الاندماج فى الوطن الذى تعيش فيه ،
والغفلة هى التى تحدثك أن من العبقرية أن تنفرد عن القطيع ،

وبعض الجهلاء يظنون العبقرية في الشذوذ ، وأنا بالفطرة أشعر
بوجوب الاندماج في المجتمع ، وهذا ما صنعت حين وصلت إلى
بغداد .

وأعيزك أن تظن أنني كنت منافقا فيما صنعت ، لا ، فهناك سياسة
أخرى أعرضها عليك :

أنا أعتقد أنه لا بد لحفظ الصحة والعافية من مراعاة الجو والمحيط
ومن أجل هذا فكرت في أن ألبس ثيابا من صوف العراق قبل أن
أصل إلى العراق ، فلم أدخل بغداد إلا وأنا في ثياب صنع قماشها في
بغداد ، وكنت بحمد الله من الموفقين .

ومن عادتني أن أقرأ جرائد البلد الذي أعيش فيه ، فقد كنت وأنا
في باريس أعرف جرائد فرنسا كما يعرفها شبان باريس ، وكان
جيراني من الشبان الفرنسيين يسألونني رأيي في السياسة الفرنسية لأنني
كنت أعرفها أكثر مما يعرفون ، وأنا اليوم أقرأ جميع الجرائد العراقية
وأعرف سياسة العراق أكثر مما يعرفها الشبان العراقيون ، وأجهل
سياسة مصر كل الجهل ، فكيف حالكم اليوم ؟ حدثوني فقد نسيت
وبمناسبة الأستاذ محمود عزمي أذكر أنني رأيته يلبس القبعة في
بغداد ، فعرفت أنه غير موفق ، وليتكم تسمحون بأن أسجل أنني

رأيت من أهل الجود ، لأن ما يصلح لجو باريس قد لا يصلح لجو
بغداد ، ولي أصدقاء مصريون لم يعجبهم كلامي فتركوا رؤوسهم عارية
فلزمتهم عقابيل من برد العراق ستصحبهم طول الحياة .

والسدارة العراقية لباس جميل ، ولكنني « أكبسها » على رأسي
بعنف لا تقي بها البرد ، وأرجو أن أكون قدوة لسائر أهل العراق .
والله خلقنا بلا شعر ولا وبر ولا صوف ، ولكنه منحنا شعر
الرأس لينبها إلى أن الرأس يستحق الحفظ ، ومن أجل هذا كان
الإنسان هو الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان ، ومن جهل
هذه الحقيقة فسيموت قبل أوان الموت !

وأذكر أيضا أن هذه السياسة العملية توجب أن أسأل عن طعام
البلد الذي أعيش فيه ، فأنا في مصر من عشاق الملوخية والخبيزة
والبلح الأمهات وضأن المنوفية ، وكنت في باريس لا أعشق غير
الألوان الفرنسية ، ولا أذكر ما أسماؤها لثلا يسيل لعابك ، وأنا في
بغداد لا أؤثر غير الأطعمة الأصيلة في بغداد

وكنت في مصر أعشق العيون العسلية ، وفي باريس كنت أعشق
العيون الزرق ، وفي العراق أعشق عيون الظباء .. يظهر أنك غاير
منى ! تعرف شغلك !

وكنت في باريس أهرب من المصريين ، وأنا في بغداد أهرب
من المصريين ، وما أكره مصر ولا أهل مصر ، وإنما أحب أن

أعيش في باريس مع أهل باريس ، وفي بغداد مع أهل بغداد ، ولو
انتقلت إلى المريخ لما رضيت بغير صحبة أهل المريخ !
أما بعد فهذا درس ينفع ، ولكن أين من يسمع ؟
هذا هو السر في أنني أحببت أهل العراق ، وأحبني أهل العراق ،
وستمر أجيال وأجيال ولا ينسى أهل بغداد أن مدينتهم عاش فيها
رجل أحبها أصدق الحب اسمه زكي مبارك

أهدا زكى مبارك ؟ أم هو جمال الأفغانى ؟

أخى طاهر :

اسمح لى أن أعتب عليك ، فالعتاب صابون القلوب ، كما يعبر
أهل لبنان .

أنت طلبت منى صورتى بالسدارة ، وقد راعيت معك الأدب ،
فلم أرسل إليك صورة شمسية ، وإنما أرسلت إليك صورة رسمها
السيد بهاء الدين الراوى أحد الفنانين بالعراق .

وإنما اهتممت بك لأسباب ، أولها أنك صديق عزيز جداً ،
وإن كنت لا تعرف ، وثانيها أنك موصول بالأواصر بأصدقاء أعزاء
منهم الأستاذ أميل زيدان والأستاذ فكري أياظة والأستاذ حسين
شفيق ، وثالثها أنك تقيم بحداثق القبة ذات الزهر والزيتون ، ورابعها
أنك تسير على قدميك فى شارع قصر النيل وشارع فؤاد ، وخامسها
أنك تداعب الدكتور زكى مبارك من حين إلى حين ..

ولكن هل تعرف أن مداعبتك الأخيرة كانت ثقيلة جداً ؟
هل تعرف أنه ما كان يجوز لك أن تنشر صورتى وأنا طالب
بالأزهر الشريف ؟

ومعـاذ الأـدب أنـ أتـنـكـر للأزهر وقد جلست على حصيره
الممزق خمسة عشر عاماً كما جلس محمد أبو شادي وإبراهيم الهلباوي
وسعد زغلول ، وهل يؤذيني أن أكون أزهرى النشأة ، وبفضل
الأزهر وصلت إلى ما يعرف خصومي من التفوق في اللغة العربية ،
وبفضل الأزهر استطعت أن أصاول علماء النجف في بغداد ؟

إنما آذاني وأرمضني أن تذكرني بشبابي ، فقد نشرت لي أربع
صور في صفحة واحدة ، كانت شاهداً على أني تنقلت رويداً رويداً
من الشروق إلى الغروب .

واسمح لي مرة ثانية أن أصرح بأن حقدك على أخيك حقد قديم
فأنت يا ظالم تريد أن تضيفني إلى طائفة الكهول ، مع أني في نفسي
وبشهادة ليلاى الغالية شاب رائع الشباب ...

أكتب هذا وأنا أعرف أنك ستبتسم ، لأن دسيستك جازت
على قراء « الدنيا » ، وهي مجلة محبوبة لدى ، لأنني اشتركت في تحريرها
مرات ، ولأنها كانت أنيسي في طريقى إلى البصرة ، وطن العلم
والأدب والخيال .

إن الحق له حدود ، يظاهر ، وكان الظن بذوقك أن تخفى عن
قرائك صورتي يوم كنت طالباً بالأزهر الشريف ، فهي صورة
تشهد بأنى كنت من أمراء الشباب ، ولكن التعقيب بصورتي مستترا

في بغداد أزجني ، لأنني رأيت أنني أصبحت شبيهاً بالمفكر العظيم
السيد جمال الدين الأفغاني .

ولو شئت لقلت إن من الشرف أن تكون صورتي شبيهة بصورة
جمال الدين ، فأنا أصنع مثل الذي كان يصنع ، أنا أحاول التقريب
بين الأمم العربية والإسلامية ، ولكنني مع ذلك أتوقع لجنايتي على
شبابي ، وأشارك الشاعر الذي يقول :

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت

مني . على الذي أعطت وتجريبي
.....

أخي طاهر :

كنت سمعت أنك نشأت في دمياط ، فإن كان هذا صحيحاً فخبرني
كيف خانك الذوق ؟

ألم أعاتبك مرتين على ما كتبت في مجلة « الهلال » يوم قلت إنني
أجمع بين نشاط الشبان وحكمة الشيوخ . .

خذ ما عندي من الحكمة . وأعطني ماضع من شبابي

أخي طاهر . . ولو شئت لقلت إنك غريمي

اسمع يا أخي ويا غريمي :

لقد تركت دنيا شبابك بلا ورق وبلا أغصان ، وإن تدخل مكانا
إلا وقد ، وطئته قدماي وباريس التي تتشوف إليها أن تجد فيها مكانا

لم يضحج أديمه وأنا أدوسه بعنفواني فانتقم منى كيف شئت ، فقد سبقتك
إلى دنيا الحب والمجد بعزائم الرجال
وإن طاب لك أن تصر على الاختيال بشبابك فسأصارحك فى
ميدان الجزيرة يوم أعود ، لتعرف أينما الشاب وأينما الكهل، ولكن
متى أعود؟ حدثنى متى أعود؟ فقد طال شوقى إليك وإلى الإخوان
الذين أتحداهم بقوتى وعنفواني فى دار الهلال

أحييتني بغداد

صديقى :

تحيتى اليك وإلى السامرين السعداء فى ملاعب القاهرة ، وإلى
الأصدقاء الكرام الذين رفعوا قدرى بمزاحهم اللطيف فى مجالات
«الشباب والدنيا والإثنين وآخر ساعة والصباح» وتحيتى إلى مصر
التي أمتحها البغض فتمنحني الحب

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
أما بعد فانا أكتب هذه الكلمة والدمع فى عينى ، ولكن
أى دمع ؟ دمع السعداء ، والسعداء يكون كما يبكى الأشقياء .
أبكى من الفرح لأنى أخرجت كتابا فى جزأين سيجعلنى أبد
الدهر على السنة أهل العراق
أبكى من الفرح لأن الله رعانى فكنيت بفضل رعايته عند
جميل الظنون ، ومن الشرف الهائل أن يعرف قومى أنى ظفرت
بثقة الأكرمين من أهل العراق

كان رؤسائى بوزارة المعارف المصرية يعرفون مذاهبي فى الأدب
والبيان ، وكانوا يخشون أن أخلق لمصر أعداء فى العراق ، وقد
نصحنى الدكتور طه حسين بصدق وإخلاص ، والدكتور طه - على
حد تعبيره الجميل - أستاذى وزميلى وصديقى ، ونصحنى العشماوى بك ،

الرجل النبيل الذي يجعلني كرما ولطفاً في منزلة ابنه رجاء ، نصحني
هذان الرجلان بالعقل ، ونهياي عن مصاولة الأدباء في العراق .

فهل تراني انتصحت ؟

لقد لزمت العقل أسبوعاً واحداً ، ثم أسلمت زمامي إلى الجنون
وكيف لا يكون مجنوناً من ينفق من الخبر أضعاف ما ينفق من

الماء القراح ؟

كيف لا يكون مجنوناً من يحول تلاميذه إلى مؤلفين سيئتهم
منه الميدان ؟

كيف لا يكون مجنوناً من يثير الناس عليه فلا يصبح ولا يمسى
إلا وهو في حرب مع الجرائد والمجلات ؟

ولكن الأعمال يا صديقي بالخواتيم ، وليت أعمالاً فيما بقي من
دنياى تختتم بمثل الذى ختمت به أعمالى فى العراق

لقد صاولت من صاولت ، وعاديت من عاديت ، ثم رجعت
ورجعوا إلى كوثر الصفاء ، وأى حظ أشرف وأفضل من أن يصرح
أحد كبار الرجال بوزارة المعارف العراقية بأنه قرأ كتاب عبقرية
الشرىف الرضى فى ليلة واحدة على ما فيه من الأبحاث الطوال ،
وعلى كثرة ما يعترض القارئ من غرائب الرموز ودقائق المعانى ؟
إن الحب بين القارئ والمؤلف أمنية عزيزة فى الأدب العربى ،
وقد أعانى الله فأبدعتها إبداعاً ، وإن طالت حياتى فسأقنع شباب

العرب بأن أدبهم خليق بأن يشغلهم بأنفسهم وأهوائهم وأخلاقهم
ومطامعهم ، وأن أساتذتهم ليسوا أقل بصراً بالأدب والحياة من
أساتذة السوربون

لقد كوتنى بغداد ، ثم شفتنى بغداد
كوتنى هذه المدينة لأنى عشت فيها محبوساً لأدرى أين أذهب ،
وقد تطف الله فجعل للسيئات رقيباً واحداً ، وأساءت بغداد فجعلت
للسيئات ألف رقيب ، وكذلك عشت فيها أسير الهواجس
والوساوس فلم أنعم بغير الطيف ، طيف الحب العذرى بين
ليلي وظمياء

وشفتنى بغداد ، لأنى أنست بسواد الليل حين فاتنى الأانس بسواد
العبون ، فشرفت نفسى بمراسلة الصحف فى مصر والعراق ولبنان ،
وخرجت من ذلك كله بمحصول أدبى سيم الأخمسة مجلات ، وسيكون
تذكرة باقية لفضل العراق

قدمت بغداد وقد حقت على لعنة المازنى فهجرت الشعر إلى
الأبد ، وسأفارق بغداد وفى صدرى قصيدة هى أعظم ما نظمت
فى حياتى .

قدمت بغداد فى أسمال الأشقياء ، وسأفارق بغداد وعلى رأسى
تاج البيان .

ليت قومى يعلمون .

ليت قومي يعلمون أن كرم العراق فوق الأوهام والظنون .
ليت قومي يعلمون لآى الأسباب تظفر مصر بثقة العراق ؟
الأسباب واضحة جدا ، ولكن أين من يعرف ؟

إن المصريين يفدون إلى العراق وليس في صدورهم ثروة غير
الحب ، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصر يا شقى
فى العراق فاعلموا أنه مصرى مزيف ، ومصر يكثُر فى أهلها
التزييف ، مع الأسف الموجه ، لأنها تجمع البحرين .

لقد صاولت العراقيين بلا تُلطف ولا ترفق ، وآذيتهم فى بعض
أحوالى أبشع إيذاء ، وظلوا مع ذلك إخوانا كراما ، فكيف كنت
وكيف كانوا ؟

غزوتهم وأنا مخلص فرعونى وهم مخلصون .
استطاعت عليهم باسم العلم الذى أدعيه فصبروا باسم العلم الذى
يحسنون .

من أنتم يا أهل العراق ؟ أتكونون من الملائكة ؟ أتكونون
من الشياطين ؟

من أنتم ؟ حدثونى من أنتم فقد خبلتمونى ؟
إن عاصمىكم لا تساوى حيا واحداً من أحياء القاهرة ، فما هو
السحر الذى صرعتم به قلبى ؟

لقد سحرتم أبا العلاء المعرى وهو ضير فظل طول عمره يتحدث

عن فضائلكم وشمائلكم ، فكيف أكون ولي بصر حاد أنعم الله به
وتفضل ؟ كيف أكون وأنا أشهد شقاءكم في الصباح ونعيمكم
في المساء ؟

كيف أكون وأنا أشهد شوارعكم تموج في النهار بالعاملين ،
وتموج في الليل بالعاشقين ؟

عشت بينكم محروما يا أهل بغداد ، وسأفارقكم وأنا محروم ،
فاذكروني بالشعر يوم أموت ، وما أريد شعر القوافي وإنما أريد
شعر الأرواح .

صديقي :

هل سمعت بالمستحيل ؟

عشت في باريس ماعشت ، وكنت أصدق مصريّ عشق باريس
ولكنني كنت أعدّ أعوامي في باريس . فكننت حين يقترب رجوعي
إلى مصر أجرب السفر في كل مساء إلى محطة ليون ، فكيف تراني
في بغداد ؟

أنا اليوم أتوجع كلما تذكرت أنني سأفارق بغداد بعد أسابيع .
أنا أضطرب وألتاع كلما تذكرت أنني سأفارق القیظ والغبار
في بغداد .

أنا أشرق بدموعي كلما خطر بالبال أنني سأرحل عن بغداد .

فهل تراني يا صديقي عشت عيش المنعمين في بغداد ؟

لم أر في بغداد غير ظلام الليل .
لم أر في بغداد غير سواد المداد وبياض القرطاس .
لم أعرف كيف تصطرع الأهواء في بغداد ، فما عصيت فيها ربي ،
وذلك أعظم الذنوب ، فلو لا المعصية لما ظفر الناس بأعظم نعمة
من نعم الله وهي الغفران .
رباه ! عاقبني بما شئت ، فقد كفرت بالعيون السود ، في وطن
العيون السود .
رباه ! اغفر ذنوبي ، فقد وقعت في أعظم ذنب وهو الحرمان .
رباه ! أنت تعلم أني لا أداري المنافقين ، فنجني من شر المنافقين .
رباه ! أنا أحب العراق ، فاجعلني طول حياتي من المجاهدين في
سبيل العراق ، واحشرنى يوم الحساب مع أهل العراق .
رباه ! إن العراقيين رعونى وأكرموني فاجعلهم في الدنيا والآخرة
من السعداء .

فاجعة بغداد

ما أعجب ما تصنع المقادير !
وهل كان يخطر ببال أحد أن أكتب آخر مقال في بغداد وأنا
محزون ؟ .

من كان يظن ذلك ؟ لقد قضيت عامي كله فرحاً مسروراً ، أتقل
في أرجاء العراق من مدينة إلى مدينة ، فوق أمواج الجندل والابتهاج
وألقي من عطف العراقيين ولطفهم ما يشرح الصدر ويؤنس
الروح .

فكيف جاز أن تكون آخر أيامي في بغداد أيام أحزان ؟
تلك ضريبة تؤديها راضين أو كارهين ، فكذلك كانت الدنيا
وكان الوجود .

* * *

في ضحى اليوم العشرين من شهر حزيران ذهبت إلى دار المعلمين
العالية لمراجعة بعض الشؤون ، فلقيني الدكتور عقراوي مذعوراً
وهو يقول : وقع اعتداء على الدكتور عزمي ، فانزعجت وأسرعت
لنجدته ، وكان الظن أن يكون الاعتداء نوعاً من التلاحى والسباب
ولكنني ما كدت أجتاز باب كلية الحقوق حتى أفزعتني مناظر
الدماء .

ودخلت إلى مكتب نائب العميد فرأيت الدكتور عزمى بخير ،
وجدته أصفر اللون ممزق الثياب ، وهو يرتجف ، فقلت : سلامتك
يادكتور ، ماذا تجد وما الذى حدث ؟

فأشار إشارة خفيفة فالتفت فإذا رجل ممدد فوق بساط المكتب
وهو مخرج بالدماء ، رجل أخفى الدم معالم وجهه وكاد ينقله إلى
حظيرة الأموات ، ولكن صوته وهو يتأوه ويتوجع دلى على
شخصيته فعرفت أنه الصديق الكريم الدكتور حسن سيف .

ما أنت يادنيا ؟ أرويا نائم ؟
أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف
نعمائك الريحان ، إلا أنه
مست حواشييه تقيع زعاف !

ذلك الدكتور سيف الذى قضى أيامه فى بغداد وهو يعتب
ويتلوم ، لأنى أنقطع عن زيارته ، وأعق واجب الاخاء فى السؤال
عنه ، ولا أراه إلا مصادفة فى الطريق .

وكان الدكتور سيف هو وحده الذى يعتب ويتلوم من بين سائر
الزملاء ، فهل كان يشعر بأن الأقدار ستفرق بيننا بعد قليل ؟
كان الدكتور سيف أخا كريماً ، فعند الله أحسب فجيعتى
فى ذلك الأخ الكريم .

كنت أرتاب فى أكثر المودات وأثق بمودة ذلك الصديق .

وماهى جريمته حتى يقتل وهو غريب ؟

آه ، ثم آه ، لقد تذكرت

تذكرت أن الله ابتلاه بحرفة التدريس كما ابتلانى .

والتدريس حرفة صعبة قاسية لا يعرف أخطارها إلا الأقلون .

ولم تكن كذلك إلا منذ اليوم الذى وضعت فيه للتدريس قواعد وأصول ، وأصبح من المفروض أن يمتحن الأستاذ تلاميذه ليحكم لهم أو عليهم ، والتلاميذ كما عرفتهم فى مصر وفى العراق لا يرضون أبداً عن أساتذتهم ، فإن نجح طالب فنجاحه لم يقع إلا بفضل المحابة ، وإن رسب فرسوبه لم يقع إلا بسبب المعادة ، والأستاذ فى جميع أحواله مظلوم ، لأن التلاميذ فى أغلب أحوالهم صغار ، لا يرون الحق والباطل إلا فى ضوء المنافع الشخصية .

والرصاصه التى تلقاها الدكتور سيف فى دماغه أقل خطراً من كلبة السوء التى يتلقاها غيره من الأساتذة ، فكم فى الدنيا من أساتذة وصموا بأقبح الوصمات لأن لهم تلاميذ ساقطين يذيعون عنهم الإفك والبهتان !

* * *

وجاء الإسعاف فنقل الدكتور سيف إلى المستشفى الملكى

وبقيت مع الدكتور عزمى أواسيه ، فأخبرنى أنه تلقى رصاصة

فى كتفه ، وأنه يخشى العواقب : لأنه مريض بالبول السكرى ،

فقدمت له سيجارة فرفض ، فقلت : هي تلهية تنسى بها قليلا همومك
فلم يستطع أخذها بيديه ، ومدّ فمه للسيجارة فعرفت أن الرجل
يتكلف في ترضيتي ما لا يطيق .

وبعد لحظات أخذته في عربة إلى المستشفى الملكي وأدخلته إلى
حجرة الإسعافات ، ولكنه ما كاد يجاس حتى غلبه البكاء .

* * *

كنت أصدق كل شيء ، ولكنني كنت أنكر أن يبكي الأستاذ
محمود عزمي من الجزع .

هذا رجل له خصوم وله أنصار ، وقد أسرف في الحب وفي
البغض ، فما الذي مرّ بخاطره في تلك اللحظة حتى غلبه الدمع ؟
لعله تذكر أطياف ما لقي من الشقاء في دنياه ، فهذا الرجل لم
يعرف معنى الهدوء منذ ثلاثين عاما ، وهو قد انتقل من ميدان إلى
ميدان ، وظل يكافح ويناضل حتى عرف أخيرا أن في الدنيا شيئا
اسمه الرصاص !

ما أذكر أبدا أني أحببت الأستاذ محمود عزمي ، فقد اصطدمت
به في القاهرة في أعقاب الثورة المصرية ، واصطدمت به في باريس
واصطدمت به في بغداد ، ولكنني لم أخل يوما من العطف عليه ،
فهو رجل مكافح يستحق الإعجاب .

ونمكته في بغداد توجب الأسف ، لأنها أثر من آثار الحيوية

الذاتية التي امتاز بها هذا الرجل الجوال .

* * *

وجاء الطبيب الشرعي فشنخص جرح الدكتور عزمى ، وبدأ الى
أن التشخيص خطأ ، ولكنى لم أعترض .

وبعد لحظات حملته نقالة إلى حجرة الاستراحة ، وكان يستطيع
أن يمشى على قدميه ، ولكن غلبه الإعياء .

ونظرت فرأيت معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشيبى ،
ومدير المعارف العام الأستاذ طه الراوى ، ومدير التربية والتعليم
الدكتور فاضل الجمالى والمفتش العام الأستاذ يوسف عز الدين ، فجلسنا
جميعا ننتظر رأى الأطباء فى مصير الدكتور سيف .

ولم يكن بد من أن نتحدث ، فاقترحت على معالى وزير المعارف
أن يغير مواعيد الامتحان ، وأن يجعلها فى الشتاء لا فى الصيف ،
وقلت إننى اقترحت ذلك على وزير المعارف المصرية منذ سنتين ،
والحر فى مصر يقتل أعصاب الشبان ، فكيف تروونه يصنع بشبان
العراق ؟ إن الحر فى مصر يحمل الطلبة على قتل أنفسهم عند الرسوب
فى الامتحان ، وهو فى العراق يحمل الطلبة على قتل أساتذتهم وقتل
أنفسهم كما وقع للطالب الذى قتل نفسه بعد أن ضرب أستاذين .

وعندئذ قال الدكتور الجمالى إنه يدعو إلى هذا رأى منذ

سنتين .

وجاء كبير الأطباء فأخبرنا أن الدكتور سيف قد لا يعيش .
وانصرفنا منزعين ، وحملني الأستاذ طه الراوى فى سيارته إلى
وزارة المعارف وأخذ يعاتبني على ذنب جنيته ، وهو أنى اعتذرت
عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل بدون أخذ
رأيه ، ثم قال : لقد قضيت يومين وأنا مبلىل الخواطر بسبب فراقك
ولم أكن أعلم أن الدنيا ستفجعنى بما هو أشد من فراقك
وأخذ يبكى بكاء أليماً

وشرعت أواسى الأستاذ طه الراوى كما واسيت الأستاذ
محمود عزمى

فمن أنا فى دنياى ؟ وماذا عندى من العافية حتى أواسى المجروحين
والمحزونين ؟ وهل رأى الناس قبلى إنساناً يحترف الطب وهو عليل ؟
ثم ذهبت إلى المستشفى الملكى لأعود الدكتور عزمى فرأيت
من المحرم أن يدخل إنسان عليه ، فرجعت إلى منزلى وأنا مفطور
القلب محزون .

ما تغديت ولا تعشيت فى ذلك اليوم ، وطرق بابى طارق ومعه
خطاب ينتظر جواباً ، فقرأت الخطاب مرة ومرتين ومرات ، ولم
أفهم غرض الكاتب ، وكذلك فهمت أن التجلد لم يمنع من أن يهتد
الحزن بنيانى .

أما بعد : فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل .

ولكن من واجبي نحو وطني أن أعلن جهرة أن هذه الفاجعة
لا يجب أن تفسد ما بين مصر والعراق من الصلات الثقافية
فالطالب الجاني كان مريضاً ، وقد ضعفت أعصابه تحت تأثير
المرض والقيظ ، فجنى ما جنى وهو غير مسئول ، ثم قتل نفسه
بعد ذلك .

أشهد صادقاً أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجمل مكان
وأشهد صادقاً أني لم أر من أهل العراق غير الجميل
وأشهد صادقاً أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في
هذه الفاجعة أجمل عزاء

وأشهد صادقاً أن العراقيين إخوان أعزاء لا يضمرون لنا غير
الحب والعطف والوداد

ودموع الأستاذ طه الراوي ، وجزع معالي الأستاذ الشيببي وحزن
نخامة السيد جميل المدفعي رئيس الوزراء ، هي الشاهد على صدق ما أقول

إن أهل العراق يعيشون منذ أجيال في ماتم وأحزان
فما الذي يمنع من أن تمتزج دموعنا بدموعهم ؟
لنا في العراق شهيد ؟ وهو كذلك ، فنحن والعراقيون إخوان
ما القيني إنسان بعد هذه الفاجعة في بغداد إلا قال :
« ما عسى أن يقول فينا المصريون ؟ »

فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ،
فتلك أقدار قضت بما قضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول
أيها العراقيون

إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننا ، وقد شاء الله
أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع ، وهو رباط وثيق ،
وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد
فهو أصدق العهود
أيها العراقيون .

ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية
ثقوا بأن مصر لا يؤذيها أن يموت في عاصمتكم أحداً بنائها الأوفياء
ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب
من الدماء .

أيها العراقيون :

هل تذكرون قول شاعركم المتنبي

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللأئي سررن ألوف
إن ذكرتم هذا البيت فتحزن نذكر أنفسكم إن كنتم أسأتم إلى واحد
فقد أحسنتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب
مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون

إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق
هي جريمة فردية يسأل عنها جانبها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق.
هي سحابة صيف سيعقبها الصحو والصفاء
أيها العراقيون
لقد ساءنى أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية،
فاسمحوا لى بأن أعتذر عنكم وأن أصرح بأن الله حكمة فى مستور
الغيوب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن وهدانا جميعا إلى سواء السبيل

مكانة مصر في العراق

كانت حادثة كلية الحقوق في بغداد ماثراً لكثير من الأقاويل والأراجيف حول التعاون العلمي بين مصر والعراق ، وقد ظن فريق من الناس أن تلك الحادثة تقطع ما بيننا وبين ذلك القطر الشقيق من متين الصلات . ومن أجل ذلك أصبح من الواجب على من عرف عواطف العراقيين نحو إخوانهم المصريين أن يشرح جانباً من تلك العواطف السامية ، وأن يزيل ما قد يلحق بعض النفوس من كدورة وجفاء

لقد أقمت في العراق نحو تسعة أشهر ، ورأيت أكثر الحواضر العراقية ، وطوفت بكثير من أرجاء الريف العراقي ، وصادقت في العراق من صادقت ، وخاصمت من خاصمت ، وحييت بينهم حياة لا تكلف فيها ولا تصنع ، كما كنت أحياناً في بلادى ، واشتركت في كثير من المجادلات والمشاعات ، فكان لى من ذلك كله فرص ثمينة أعرف بها حقائق العواطف عند أولئك الرجال ، وقد صح عندي بالخبرة واليقين أنهم أصدقاء أوفياء يرعون العهد ويحفظون الجميل والحادث الأخير محنة ، ولكنها محنة أراد الله أن يختبر بها قلوبنا وقلوبهم ، فالصداقة نوع من الايمان تصقله الحوادث والخطوب

فمن كان جزع من هذا الحادث الأليم فلينتظر قليلا، فقد يكون هذا الحادث امتحانا إلهيا تريد به الأقدار أن ترينا مبلغ ما في أنفسنا من استعداد لمقاومة المكاره والصعاب

وأقول بصراحة إن الصداقة كالعداوة لها متاعب وتكاليف، ونحن عقدنا أواصر المودة بين مصر والعراق، فليكن من واجبنا ومن واجبهم أن نحرس هذه المودة وأن نقيها مكاره التقول والبغى والإسفاف، وهذا الحادث فرصة نعرف بها كيف نصلح للتعاون وكيف تقدر على احتمال المصاعب، وكيف نفهم الأشياء على وجهها الصحيح بلا تحريف ولا تزيف.

والذي يهمني في هذا المقال أن أشير إلى بعض الشواهد التي تبين مكانة مصر في العراق فأقول:

يدخل الزائر بغداد فيسمع أول ما يسمع أغاني مصر، ويقرأ أول ما يقرأ أخبار مصر، ويروى أن يرى المجلات المصرية أهم غذاء عقلي لجاهل الناس هناك. فإذا اتصل بأحد الأندية أو دخل إحدى المدارس رأى الجدل حول أقطاب الأدب في مصر وسمع المفاضلات والموازنات بين الشعراء والكتاب والمؤلفين، وأحس إحساسا قويا بأن رجال مصر يحلون من قلوب أولئك الرجال أكرم مكان.

وفي أكثر البيوت العراقية نجد صورا مختلفة لحضرة صاحب

الجلالة ملك مصر ، ونجد صوراً للزعماء المصريين من مختلف
الأحزاب ، وتشعر بأن مودة العراق لمصر أصيلة لا يشوبها تكلف
ولا افتعال .

وإذا وقع في مصر حادث سياسي أو اجتماعي أو أدبي كان اهتمام
العراقيين به عظيماً جداً ، ولا أبالغ إذا قلت إن المصري قد يراهم
يعرفون من أخبار بلاده أكثر مما يعرف ، وقد يراهم اطلعوا على
ما لم يطلع عليه من المؤلفات المصرية ، وذلك لا يقع من باب
المصادفات وإنما هو دليل على محبة أكيده يضمروها لنا أولئك
الأصدقاء الأعزاء ، وهل يمكن أن يسود التجاوب الأدبي إلا بين
أمم يعطف بعضهم على بعض ويتبادلون أواصر المحبة والإخلاص؟
أرجو القارئ أن يطمئن إلى أني لا أكتب هذا الكلام لتهئية
الخواطر بعد الحادث الذي وقع ، وإنما أريد أن أؤكد حقيقة
لا تحتاج إلى تأكيد ، وهي أن مكان مصر في العراق مكان مرموق
وأن لمصر في العراق ذخيرة من الثقة والمحبة يجب أن نحرص عليها
أشد الحرص

وقد يتفق في بعض الأحيان أن يشعر بعض المصريين في العراق
بشيء من الضجر والاستيحاء ، وهذا يرجع في الأغلب إلى سبب
واحد : هو أن المصري في أكثر أحواله يتضجر من الاغتراب ، وقد

وقع لي شيء من هذا في الأيام الأولى من حياتي في بغداد ، ثم شاء
الله أن أقيم لنفسي صلوات من المودة مع كثير من أهل العراق ،
فبدل الله وحشتي أنسا ، وشاع السرور في نفسي ، ولم أفارق بغداد
إلا وأنا داعم العين ، مفطور الفؤاد

ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف
يحزنون لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف تسير أنباؤهم في بغداد والحلة والموصل
وكركوك والنجف وكربلاء والبصرة ، وما إلى هؤلاء من
حواضر العراق

ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم في
مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطئ
دجلة والفرات

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبهم
ونتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم بنظر الأخوة الصادقة التي
لا تضمر غير العطف والصدق

وسنذكر مصر أن العراق وثق بها ، واطمأن إليها ، وتطلع إلى
أخبارها تطلع الصديق المشغوف ، سنذكر مصر أن العراق رآها

أهلا لحمل الأمانة العلمية فمكثنا من غرس أصول الثقافة الحديثة في
رحاب دجلة والفرات

وسيدكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل فلم ير من أبنائها
غير الصدق والاخلاص والوفاء؛ ويرحم الله من قال :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبأ إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

نهضة التعليم في العراق

صديق

سألتوني أن أكتب كلمة عن نهضة التعليم في العراق وعن تأثير
مصر في تلك النهضة وما ينطوي عليه من المعاني

وأجيب بأن التعليم في العراق يتقدم تقدماً سريعاً ، والأمة العراقية
في هذه الأيام تتطلع إلى حفظ مكائنها الأدبية والعلمية بين الأمم
الحية . وفي وزارة المعارف العراقية رجال أكفاء يصلون النهار
بالليل في درس مناهج التعليم ، والتفكير في تحقيق المستقبل العلمي
والأدبي لتلك البلاد

ومن الواضح أن العراق له ماض مجيد في الميادين العلمية والأدبية
وهو يجاهد جهاد الأبطال ليكون في حاضره ما يذكر بماضيه ،
وهو اليوم يرسل البعثات العلمية إلى مصر وإلى غير مصر ليعتد فريقاً
من أبنائه الأستاذية الصحيحة التي تعرف مطالب العصر الحديث
ولن تمضي أعوام حتى نسمع بأن بغداد استردت مجدها العلمي
والأدبي في عصر بني العباس ، وليس ذلك بعزير على الأشبال
في دجلة والفرات

وقد ظهرت بواكير ذلك الأمل المنشود ، ففي العراق لهذه
الأيام معاهد كثيرة ابتدائية وثانوية وعالية ، وسنسمع قريباً أن

حكومة العراق قررت إنشاء (الجامعة العراقية) وهو حلم جميل دعوت إليه مرات ومرات ، وسيحقق بإذن الله فما يمكن أن تعيش بغداد بلا جامعة وهي التي أذاعت علوم المعقول والمنقول في المشرقين ، وإليها يرجع أكثر الفضل في نشر علوم اللغة والدين

ولو شهدتم شواهد التشجيع للمعلمين والمتعلمين في العراق لرأيتكم المعجب والمطرب : ففي أكثر الحفلات المدرسية يحضر الوزراء والنواب والأعيان ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك غازي الأول بحضور بعض الحفلات تشجيعاً للحياة العلمية والأدبية .

أما نصيب مصر في نهضة التعليم بالعراق فهو يشرفها كل التشريف وأهل العراق يذكرون مصر بالخير ويثنون على جهود أبنائها في بلادهم أطيب الشاء

ولابد في هذا المقام من النص على بعض الأسماء التي نهضت بالتعليم في العراق ، وأول هذه الأسماء هو الأستاذ محمد عبد العزيز وهو رجل لم أسمع اسمه إلا من أفواه الأساتذة بالعراق ، هو رجل يحمله المصريون ويعرفه العراقيون وقد حدثني الدكتور فاضل الجمالي بأن هذا الرجل سيسجل اسمه حتما في اليوم الذي يوضع فيه تاريخ نهضة التعليم الحديث بالعراق

ولا يمكن نسيان الأستاذ عبد الرازق السنهوري فقد كان له

فضل كبير في تنظيم كلية الحقوق
وللأستاذ الزيات والدكتور عزام سيرة عطرة عن السنة
الرجال هناك

وحيثما توجهت رأيت آثار الأساتذة المصريين في تلك البلاد
وفيهـم جنود مجهولون لا يعرفون غير الواجب ، وهم جمهور من
المدرسين في المتوسطات والثانويات

وتأثير مصر في العراق لا يقتصر على التدريس فهناك ألوف
من العراقيين يتصلون بمصر اتصالا عليا عن طريق التأليف ،
فالمؤلفون المصريون لهم تلاميذ أوفياء بالعراق ، ولا يصدر في مصر
كتاب جيد إلا كان أهل العراق أول من يطلعون عليه ، وهم
يتابعون الثقافة المصرية بشغف وشوق . ولهم موازين يعرفون بها
أقدار النوابع من الشعراء والكتاب والمؤلفين

وكذلك الحال في الصحافة المصرية فهم يطلعون على ما يصدر في
مصر من جرائد ومجلات ، وكلما كانت المجلة قوية كان اتصالهم بها
أشد ، والمجلات الجديدة تقدم عندهم على المجلات الهزلية ، بخلاف
ما قد يقع عندنا في بعض الأحيان

وقد درست هذه المسألة وأنا في بغداد وأخذت إحصائيات عن
توزيع المؤلفات والمجلات ، فصيح عندي بعد التحقيق أن أهل
العراق يؤثرون المطبوعات التي يغلب عليها التعمق ، وليس معنى
هذا أنهم ينفرون من الفكاهات ولكن معناه أنهم لا يقبلون على

الأدب الخفيف إلا بعد التزود من الأدب الرزين
فإن سألتهم عن مصير التعاون العلمي بين مصر والعراق فإني
أجيب بأنه سيزداد من يوم إلى يوم ، ولكن ذلك الازدياد يتوقف
على فهم مصر لقيمة الأمانة العلمية ، وهذه الأمانة توجب التواضع
ونسيان الذات ، هذه الأمانة توجب أن يفهم المصري أنه ليس غريبا
في العراق ، فأهل تلك البلاد يؤذيهم أن نشعر في بلادهم بالغربة ،
لأنهم في الواقع أهل وأحباب

وقد اتفق لي أن كتبت رسالة وجدانية بعنوان (القلب الغريب
في ليلة عيد) فعاتبوني عليها مرات كثيرة وساء لهم أن أقول إنني في
بلادهم غريب

والعراق يثق بمصر ثقة عظيمة ، ولهذا الثقة أثمان يجب أن
يؤديها المصريون . والمصري لا يحتاج إلى مجهود كبير ليظفر بمحبة
أهل العراق فيكفي أن يكون رجلا أميناً يعرف الواجب ولا يتدخل
فيما لا يعنيه من شؤون تلك البلاد

وأعتقد أن الاتصال بالعراق ينفع أجزل النفع ، فهو يقوى
روح العروبة ويغرس معنى التضحية ويوصل الرجل بأصول
الشهامة والنبيل

ولو كان بيدي شيء من الأمر لفرضت أن لا يعين في مصر وزير
للخارجية إلا بعد أن يثبت أنه رجل زار الأقطار العربية وعرف

ما يجب أن يقوم بيننا وبين تلك الأقطار من صروح المحبة والوداد
ومستقبل مصر بين الأمم العربية مرهون بفهم هذه الحقائق ،
وظفر مصر بمحبة الأمم العربية هو في ذاته مغنم عظيم لا يزهد فيه
إلا غافل أو جهول

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعا إلى سواء السبيل

مصر والبلاد العربية

خطبة المؤلف في حفلة تكريمه بالقاهرة

أيها السادة

أشكر لأدبكم وكرمكم التفضل بالحضور للتسليم على صديق
كان اغترب مدة في سبيل خدمة العلم بالعراق
وأعتذر عن كلمة « اغترب » وأقترح حذفها من المعجمات ، فهي
كلمة تفردت بها اللغة العربية ولا يكاد يوجد لها نظير في اللغات
الأجنبية ، وعن لغة العرب نقلت إلى الفارسية والتركية ، وهي كلمة
حزينة يتمثل سوادها في كلام من يقول :

وكل محب قد سلا غير أتى غريب الهوى يا ويح كل غريب
وفي كلام من يقول :

أنا في الغربه أبكى ما بك عین غریب
لم أكن يوم خروجي من بلادی بمصیب
سجبا لی ولترکی وطناً فیہ حبیبی
ولى مع هذه الكلمة الحزينة تاريخ ، فقد سببت أول معركة أدبية
شهدتها في العراق . ذلك بأنى كنت نشرت مقالا في مجلة
الرسالة عنوانه : « القلب الغريب في ليلة عيد »
فعز على أدباء العراق أن أقول إنى في بلدهم غريب ، ودار الجدل.

أشهرًا حول ذلك المقال في الجرائد والمجلات

والحنين إلى الوطن مرض لا يصيب غير الضعاف في عالم الإنسان
والحيوان ، فأرجو أن يكون فينا من القوة ما يعصمنا من هذا
المرض العضال

أنا ما كنت غريبًا في العراق ، وإنما كنت بين أهلي وقومي ، وإذا
صح للمصري أن يشعر بالغربة وهو في وطن عربي مثل العراق ، فماذا
ترويه يصنع لو هاجر إلى بلد في استراليا أو في إحدى الأمريكتين ؟
لقد آن للمصري أن يبرئ نفسه من ذلك المرض الذي يقضى
بأن يتوجع حين تنقله الحكومة من القاهرة إلى حلوان ، آن
للمصري أن يفهم أن في دمه روحًا عربيًا يسوقه إلى الانتقال من أرض
إلى أرض في سبيل المنافع العلمية والأدبية . آن للمصري أن يفهم
أن رجولته لا تكتمل إلا إذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق
لنفسه ولوطنه أصدقاء في مختلف البلاد

وما أقول إنني كنت أقوى من سائر الزملاء الذين تشرفوا بخدمة
العلم في العراق ، وإنما أقول إنني رضيت نفسي على التخلق بأخلاق
أسلافنا من العرب فرأيت الأرض كلها وطنًا أصيلاً ، ولم تجر كلمة
الغربة على لساني إلا تأثرًا بالميراث الحزين الذي قضى بأن تتفرد لغتنا
بكلمة « غريب » من بين سائر اللغات

ولما زار سعادة العشماوي بك مدينة بغداد دعا الأساتذة المصريين

لسماع ما قد يكون عندهم من مقترحات أو شكائيات ، ففضيت أبحث
عن أعراف منهم لأصدهم عن حضور ذلك الاجتماع ، فقد كنت
أحب أن لا يكون بيننا وبين حكومة العراق وسيط ، ولو كان ذلك
الوسيط هو العشماوى بك الذى أحب العراق وأحبه العراق

إن صداقتنا للعراق لاتزال فى أول عهد من عهود التكوين ، وهى
لاتزال فى حاجة شديدة إلى من يحرسها ويرعاها ، وهى تستحق
الحراسة والرعاية ، لأنها رباط بين أمتين كانت بينهما صلات ودية
من أقدم عهود التاريخ

ولا يعرف قيمة هذه الصداقة إلا من زار العراق ، فأهل العراق
بموتهم المتينة يبعثون فىنا شعور الثقة بالنفس ، ويفرضون علينا أن
نؤمن بأن جهادنا فى سبيل العلم والمدنية لن يضيع

أهل العراق منا ونحن منهم ، ولو نطقنا الأحجار لحدثكم أن
علماء العراق اتصلوا بمصر ونقلوا إليها علومهم ومعارفهم يوم أراد
التتار أن يقوضوا حضارة بغداد ، ولعل هذا هو السبب فى أن
مخارج الحروف لاتتفق بين أمتين عربيتين كما تتفق بين مصر والعراق
أهل العراق منا ونحن منهم ، فالمؤلفات القديمة فى معاهد مصر
هى فى الأغلب عراقية ، والمؤلفات الحديثة فى معاهد العراق هى فى
الأكثر مصرية

فأرجوكم بالله أن تكونوا جميعاً أنصاراً الأخوة التي تربط بين
مصر والعراق

وقد عجب بعض الناس حين رأوني أتصدى لدفع الأذى عن
سمعة العراق ، فأعرفوا إن شئتم أنى أدفع عن مصر ديناً ثقيلاً ، فأهل
العراق في أنديةهم وجرائدهم ومجالاتهم ومدارسهم يدفعون عن مصر
قالة السوء ويخاصمون في سبيلها كثيراً من الناس ، ولو عرقتهم من
ذلك بعض ما عرفت لرأيتهم أن من القليل أن ينهض كاتب أو كاتبان
للإشادة بفضائل أهل العراق

إن القاهرة تقوم في العصر الحديث بالواجب الذي كانت تقوم
به بغداد في عصر بني العباس : فمن واجب القاهرة أن تحمل من
التكاليف ما حملت بغداد ، بل من واجب القاهرة أن ترحب بمطلع
اليوم السعيد الذي يقضى بأن يكون لها في الشرق منافس قوى هو بغداد ؛
فتفرد القاهرة بالزعامة الأدبية قد يضر أكثر مما ينفع ، لأن التفرد
بالتفوق قد يخلق عيوباً يسرها الزهو والخيلاء والاطمئنان إلى أن
ليس في الامكان أبدع مما كان !

وقد بدأت هذه العيوب تظهر مع الأسف ، فأهل مصر شعلتهم
ثقافتهم التي اتسعت وتشعبت عن التطالع إلى ما يبدع أهل الأدب
في العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والجزائر
وتونس ومراكش ، وما إلى هؤلاء من البلاد العربية . وانصراف

أهل مصر عن الأدب في تلك البلاد يحجبهم عن تطور الحياة في
أقطار حية سيكون لها بإذن الله مكان بين الأقطار التي تسود
العالم في المستقبل القريب

ومن الواجب في مقامى هذا أن أوجه أنظاركم إلى حقيقة لا يختلف
في صحتها اثنان ، تلك الحقيقة هي أن مصر تفرد بالسيادة العقلية في
البلاد العربية : مؤلفات مصر ومجلات مصر ليس لها من احم يخشى
خطره في تلك البلاد ، وشعراؤنا وكتابنا هم الذين يقدمون الغذاء
الأدبي لجمهور المتعلمين في الأقطار العربية ، وبفضل إقبال أولئك
الاخوان على مؤلفات مصر ومجلات مصر استطاعت اللغة العربية
أن تقف على قدميها بجانب اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية . فاللغة
العربية هي اليوم لغة حية حقا وصدقا ، وهي تكافح وتناضل لتسيطر
وتسود ، وما كان من الغريب أن تسيطر اللغة العربية في أقطار
كتب الله أن تستعرب منذ أجيال ، ولكن فساد الزمن وتوالى
الاحداث والخطوب جعل سيادة اللغة العربية في بلادها من الغرائب ،
فلنفهم ذلك ولنواصل الجهاد ، ولنعرف أن من أعظم الشرف أن
نكون في الحياة من المجاهدين ، ولنتذكر دائما أن انتصار اللغة
العربية في أوطانها هو البشير بان تلك الأوطان تستعد من حيث
تشعر أو لا تشعر لحياة مجيدة سترون أعلامها بعد حين

وإخواننا العرب يعجبون من تفرد مصر بالتفوق في اللغة

العربية ، فإن أذنوا شرحت لهم بعض أسرار ذلك التفوق ، فصر
هي الامة الوحيدة التي استعربت استعراباً تاماً ، وصارت العربية
لغتها الرسمية والقومية في مدة ترجع إلى ثلاثة عشر قرناً ، وهذا حظ
لم يظفر بمثله المغرب ولا الشام ولا العراق ، فما انقرضت اللغة
البربرية في المغرب ولا اللغة السريانية في الشام ولا العبرانية في
فلسطين ولا اللغة الكلدانية في العراق . وإنا نرجو أن يكون لمصر
يد يضاء في رجوع اللغة العربية إلى بلاد فارس بفضل المودة
الجديدة التي أنشأتها المصاهرة الملكية بين مصر وإيران ، فمن المؤكد
أن قادة الرأي في تلك البلاد سيراعون عواطفنا مشكورين
فلا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير كما فعل إخواننا الأتراك
سأحهم الله حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وقد وقع بيني وبين سفير إيران في العراق عتاب حين رأيته
أول مرة في بغداد ، ولم أكن أعرف أن الله سيخلق بيننا وبينهم
صلوات جديدة تجعل من الحق علينا أن نذكرهم بماضيهم الجميل في
خدمة لغة القرآن يوم كان منهم كبار النحاة وكبار اللغويين

إن فرنسا لها مدرسة في طهران لنشر اللغة الفرنسية بين أهل
إيران ، فمتى يجيء اليوم الذي تقوم فيه مدرسة عربية في وطن
الجرجاني والتوحيدي وابن العميد ؟

لقد ألفت كتاب النثر الفني أول مرة باللغة الفرنسية وأنا في

باريس ، وكان قلبي يفيض بالحزن الدامى كلما تذكرت أن أكثر
من تحدثت عنهم فى كتابى كانوا رجالا نشأوا فى بلاد فارس ، وأن
لغة العرب فى تلك البلاد صارت غريبة الوجه واليد واللسان
وكذلك كان حالى حين ألفت كتاب التصوف الإسلامى : فقد
رأيت أن أطيب أرواح التصوف هبت علينا من الأقطار الفارسية
فيا أصدقاءنا الأعزاء فى إيران تذكروا ، ثم تذكروا ، تذكروا
وأتم مسلمون أبرار أن اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة الرسول ،
وتذكروا أن الأمم العربية لها فى العالم السياسى والأدبى والاقتصادى
موازن ، وأنها خليفة بأن تزيدكم قوة إلى قوة حين تراكم ترحبون
باللغة العربية التى كان لها فى بلادكم أبناء وأحفاد وأسباط
أيها السادة

تلكم مكانة مصر بين الأمم العربية والإسلامية ، وذلكم حظها
بين الممالك والشعوب ، وهذا التجاوب الأدبى بيننا وبين من نعرف
ومن لا نعرف لم يقع من باب المصادفات ، وإنما هو علامة حب
صادق يضمه لمصر من عرف فضلها من الرجال

وأخشى والحزن يفعم قلبي أن يكون ما ظفرنا به من المجد الأدبى
ميراثاً تلقيناه عن أجدادنا النبلاء الذين ملأوا الدنيا بالتأليف
 والتصنيف وجعلوا مصر تاجاً تزدان به هامة اللغة العربية ، أخشى
أن لا تكون لنا سياسة مرسومة تفكر دائماً فى حفظ مكانة مصر

بين الأمم العربية ، أخشى أن نجهل نعمة الله علينا فننسى أننا أغنى
الأمم العربية بالآله والرجال ، أخشى أن لا نعرف أن الجهاد في
سبيل اللغة العربية هو مجدٌ أبقي على الزمن من الأهرام ومن قصر
الكركنك وقصر أنس الوجود

إن اللغة العربية هي التي ستجعل لنا لسان صدق في الآخرين ،
وهي التي ستسطر محامدنا على جبين الزمان

والذي أدعوكم إليه هو تجارة لا تعرف غير الربح
فإن كنتم في ريب من ذلك فسيروا في الأرض وانظروا كيف
تذكر مصر بالحمد والثناء

لأنتى أفرض زيارة الشرق على رجلين : الأول وزير المعارف
والثاني وزير الخارجية

أما وزير المعارف فهو اليوم معالي الدكتور محمد حسين هيكل
باشا ، وليته كان في بغداد كما كنت في بغداد يوم ظهر كتابه عن منزل
الوحي . ليت كان هناك ليرى كيف استقبل البغداديون كتابه بموكب
لم يعرفه القاهريون . وأما وزير الخارجية فهو اليوم دولة عبد
الفتاح يحي باشا ، وليته يرى كيف يأنس أهل بغداد إلى صورته
الكارينكاتورية في الجرائد والمجلات ، إنه لو رأى ذلك لعرف أن
مصر لا تعيش وحدها وإنما تعيش في أنس بأصدقائها في الشرق

ولن أنسى اليوم الذى زرت فيه نادى المعارف فى بغداد مع
سعادة الأستاذ طه الراوى فقد رأيت مكتب رئيس النادى يزدان
بصورتين كريمتين صورة الملك فاروق وصورة الزعيم سعد زغلول
ولما زرت النجف أراد أدباؤه أن يقدموا إلى هدية فكانت
تلك الهدية هى صورة الرجل الموفق محمد العشماوى بك وكان
قد زار النجف واستقبل فيه أكرم استقبال

ولما زرت الموصل رأيت رئيس نادى الجزيرة أحد تلاميذى
القدماء فأحسست أنى فى دارى وبين أهلى

فيا أهل مصر متى تعرفون نعمة الله عليكم؟ ومتى تؤدرون للأهم
العربية واجب الوفاء؟

إن الذى كتب أن تكون عاصمتكم عروس الشرق هو وحده
القادر على أن يجعلكم أهلاً لرعاية العهد وحفظ الجيل ؟
زكى مبارك

تم الكتاب بعونه تعالى

فهرس

صفحة	
٥	فاتحة الكتاب
٨	من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعي الوجد في بغداد
١٦	مداعبة الدكتور زكي مبارك
١٧	بغداد كما تصورتها وكما رأيتها
٣٠	المذاهب الأدبية في مصر
٤٥	القلب الغريب في ليلة عيد
٥٤	العروبة في مصر
٦٦	خطاب المؤلف في حفلة تكريمه في بغداد
٧٢	النبي الصبور
٧٩	مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث
٨٤	الأسمار والأحاديث في ليالي رمضان
٩٢	من صديق إلى صديق
٩٧	صورة آمال
١٠١	دروس الأدب في المعاهد العالية
١٠٧	الفن المصري في العراق

- ١١١ زكى مبارك فى لبنان
١١٤ الجامعة العراقية
١٢١ أخت بغداد والأستاذ محمود عزمى
١٢٤ شاعرية زكى مبارك
١٣٢ غريب الهوى فى عيد القمر
١٣٧ إلى ليلى المريضة فى الزمالك
١٤٤ طبيب ليلى يوصى بنظارة للدكتور محمد صبحى بك
١٤٦ حيران حيران
١٥١ محمد العشماوى بك فى بغداد
١٥٣ بين الآباء والأبناء
١٦١ الساعة صارت عشرة
١٧٥ ليلى المريضة فى العراق ليست مصرية وإنما هى عراقية
١٨٢ إلى ليلى المريضة فى الزمالك
١٨٨ الأدب والأخلاق
١٩٢ الشهرة مرض مزعج
١٩٤ سهرات المسيو دى كومنين
٢٠١ غرام مى بالرافى

- ٢٠٤ غزال يترنح في شوارع بغداد
٢٠٦ أسئلة أدبية
٢٠٧ لكل سؤال يابئين جواب
٢٢٢ حقائق وأباطيل
٢٢٣ من صديق ليلى الباريسية إلى الدكتور زكي مبارك
٢٣٧ إلى صديق ليلى الباريسية
٢٤٢ خطبة المؤلف في تحية من كرموه بالنجف
٢٤٩ أول الحرب كلام
٢٥٩ عبقرية الشريف الرضي
٢٦٨ بين مصر ولبنان
٢٧٢ بعض ما رأيت في العراق
٢٩٠ الحياة الأدبية في العراق
٣٠٤ أبو العلاء في الميزان
٣١٥ في ضيافة القرآن
٣٣١ كيف رأيت الرصافي
٣٣٨ إصلاح الخط العربي
٣٤٥ مذاهب التربية

صفحة

- ٣٥٢ إلى الدكتور أمير بقطر
٣٥٨ كيف نصادق أطفالنا
٣٦٧ حديث المؤلف مع جريدة الأخبار
٣٧٣ من العمامة إلى الطربوش ثم إلى القبعة فالسدارة
٣٨٠ أهذا زكي مبارك أم هو جمال الدين الأفغاني :
٣٨٤ أحييتني بغداد
٣٩٠ فاجعة بغداد
٣٩٩ مكانة مصر في العراق
٤٠٤ نهضة التعليم في العراق
٤٠٩ مصر والبلاد العربية

(تم الفهرس)

النصوص الإسلامية في الأدب والأخلاق

قدّم هذا الكتاب
إلى الجامعة المصرية ونال به المؤلف
إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف

يقع في مجلدين كبيرين وثمانهما معاً
أربعون قرشاً

يظهر قريباً

ليلي المريضة في العراق

تحليل دقيق

سرائر القلوب

و

لأسرار المجتمع

يظهر قريباً

عبد القادر الشافعي

ثمان الجزأين معاً خمسة وعشرون قرشاً

النثر الفني

في القرن الرابع

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثن الجزأين معاً

أربعون قرشا

تطلب الطبعة الثالثة من ﴿حب ابن أبي
ربيعه﴾ والطبعة الثانية من ﴿مدامع العشاق﴾
من المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة وكذلك
يطلب من هذه المكتبة كتاب ﴿الأخلاق
عند الغزالي﴾ وكتاب ﴿ذكريات باريس﴾
وكتاب ﴿النثر الفني﴾



Bibliotheca Alexandrina



0250564